كتاب الهلال ١٠ قروش

سلسلة ثقافية شهرية

مذكرات شارلي شابلن

صلاح حافظ



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

مدير التحرير رجاء النقاش

العدد ١٧٣ ربيع الثانى ١٣٨٥ - أغسطس ١٩٦٥

No. 173 — Août 1965

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى - فى السودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا - فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم - فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف - فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنة ، ليبيا (بنغازى وطرابلس) ١٥٠ مليماً ، الجزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرانكا

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـلاف : بريشـــة
الفنان بهجت عثمان

مذكرات شارلي شابلن

نقلها إلى العربية
صلاح حافظ

•

الجزء الأول

اهداء : الى أونا



أونا .. بريشة شارلى

تقديم

قبل افتتاح كوبرى وستمنستر ، لم يكن شارع كننجتون أكثر من ممر ضيق ، لا يكاد يتسع لمرور حصان ٠ ولكن طريقا جديدا لم يلبث أن أنشىء فى عام ١٧٥٠ ، ليصل مباشرة ما بين الكوبرى وبين « برايتون » ٠ وكانت النتيجة أن شارع كننجتون ـ الذى قضيت فيه معظم أيام صباى ـ بدأ يزهو بعدد من البيوت الجميلة ذات القيمة المعمارية ، تتصدرها شرفات من الحديد المطروق ، كان السكان يستطيعون منها ـ فى وقت من الاوقات ـ أن يشاهدوا جورج الرابع متجها بعربته الى برايتون

وفى منتصف القرن التاسع عشر كان معظم هذه البيوت قد انحدر وتحول الى شقق وحجرات للايجار ٠ ولكن بعضها ظل محتفظا بكيانه ، يسكنه الاطباء ، والتجار الناجحون ، ونجوم الفودفيل . فكان فى استطاعة الانسان صباح أيام الاحاد أن يرى ـ أمام هذا البيت او ذاك من شارع كننجتون ـ مهرا وعربة جميلتين ، ينتظران أحد النجوم ليستقلهما مسافة عشرة أميال الى فورروود أو ميرتون ٠٠ متوقفا أثناء العودة أمام مختلف الحانات فى

شارع كننجتون : حانة الفرس الابيض ، أو الهوزنر ، أو التانكارو ..

وكثيرا ما وقفت وأنا صبى فى الثانية عشرة خارج حانة تانكارو ، أراقب هؤلاء السادة المشـــاهير يخلعون ملابس الركوب ليدخلوا البار ، حيث اعتادت نخبة نجوم الفودفيل أن تلتقى فى أيام الاحاد لتشرب اخر كأس قبل العودة الى البيت للغداء • ويالها من جاذبية تلك التى كانوا يتمتعون بها وهم فى ستراتهم ذات المربعات ، وسراويلهم الرمادية ، وخواتمهم الماسية تخطف البصر هى والدبابيس التى فى ربطات أعناقهم ! كانت الحانة تغلق أبوابها فى الثانية بعد ظهر الاحد ، ويخرج الزبائن متمهلين واحدا بعد الاخر ، يثرثرون قليلا قبل أن يحيى بعضهم بعضا تحية الوداع •• فكنت أحملق فيهم مبهورا ، ومستمتعا أيضا ، لان بعضهم كان يترنح فى مشيته بطريقة تثير الضحك

وكان انصراف اخر فرد منهم بمثابة اختفاء الشمس وراء السحب • فعندئذ كنت أعود أدراجى الى صف من المنازل الوضيعة القابعة وراء ظهر شارع كننجتون ، حيث البيت رقم ٣ فى بونوال تيراس ، وأصعد درجات الســـلم الكسيحة الى الكهف الذى نقيم فيه • وكان بيتا مقبضا ، تزكمه رائحة ماء الغسيل والملابس القديمة

وكانت أمى ــ فى هذا الاحد بالذات ــ تجلس الى جوار النافذة ، تحملق فى الخارج • فالتفتت نحوى وابتسـمت بضعف • وكانت الحجرة خانقة ، لا تزيد مساحتها الا قليلا عن المتر المربع (١) ولكنها تبدو أقل مســـاحة ، وسقفها يبدو أقل ارتفاعا • والمائدة المســـتندة فيها الى

(١) فى الاصل : ١٢ قدما مربعا

الجدار تزحمها الاطباق وفناجين الشاى المتسخة • وفى الركن سرير قديم من الحديد ، ملتصق بالجدار ، طلته أمى باللون الابيض • وبين السرير والنافذة مدفأة صغيرة • وعند قدمى السرير مقعد قديم ذو مسـنـدين ، يمكن أن ينبسط ليصبح فراشا ينام عليه أخى سيدنى • ولكن سيدنى الان كان غائبا فى رحلة بحرية

وكانت الحجرة فى هذا اليوم مقبضة لان أمى قـد أهملت ـ بسبب ما ـ ترتيبها • وكانت أمى عادة تحافظ على نظافتها • لانها كانت سيدة ذكية ، مشرقة ، صغيرة السن ، لم تبلغ بعد السابعة والثلاثين • وكان فى استطاعتها أن تجعل ذلك الكهف التعس تشع منه رائحة ذهبية • خاصة فى صباح أيام الاحاد فى الشتاء، حين كانت تقدم لى افطارى فى السرير ، فأستيقظ على مرأى حجرة منسقة ، يتوهج فيها دفء نار صغيرة، وأرى براد الشاى ينفث بخاره فوق المدفأة ، وعليها سمكة طازجة أو مملحة وضعت هناك لتظل ساخنة ريثما تقوم أمى بتقمير الخبز • فوجود أمى واشراقها ، ونظافة الحجرة التى نقيم فيها ، والصـوت الناعم المكتوم لبراد الشاى أثناء قراءتى لمجلتى الاسبوعية المصورة •• كانت مسرات أنعم بها فى الصباح الهـادىء كل أحد ..

• ولكن أمى فى هذا الاحد كانت تجلس واجمة تطل من النافذة • ومنذ ثلاثة أيام وهى تجلس أمام هذه النافذة ، مهمومة يسيطر عليها هدوء غريب ، كنت أعلم أنها قلقة • فسيدنى كان غائبا فى البحر ، ولم يأتنا عنه نبأ منذ شهرين وماكينة الخياطة التى تستأجرها أمى ، وتكافح بهـا لتعولنا ، كانت قد انتزعت منها بسبب العجز عن سداد الاقساط « وهو أمر لم يكن غير عادى فى حياتنا » • كما

أن الشلنات الخمسة التى كنت أساهم بها ، وأحصل عليها من اعطاء دروس فى الرقص ، قد توقفت فجأة

على أننى كنت لا أكاد أعى بوجود أزمة ، لاننا كنـــا نعيش فى أزمة متصلة ٠٠ ولاننى غلام ، فقد كنت أنفض عن نفسى الهموم بنسيانها عن طيب خاطر ٠ وكنت كالعادة أركض بعد المدرســة عائدا الى أمى فى البيت ، فأقضى حاجياتها ، وأفرغ ماء الغسيل ، وأملأ جردلا من المـــاء النظيف ٠٠ ثم أسرع الى بيت آل ماكارثى لاقضى المســاء هناك ـ حتى ابتعد عن جو كهفنا المقبض

وكان آل ماكارثى من الاصدقاء القدماء الذين عرفتهم أمى أيام عملها فى المسرح ، وكانوا يقيمون فى شــقة مريحة فى المنطقة الارقى من شارع كننجتون ، ويعيشون حياة لا بأس بها اذا قورنت بحياتنا ٠ وكان لهم ابن اسمه والى ، ألعب معه حتى غروب الشمس ٠٠ ثم أدعى فى غالب الاحيان الى البقاء لتناول الشاى ٠ وبفضل هذا التسكع كثيرا ما تناولت وجبات هناك ٠ فاذا ما سألت مسز ماكارثى عن أمى ، ولماذا لم تعــد تراها فى الايام الاخيرة ٠ مضيت انتحل لها اى عذر ٠٠ لان أمى منـــذ ساءت أحوالها لم تكن ترى ـ الا نادرا ـ أصدقاء أيام المسرح ٠٠

وكانت هناك بالطبع ايام أبقى فيها فى البيت ، وتعد لى امى الشاى ، وتحمر لى خبزا فى دسم اللحم وهوطعام كنت أحبه ٠ ثم تقضى ساعة تقرأ لى ٠ فهى قــد كانت قارئة ممتازة ٠ وكنت عندئذ أكتشف جمال صحبة أمى وادرك اننى اقضى فى البيت وقتا افضل من ذلك الــذى اقضيه حين اذهب الى آل ماكارثى

وما كدت ادخل الحجرة حتى التفتت نحوى ، ونظرت

لى مؤنبة • وصدمنى مظهرها • فقـــد كانت نحيلة ، مرهقة ، ومن عينيها تطل نظرة انسان معذب • وسيطر على حزن خانق ، واحسست اننى اتمزق ما بين الرغبة فى ان ابقى معها أؤانسها وبين الرغبة فى أن أفر من هذه التعاسة كلها

ونظرت لى أمى نظرة خاوية ثم قالت :

ـ لماذا لا تذهب الى آل ماكارثى ؟

قلت وانا اوشك على البكاء :

ـ لاننى أريد أن أبقى معك

فاستدارت وعادت تنظر من النافذة الى الفراغ :

ـ اذهب الى آل ماكارثى وتناول غداءك •• فليس هنا شىء تأكله !

واحسست برنة تأنيب فى لهجتها • ولكننى أغلقت دونها ذهنى • وقلت بضعف :

ـ سأذهب اذا كنت تريدين ذلك ••

فابتسمت بضعف وربتت على رأسى ••

ـ نعم • نعم • اذهب

ومع اننى توسلت اليها أن تدعنى أبقى ، الا انها أصرت على ذهابى • فذهبت وبى احساس بالذنب ، تاركا اياها وحيدة فى ذلك الكهف التعس • دون ان ادرك ان مصيرا رهيبا ينتظرها بعد ايام قلائل ••



والدة شارلي : الشخصية الاولى في حياته

الفصل الأول

من المهد إلى الملجأ !

* أضحكت الجمهور وعمرى خمس سنوات
* كنا نذهب الى المدرسة بملابس أمى
* الضرب فى الملجأ باحتفال عسكرى !
* طردتنى زوجة أبى من البيت .. فأعادنى البوليس !

ولدت فى ١٦ ابريل عام ١٨٨٩ ، فى الساعة الثامنة مساء ، بشارع ايست لين بلندن . وسرعان ما انتقلنا الى ميدان وست سكوير ، بشارع سانت جورج ، لامبث . وكانت حياتي ــ بناء على ماتقول امى ــ سعيدة . فظروفنا كانت مريحة الى حد ما ، وكنا نعيش فى ثلاث حجرات مفروشة بذوق جميل . ومن ذكرياتى المبكرة اننى ــ قبل ذهاب امى الى المسرح كل ليلة ــ كنت اوضع برفق فى الفراش مع أخي (سيدنى) ، ونترك فى رعاية المربية

وكان كل شيىء يبدو لى ممكنا فى عالمى البالغ من العمر ثلاثة اعوام ونصف . فاذا كان سيدنى الذى يكبرنى بأربعة اعوام يستطيع أن يمارس ألعاب خفة اليد ، ويبتلع قطعة من النقود ثم يخرجها من ظاهر يده ، فأنا أيضا أستطيع ان افعل نفس الشىء . والنتيجة اننى ابتلعت نصف قرش ، واضطرت أمى الى استدعاء الطبيب

وكان من عادة أمى بعد العودة من المسرح ان تترك لى ولأخى على المائدة بعض الحلوى ــ شريحة من الكعك او بعض الملبس ــ كى نجدها فى الصباح . ولكن بشرط الا نحدث صوتا ، فقد كانت تنام عادة الى ساعة متأخرة من الصباح ..

كانت أمى ممثلة فى مسارح الفودفيل وكانت فى العقد الثالث من العمر ، ضئيلة الجسم ، بيضاء البشرة ، ذات شعر بنى فاتح ، وعينين لونهما بنفسجى أزورال · وكنا

نعبدها أنا وأخى سيدنى ، ومع أن جمالها لم يكن خارقا، فاننا كنا نعتقد أنها تشبه الملائكة . وكان يسرها أن تلبسنا ثيابا كاملة ، فيرتدى سيدنى بدلة ذات بنطلون طويل من الطراز الذى يرتديه طلبة ايتون (ملبوسة أبناء الذوات)، وارتدى أنا بدلة من القطيفة الزرقاء ، وقفازا من نفس اللون يتمشى معها . وكانت هذه المناسبات أعيادا نزهــو فيها بأنفسنا ونحن نتهادى على طول شارع كننجتون

وكانت لندن وقورا فى تلك الايام . كان ايقاع الحياة فيها وقورا . حتى عربات الترام التى تجـرها الخيل فى شارع كوبرى وستمنستر كانت تمشى بوقار بطىء حتى تبلغ نهاية الخط ، ثم تستدير ــ بوقار كذلك ــ على طبلية تدور حول نفسها . وقد عشنا ايضا فى شـــارع كوبرى وستمنستر هذا وكان جوه بهيجا ، قريباالى القلب، بمـا فيه من دكاكين جـذابة ، ومطـاعم ، ومســـارح استعراضية . أما محل الفاكهة عند الناصية المواجهـة للكوبرى فكان مهرجانا من الالوان الجميلة بما يحتوىعليه من أهرامات منسـقة من البرتقال ، والتفاح ، والكمثرى .. على النقيض من مبنى البرلمان الرمادى الصـــارم الذى يقابله على الشاطىء الاخر من النهر

***

كانت هذه « لندن » صباى ، وسر حياتى ، ويقظاتى : ذكرى (لامبث) فى الربيع ، ذكرى الاشياء والاحـــداث الصغيرة ، ذكرى الركوب مع أمى فوق المركبة التى تجرها الخيل وانا أحاول أن ألمس أشجار السوسن التى تمـر بنا ، وتذاكر الركوب التى تغطى الرصيف بألوانها المتعددة من برتقالية وزرقاء ، ووردية .. عندما يتوقف التـرام والمركبات ، ذكرى بائعات الزهور ذوات الوجوه المتوردة

عند ناصية كوبرى وستمنستر ، وهن يصنعن باقات مبهجة ، وتضفر أصابعهن الماهرة فروع الشجر المفضض بالترتر ، ذكرى الرائحة الرطبة للورد المرتوى حديثا ، وما كانت تتركه فى نفسى من حزن غامض ، ذكرى أيام الاحاد المقبضة والآباء والأبناء شاحبى الوجوه بصحبة البالونات الملونة وطواحين الهواء الصغيرة فوق كوبرى وستمنستر . ذكرى بواخر النهر الوديعة التى يركبونها بقرش واحد وهى تخفض مداخنها عندما تمر تحت الكوبرى ..

ان روحى ـ فيما أعتقد ـ قد ولدت من خلال مثل هذه الاشياء الصغيرة

***

ثم أشياء اخرى فى حجرة الجلوس فى بيتنا ، كانت تتأثر بها حواسى : لوحة أمى الزيتية التى تصور (نيل جوين) بالحجم الطبيعى ، والتى لم أكن أحبها ، ودوارق النبيذ بأعناقها الطويلة على البوفيه ، وكانت تضايقنى ، وصندوق الموسيقى المستدير الذى ترتسم على غطائه صورة بالمينا ملائكة وسحب ، كان يسرنى ويحيرنى فى نفس الوقت ..

ثم ذكريات لحظات تاريخية : زيارة حديقة الاسماك ، ومشاهدة ما تحفل به من الوان الملاهى مع أمى ، و (غطسة الحظ) فى مقابل ستة بنسات .. عندما ترفعنى أمى بيدها الى برميل ضخم ملىء بنشارة الخشب ، لاستخرج منه لفافة بخت تحتوى على صفارة من الحلوى لاصوت لها ودبوس للزينة مرصع بالياقوت الزائف . أو زيارة مسرح كانتربرى الاستعراضى ، والجلوس على مقعد مبطن بالقطيفة الحمراء ، لمشاهدة والدى وهو يمثل ..

ان الوقت الآن ليل . وأنا ملفوف فى بطانية للسفر

فوق عربة يجرها أربعة من الخيل ، أصحب أمي ورفاق مسرحها وهم يدللونني خلال مرحهم وضحكاتهم ، بينما المنادى ــ على طول شارع كننجتون ــ يعلن عنا بتقريظ مبالغ فيه على ايقاع الجمة العربة وحوافر الخيل

***

ثم حدث شيء ! ولعل ذلك كان بعد شهر ، أو بعد أيام قليلة ، عندما ادركت فجأة أن الامور لم تكن على ما يرام بين أمي وبين العالم . كانت قد خرجت طيلة الصباح مع صديقة لها ، ثم عادت ثائرة . وبينما أنا العب على ارض الغرفة تنبهت الى ان هناك حالة من الهياج الشديد تعتمل فوقى ، كأنما انصت من قاع بئر . وكانت هناك تعبيرات منفعلة ، ودموع تذرفها أمي وهي لا تكف عن ترديد اسم آرمسترونج .. ارمسترونج قال كذا ، ارمسترونج كان نذلا، وقدفهمت دلالة ذلكالمساء بعدمضى عدة أعوام: فأمي كانت عائدة من المحكمة حيث كانت تقاضي والدى بسبب عدم انفاقه على طفليها ، والقضية لم تسر على ما يرام . وارمسترونج هذا كان محامى والدى وكنت فى ذلك الوقت لا اكاد اعى بوجود والد لى ، لست اذكر انه عاش معنا . وقد كان من ممثلى الفودفيل هو الاخر . كان رجلا هادئا ، مهموما ذا عينين سوداوين ، تقول أمى انه يشبه نابليون . وكان صوته من طبقة الباريتون ، وسمعته الفنية طيبة ، حتى انه فى تلك الايام كان يكسب مبلغا ضخما : اربعين جنيها كل اسبوع . ولكن المشكلة كانت اسرافه فى شرب الخمر ، ذلك الاسراف الذى قالت أمى انه كان السبب فى انفصالهما

وقد كان من الصعب فى تلك الايام الا يشرب الخمر ممثلو الفودفيل ، لان الكحول كان يباع فى كافة المسارح ،

وكان على الممثل ــ حين ينتهى من اداء دوره ــ ان يذهب الى البار ويشرب مع الزبائن . وبهذه الطريقة دمرت حياة اكثر من فنـان ، وكان والدى واحـدا منهم . وقد مات بالافراط فى الكحول فى سن السابعة والثلاثين ..

وكانت امى تروى عنه الحـكايات بروح من الفكاهة والاسى . ومن ذلك انه كان يفقد اعصابه بسهولة حـين يشرب ، وفى احدى نوبات هياجه تركت له البيت وهربت الى برايتون مع بعض الاصدقاء . فلما ارسل لها برقية غاضبة يقول فيها (ماذا تنوين ان تفعلى . اجيبى حالا) .. ردت تقول ببرقية مماثلة : (سهرات راقصة وحفلات، ورحلات ، ياحبيبى) . وكانت امى كبرى شـقيقتين .. وكان والدهما (شالز هيل) اسكافيا ايرلنديا .. جاء من (كونتى كورك) بأيرلندا . وكان له خدان تفاحيان متوردان ، ،ودغل من الشعر الاشيب ، وظهر مقوس من أثر الروماتزم الناشيء ــ كما يقول ــ عن النوم فى الحقـول الرطبة ، هربا من البوليس اثناء الهبات الوطنية . وقد انتهى به المطاف الى لندن ، حيث انشـأ لنفسه محـلا لاصلاح الاحذية فى ريست لين ، بلندن

أما جدتى فكانت نصف غجرية . وكانت هذه الحقيقة تعد سرا عائليا دفينا لا يجوز افشـاؤه ، بالرغم من ان جدتى كانت تؤكد ان عائلتها اعتادت دائما ان تدفع ايجار الارض التى تقيم عليها . وكان اسم عائلتها سميث ، وما اذكره عنها الان هو انها كانت عجوزا ضئيلة الجسم ، تتخاطب معى دائما بلغة الاطفال . ولكنها ماتت قبل ان ابلغ السادسة من العمر

وكانت قد انفصلت عن جدى لسبب لم يكن احدهما يبوح به ، ولكن اذا اخذنا بكلام خالتى كيت ، فقد كان

هناك موقف عائلى ، ثلاثى ، ضبط جدى اثناءه جدتى فى احضان عشيق ..

أما أخلاقيات أسرتنا ، فان محاولة تقييمها بالمقاييس الشائعة لن تقل خطأ عن محاولة وضع الترمومتر فى الماء المغلى . فبنفس خصال جدتى ، سرعان ما هجرت البيت ابنتان جميلتان فى سن مبكر ، واتجهتا الى المسرح

فخالتى كيت — وهى الاخت الصغرى لامى — كانت ممثلة ايضا . ولكننا لم نكن نعرف عنها الا القليل ، اذ كانت تتسلل الى حياتنا وتنسحب منها بصفة دورية . وكانت جميلة ، عصبية ، لا وفاق ابدا بينها وبين امى . فكانت زياراتها المتباعدة لنا تنتهى عادة بالشجار بسبب شىء قالته أمى ، او فعلته

لذلك فرت امى فى الثامنة عشر من عمرها مع رجل فى منتصف العمر الى جنوب افريقيـــا . وكثيرا ما كانت تتحدث عن حياتها هناك ، وكيف انها عاشت فى ثراء بين الحدائق والخدم وخيل الركوب

وقد ولد اخى سيدنى فى عامها الثامن عشر هذا . وكان يقال لى ان والده لورد ، وانه عندما يبلغ الواحدةوالعشرين سوف يرث ثروة مقدارها الفان من الجنيهات .. الامر الذى كان يسرنى ويضايقنى معا

على ان امى لم تبق طويلا فى افريقيا ، وانما عادت الى انجلترا وتزوجت والدى . ولم يكن لدى علمبالسبب الذى انهى المغامرة الافريقيـــة ، ولكننى فى ايام فقرنا الشديد كنت الومها على التخلى عن مثل هـــذه الحياة الرائعة . فتضحك وتقول انها كانت اصغر من ان تـكون حذرة ، او عاقلة . أما مدى تعلقها بوالدى ، فذلك هــو الشىء الذى لم أعرفه ابدا . على أن حديثها عنه كان دائما

بلا حرارة ، الامر الذى يجعلنى اعتقد انها كانت اكثر موضوعية من ان تحبه حبا عنيفا ..

كانت فى بعض الاحيان تتحدث عنه بعطف ، وفى احيان اخرى تتحدث عن سكره وقسوته . واعتادت فيما بعد، كلما اصابها الغضب منى ، ان توبخنى قائلة :

ـ ستنتهى فى المزراب كما انتهى ابوك

وكانت قد عرفت والدى قبل ان تذهب الى افريقيا . فقد كانا عاشقين ، وكانا يمثلان معا فى الميلودراما الايرلندية المعروفة باسم « شاموس اوبريان » . وفى السادسة عشر من عمرها كانت تلعب الدور الرئيسى . ثم التقت ـ اثناء جولتها مع هذه الفرقة ـ باللورد الكهل ، وفرت معه الى افريقيا . فلما عادت الى انجلترا ، أعاد والدى وصل خيوط غرامهما الممزقة ، وتزوجا . وولدت انا بعد ذلك بثلاثة اعوام ..

ثم انفصل والدى بعد ميلادى بعام واحد . ولست أعرف ان كانت هناك ثمة اسباب اخرى لذلك ، غير الخمر . ولم تطالب أمى بنفقة . فهى كنجمة تكسب خمسة وعشرين جنيها فى الاسبوع كانت قادرة على اعالة نفسها وطفليها . وهى لم تلجأ الى طلب مساعدته الا بعد ان ضاق بها الحظ ، ولولا ذلك لما اتخذت ابدا اية اجراءات قانونية ..

كان صوتها مصدر متاعب لها . فهو لم يكن قويا . وأقل أصابة بالبرد كانت تسبب لها التهابا فى الحنجرة يدوم عدة اسابيع . ولكنها كانت مرغمة على أن تواصل العمل مما جعل صوتها يسوء باطراد ، ولم يعد فى استطاعتها ان تطمئن اليه : فهو يخذلها أثناء الغناء

ويتشرخ ، أو يختفي فجأة ويتحول الى همس ، فيضـحك الجمهور ساخرا ويشرع فى الصفير

وقد اساء الهم الناجم عن ذلك الى صحتها ، واصابها بانهيار عصبى . ونتيجة لذلك ظل يتناقص عـــدد ارتباطاتها المسرحية الى أن صار لا شيء

وقد كانت حالة صوتها هذه هي السبب فى اننى ظهرت على المسرح للمرة الاولى فى سن الخامســة . كانت عادة

تصحبنى معها الى المسرح كل ليلة حتى لا تتركنى وحدى فى الغرفة المؤجـرة . وكانت فى ذلك الوقت تمثـــل فى استعراض (الكانتين) بمسرح (الدرشوت) .. وهـو مسرح وضيع شديد القذارة ، يروق غالبا للجنود . وكان جمهورا صاخبا ينتحل أقل المبررات ليسخر ويهزأ ، فكان أسبوع العمل فى (الدرشوت) .. يعد بالنسبة للممثلين أسبوعا من الرعب ..

واذكر اننى كنت واقفا فى الكواليس فى تلك الليلة عندما خان أمى صــوتها وتحول الى همسة خافتة ، فـــدأ الجمهور يضحك ، ويمأمىء كالمعيز ، ويموء كالقطط . وكان الامر يبدو غامضا بالنسبة لى ، وانا لا افهم بالضبط ما هذا الذى يحدث . ولكن الضجة ظلت تتزايد حتى ارغمت أمى على مغادرة المسرح . وعندما وصلت الى الكواليس كانت شديدة الاضطراب ، ونشب جدال بينها وبين مدير المسرح الذى قال شيئا عن ادخالى الى المسرح لاحل محلها وكان قد رآنى قبل ذلك أمثل امام أصدقائها ..

واذكر انه فى حالة الارتبــاك السائدة قادنى من يدى الى الداخل ، وبعد أن قدم تفسيرا موجزا فى كلمات قليلة الى الجمهور تركنى وحدى على المسرح . وامام أضــواء المنصة التى تخطف البصر والوجوه التى تسبح فى الدخان ،

بدأت أغنى بمصاحبة الفرقة الموسيقية التى تعثرت بعض الوقت قبل ان تعثر على «المقام» الملائم لى . وكانت أغنية ذائعة الصيت اسـمها « جاك جونس » وكانت كلمـاتها تقول :

الا ترى أن جاك جونس رجل طيب
وكل من فى السوق يعرفه
اننى لا أجد فى جاك عيبا على الاطلاق
طالما ظل كما اعتاد أن يكون
ولكنه منذ وجد سبيكة الذهب ساءت حاله
أنظر كيف يعامل أصدقاءه القدامى
فذلك لا يملؤنى الا بالتقزز
وهو يقرأ كل احد صحيفة « التلجراف »
وكان من قبل يقنع بقراءة « ستار »
فجاك جونس منذ جمع بعض النقود
لم يعد يدرى أين هو !

***

وبينمـا أنا فى منتصف الاغنيـة ، تدفـق على المسرح سيل من قطع النقود . فتوقفت على الفور وأعلنت أننى سأجمع النقـود أولا ثم أغنى بعـد ذلك . فأثار هـذا ضحكات صـاخبة . وجاء مدير المسرح بمنديل فى يده يساعدنى فى جمعهـا . فخطر ببـالى أنه سيحتفظ بها لنفسه . وانتقل هـذا الخـاطر الى الجمهـور فزادت الضحكات ، خاصة عنـدما خرج الرجل من المسرح وأنا الاحقه . ولم أعد لأواصل الغناء الا بعد أن سلم النقود لأمى . كنت أتصرف تماما كأننى فى البيت . وتحـدثت

الى الجمهور ، ورقصت ، وقلدت كثـيرين بمـا فى ذلك أمى فى نشيدها الايرلندى الذى تقول فيه :

رايلى رايلى رايلى
هذا هو الفتى الذى يسلب العقل
رايلى رايلى رايلى
هذا هو الفتى الذى أريد
ففى الجيش كله ، صغيره وكبيره
ليس هناك من هو أنيق ووسيم
مثلى رايلى .. الجاويش النبيل
فى الفرقة المجيدة ، الثامنة والثمانين !

***

وفى براءة تامة ــ وأنا أردد الذهب ــ قلدت صـوتها وهـــو يتشرخ ! واذهلنى الاثــر الذى احـدثه ذلك فى الجمهور . كانت هناك ضحكات ، وهتافات ، ثم مزيد من القذف بالنقود . وعندما دخلت أمى الى المسرح لتأخذنى ، أثار ظهورها عاصفة هائلة من التصفيق

وكانت هذه الليلة أول مرة أظهر فيها على المسرح . وآخر مرة تظهر فيها أمى

* * *

عندما تعالج الاقدار مصـائر البشر ، فانها لا تراعى العدل ، ولا الرحمة . فقد كان كذلك سلوكها مع أمى . فهى لم تسترد صوتها أبدا . وكما ينتهى الخريف الى الشتاء ، كذلك كانت ظروفنا تنتهى من سيىء الى أسوأ . ومع أن أمى كانت حريصة ، وادخرت قليلا من المال فانه سرعان ما تبخر مالها ، كما تبخرت مجوهراتها ومقتنياتها القليلة الأخـرى التى رهنتهـا لتعيش .. مؤملة طـول الوقت أن صوتها سوف يعود

وما زلت اذكر جيدا صـلاتنا فى الكنيسـة ذات يوم قائظ من ايام الصيف ، وبرودة الـكاس الفضىء المـلىء بعصير العنب الشهى وهو يمر على المصلين . ويد أمى وهى تمنعنى برفق عندما شربت منه اكثر ممـا يجب . وكيف تنفست الصعداء عندما أغلق القس الانجيل ، لان معنى ذلك ان خطبة الوعظ على وشك أن تنتهى ، وبعدها ستبدأ الصلاة وتراتيل الختام

فى ذلك الوقت انتقلنا من ثلاث غرف كبيرة الى غرفتين صـغيرتين ، ثم الى غرفة واحـدة .. بينما حاجاتنـا تتناقص ، والاحياء التى ننتقل اليها تزداد فقرا مرة بعد مرة ..

وتحولت امى الى الدين ، آملة فيما أعتقد أن يعيـد اليها صوتها . فكانت تذهب بانتظام الى كنيسة المسيح فى شارع كوبرى وستمنستر ، وكان على أن أظل جالسا طوال عزف الارغن لموسـيقى باخ . وأن أنصت بنفـاد صبر مؤلم الى صـوت الاب « ف.ب. ماير » المسرحى المشحون بالانفعال ، وصداه يتردد فى القـاعة كأنه وقع أقدام تخب على الارض ، ولابد أن مواعظه كانت مؤثرة ، لاننى من وقت الى آخر كنت الحظ أمى وهى تمسح من عينيها بهدوء دمعة أشعر معها ببعض الحيرة

منذ ارتبطت أمى بالكنيسة لم تعد ترى أصدقاءالمسرح الا نادرا . لقد تبخر ذلك العالم وصار مجرد ذكـرى . وبدا كأنما لم نعش طول حيـاتنا فى غير هـذه الظروف التعسـة . وكان العـام الواحـد يبدو عمرا بأكمله من العمـل . فنحـن نعيش فى عتمة غسق لا بهجـة فيه ، والعثور على الوظائف أمر عسير ، يزيد من عسره بالنسبة لأمى أنها غير مدربة على اى عمل غير المسرح

كانت ضئيلة الجسم ، حسـاسة ، تناضل فى مواجهة

ظروف معاكسة رهيبة .. فى عصر فيكتورى بلغ فيه كل من الغنى والفقر حده الاقصى ، وليس لنساء الطبقة الفقيرة خيار غير العمل خادمات فى المنازل ، أو (مرمطونات) فى محال الحلوى . وكانت أمى تحصل من وقت الى آخر على وظيفة ممرضة ، ولكن ذلك كان نادرا ، ولفترات قصيرة ..

غير أنها كانت واسعة الحيلة : فقيامها بحياكة ثيابها المسرحية بنفسها جعلها خبيرة بأشغال الابرة ، قادرة على أن تكسب بضعة شلنات من حياكة ثياب رجال الكنيسة . ولكنها كانت مبالغ لا تكاد تكفى ثلاثتنا . أما والدى ، فان ادمانه الخمر جعل ارتباطاته المسرحية — كالشلنات العشرة التى كان يدفعها كل أسبوع — غير منتظمة ..

وكانت أمى الآن قد باعت معظم حاجاتها . وأخرت حتى النهاية بيع صندوق ثيابها المسرحية . فقد تمسكت بهذه الثياب على أمل انها ذات يوم ستسترد صوتها وتعود الى المسرح . وبين وقت وآخر كانت تغوص بيدها فى الصندوق لتستخرج منه شيئا : فستان مطرز ، أو باروكة شعر . فنطلب منها أن ترتديها . وما زلت أذكرها وقد ارتدت ذات مرة روب القاضى وغطاء رأسه ، ومضت تغنى بصوتها الهزيل احدى أغنياتها الناجحة التى كتبتها بنفسها . وكانت أغنية ذات ايقاع راقص (٢ : ٤) ، وكلماتها تقول :

سيدة قاضية أنا
وقاضية ناجحة أيضا
أحكم بالعدل فى القضايا
ونادرا ما يفعل القضاة !
فى نيتى أن القن المحامين

درسا أو درسين
وان اريهم ما الذى
يستطيع النساء أن يفعلن ..

ثم تقفز من الغناء الى الرقص برشاقة وسهولة مذهلة، وتدع جانبا عملها فى الحياكة وتمضى تتحفنا بأغانيها الناجحة الاخرى وبالرقصات التى كانت تصاحبها الى أن تلهث ويصيبها الارهاق . ثم تعود تتذكر شيئا وتطلعنا على بعض تذاكرها المسرحية القديمة التى كان مكتوبا على واحدة منها :

برنامج ممتاز ! ...
للموهبة الرائعة
ليلى هارلى
ممثلة الدراما والكوميديا
والمشخصة الراقصة ...

وكان من عادتها أن تلعب أمامنا ، لا أدوار الفودفيل الخاصة بها فقط ، وانما تقلد أيضا ممثلات أخريات من اللواتى شاهدتهن فيما يسمى بالمسرح الرسمى

فاذا ما روت احدى المسرحيات ، فانها كانت تؤدى مختلف شخصياتها : فى « علامة الصليب » مثلا تؤدى دور ميرشيا بالنور المقدس فى عينيها ، ذاهبة الى الساحة لتأكلها الاسود . ثم تقلد صوت « ويلسون بارنت » الكهنوتى المرتفع ، وهو يعلن مرتديا حذاءه الذى يبلغ ارتفاع كعبه خمس بوصات « لأنه كان رجلا قصيرا » :

ـ اننى لا اعرف ما تكون هذه المسيحية . ولكن الذى أعرفه هو أنها اذا كانت تصنع نساء مثل ميرشيا ، فان روما ، بل العالم كله ، سيكون بها أكثر نقاء !

وكانت تؤدى ذلك بمسحة من السخرية ، ولكن دون

انكار ، أو عدم تقدير ، لمواهب باريت

وكانت غريزتها لا تخطىء أبدا فى التعرف على أولئك الذين يتمتعون بمواهب مسرحية أصيلة . وسواء كانت تتحدث عن الممثلة ايلين تيرى ، أو نجم الاستعراض « جو الفين » فانها فى الحالين تقدم شرحا لفنهما .. وتتكلم عن المسرح كما لا يستطيع أن يفعل غير انسان يعشقه

وكانت تروى النوادر ، وتقوم بتمثيلها ، فتقلد نابليون مثلا فى حادثة مدونة عن حياته : حين شب على اطراف أصابعه فى المكتبة ليصل الى كتاب فيها ، فلمحه المارشال ناسى (وأمى كانت تقوم بتمثيل الشخصيات معا ، ولكن دائما بطريقة فكاهية) فقال : فلتأذن لى يا سيدى بأن أحضر لك الكتاب ، فأنا أعلى منك ، فيرد نابليون مزمجرا في كبرياء : أعلى ؟ قل أطول !

وكانت أحيانا تقلد نيل جوين وتصف بحيوية ركوعها على سلالم القصر حاملة طفلها ، مهددة الملك شارل الثانى : « أعط هذا الطفل اسما والا هشمته على الارض ! » .. فيرد الملك شارل على الفور : حسنا ليكن اسمه دوق سانت « البانز »

وأذكر أننى ذات مساء كنت أرقد فى فراشى مصابا بالحمى فى حجرتنا الوحيدة فى البدروم فى شارع أوكلاى . وكنت أنا وأمى وحدنا ، وسيدنى قد ذهب الى المدرسة الليلية . فمضت امى بطريقتها التى لا مثيل لها تقرأ وتمثل وتشرح لى صفحات الانجيل وحب المسيح للاطفال الصغار . ولعل مبعث انفعالها كان مرضى ، ولكنها رسمت لى صورة شديدة الاقناع للمسيح وتحدثت عن تسامحه وقدرته على التفهم ، وعن المرأة الخاطئة التى كان الغوغاء سيرجمونها ، وكلماته الموجهة اليهم : « من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر »

وظلت تقرأ حتى ساعة الغروب ، لم تتوقف الا لتضىء المصباح . ثم تحدثت عن الايمان الذى كان المسيح يبثه فى نفوس المرضى . فكان يكفيهم ان يلمسوا طرف ردائه ليتم لهم الشفاء

ثم تحدثت عن الحقد والغيرة من جانب كبار الكهنة والفريسيين و ..

واخبرتنى عن المسيح والقبض عليه واحتفاظه بهدوئه وكرامته أمام بيلاطس البنطى الذى غسل يديه قائلا : « لست اجد فيه (أى فى المسيح) علة » .. وروت لى كيف جردوه من ثيابه وجلدوه ثم وضعوا على رأسه اكليلا من الشوك وراحوا يهزأون به ويبصقون عليه قائلين : « السلام يا ملك اليهود ! »

وطفرت الدموع من عينيها وهى مستمرة فى الحديث . واخذت تحكى عن سيمون وهو يساعد فى حمل صليب المسيح ، ونظرة العرفان التى حباه المسيح بها

ثم حكت لى عن اللص الذى مات بجواره على الصليب وهو يطلب المغفرة وقول المسيح له : « الليلة تكون معى فى الفردوس » . وقوله لامه وهو يشرف عليها من فوق الصليب : « يا امرأة ، هو ذا ابنك » . ثم صياحه مع آلام النزع الاخير : « الهى لماذا تركتنى »

ــ وبكينا كلانا ..

وقالت أمى :

ــ الا ترى كم كان انسانا

وكان مثلنا جميعا يعذبه الشك

وفى تلك الليلة بلغ من سيطرة أمى على مشاعرى أننى تمنيت أن اموت على الفور لالتقى بالمسيح . ولكن أمى لم تبد حماسا للفكرة ، وقالت :

ــ ان المسيح يريدك أن تعيش اولا وتؤدى دورك هنا على الارض

لقد أضاءت لى أمى فى تلك الحجرة المظلمة من البدروم فى شارع أوكلى .. ذلك النور الذى لم يعرف عالمنا أبدا ما هو أرق منه .. والذى غذى الادب والمسرح بأعظم وأخصب مواضيعهما : الحب ، والعطف ، والانسانية

واذا كنا نعيش كما ترى فى الطبقة الدنيا ، فقد كان سهلا ان نعتاد عدم الاكتراث باللغة التى نستخدمها ولكن أمى كانت تقف دائما خارج بيتها وتراقب الطريقة التى تتكلم بها باذن واعية ، لتصحح أخطاءنا النحوية ، وتشعرنا بأننا مختلفون عن غيرنا

وكنت كلما زاد انحدارنا فى هاوية الفقر الوم أمى ــ بجهلى الصبيانى ــ على عدم عودتها الى المسرح . وعندئذ كانت تبتسم وتقول لى ان تلك الحياة كانت زائفة وصناعية» ، وانه فى مثلها يمكن للانسان بسهولة أن ينسى الله ، ولكنها مع ذلك ما كانت تتحدث عن المسرح أبدا الا وتنسى نفسها ، ويجرفها الحماس

وفى بعض الايام كانت ــ بعد أن تستعيد ذكرياتها ــ تلوذ فجأة بالصمت ، وتنحنى على أبرتها لتنجز عملها . وعندئذ كان سيطر على الاسى لانها لم تعد الان جزءا من تلك الحياة التى تخطف البصر . وكانت هى ترفع رأسها وتلاحظ حزنى ، فتواسينى ضاحكة

واقترب الشتاء وقد بليت ثياب سيدنى جميعا . فصنعت له أمى « جاكتة » من سترتها القطيفة القديمة .. وكانت اكمامها مطرزة بشرائط سوداء وحمراء ذات « كسر » عند الكتفين ، حاولت أمى جهد طاقتها أن تزيلها ، ولكنها لم تنجح الا قليلا فى ذلك . وبكى سيدنى عندما أرغم على ارتدائها قائلا :

ـ ماذا سيظن الاولاد فى المدرسة ؟

فأجابت امى :

ـ ومن يكترث بما يظنه الناس ؟ انها تبدو فذةللغاية !

وكانت لهجتها مقنعة الى حد ان سيدنى حتى هـذه اللحظة لا يدرى ما الذى جعله يسلم بارتدائها . غير أنه فعل . وكانت هذه الجاكتة ، وحذاء أمى الذى بترت جزءا من كعبيه ، سببا فى اشتباكه فى اكثر من خناقة فى المدرسة فقد كان الاطفال يسمونه « يوسف وسترته ذات الالوان » . أما أنا ، فبسروال الرقص الذى يلتصق بالجسم والذى قصت أمى ساقيه ليكونا جوربا لى « كان يبدو كأنه جورب ذو كلسر» أطلق التلاميذ على اسم « سير فرانسيس دريك»

وعندما بلغنا قاع هذه المرحلة بدات أمى تعانى من نوبات صداع نصفى فظيع . واضطرت ان تتخلى عن الحياكة ، وأن ترقد أياما فى حجرة مظلمة وعلى عينيها عصـابة من ورق الشاى . واخذ أخى سـيدنى فيما بين ساعات الدراسة ببيع الصحف . ومع أن مساهمته هـذه كانت أقل من قطرة فى المحيط ، فانها بالفعل أعانتنا الى حد ما ..

على أن لكل ازمة دائما ذروتها ، وقد كانت الذروة فى حالتنا هذه ذروة سعيدة ..

فذات يوم ، بينما كانت امى فى دور النقاهة وعلى عينيها ماتزال العصابة ، دخل سيدنى مندفعا كالقذيفة الىالحجرة المظلمة ، ورمى بالصحف التى معه على السرير وهو يهتف :

ـ عثرت على كيس نقود !

وقدم سـيدنى الكيس الى أمى . وعندما فتحته وقع بصرها على عمود من قطع النقود الفضية والبرونزية .. فاغفلته وانهارت على ظهرها فى الفراش من فرط الانفعال ..

كان سيدنى يصعد الى مركبات الخيل العامة ليبيع جرائده . وفى احدى هذه المركبات رأى كيس نقود على مقعد خال .. فأسرع يلقى فوقه باحدى الجرائد كأنها سقطت منه بالصدفة ، ثم استرد الجريدة والكيس معها ، وغادر المركبة على الفور ، وهناك وراء لوحة اعلان فى مكان خال من الناس ، فتح الكيس ، ورأى عمود النقود الفضية والبرونزية وعندئذ ، كما قال لنا ، وثب قلبه . واغلق الكيس دون أن يحصى النقود ، ثم عاد راكضا الى البيت

وعندما استردت أمى روعها ، أفرغت محتويات الكيس على السرير . ولكن الكيس ظل ثقيلا فى يدها . فقد كان له جيب ثالث فى الوسط ، وفتحته أمى فاذا بها تجد سبعة جنيهات ذهبية

وفرحنا فرحا جنونيا . ولم يكن فى الكيس والحمد لله أى عنوان ، فلم تنشط وساوس أمى الدينية نشاطا يذكر . ومع أن فكرة باهتة عن الخسارة التى أصابت صاحب الكيس قد عبرت بأذهاننا، فان هذه الفكرة سرعان ماطردها ايمان أمى بأن الله أرسل الكيس الينا بركة من السماء

وما كادت أمى تسترد صحتها حتى ذهبنا نستجم فى جزيرة « ساوث اند » ، بعد أن كستنا أمى كسوة جديدة

وأصابنى منظر البحر — عندما رأيته أول مرة — بالذهول . فقد بدا لى معلقا فى الفضاء ، كأنه غول حى نابض ، يوشك ان ينقض على

وخلع ثلاثتنا الاحذية ، ورحنا نركض فى الماء ، فكانت حلما من المتعة دغدغة البحر الدافىء لباطن قدمى ، وحول كعبى ، وتداعى الرمل الناعم تحت خطواتى

وكان يوما .. ياله من يوم ! الشاطىء الزعفرانى بما ينتثر عليه من جرادل وردية وزرقاء ، ومجاديف خشبية،

وخيم وشمسيات ملونة .. والزوارق الشراعيـــة وهى تتمايل فى نشوة فوق موجات صغيرة ضـاحكة .. وعلى الشط زوارق أخرى تستلقى بكسل على جنبها ، وتفوح منها رائحة الأعشاب البحرية والقطران .. ان ذكرى هذا كله ما تزال حتى الان تملؤنى بالنشوة ..

وقد عدت مرة اخرى الى ســاوثهند فى عام ١٩٥٧ ، وبحثت عبثا عن الطريق الضيق الصاعد الذى وقع منــه بصرى على البحر أول مرة . ولكن لم يكن هناك اثر له . ولم أجد ــ عند أطراف المدينة ــ الا أطلال مايشبه قرية للصيادين ، بها واجهات للمتاجر من الطراز القديم ، وقد بدتلى هذه القريةمألوفة ،تذكر فى غموض بالماضى ..ربما بسبب رائحة أعشاب البحر والقطران

ولكن .. كما ينفد الرمل من الساعة الرملية ، كذلك نفدت فى النهاية ثروتنا ، وعاد الفقر يلاحقنا من جديد

وبحثت أمى مرة أخرى عن وظيفة ، ولكن الوظائف كانت أندر من ان توجد . وبدأت المشاكل تتراكم .. وتأخرنا فى دفع الاقساط فانتزعت ماكينة الخياطة من أمى نتيجــة لذلك . أما الشلنات العشرة الاسبوعية التى كان يدفعهــا أبى ، فقد توقفت تماما ..

ولجأت أمى بدافع اليأس الى محام جــديد . فاذا بالمحامى ــ وقد رأى أن القضية لن تدر عليه ربحا مجزيا ــ ينصحها بأن تضع نفسها وطفليها فى رعاية ســلطات مقاطعة لامبث .. حتى يضطر والدى الى اعالتنا

ولم يكن أمام أمى حل اخر ، فهى مثقلة بعبء طفلين ، وصحتها سيئة . فقررت أنندخل نحن الثلاثة ملجألامبث

الفصل الثانى

فى ملجأ لامبث

* حصلت على وظيفة راقص .. بسبعة عشر مليما !
* وعلى سبيل التجديد ، حاولت أن أكون مشعوذا !
* ثياب أخى ترهن مرة فى الأسبوع !
* فن الوصول الى مائدة آل ماكارثى
* هل كان ينقذ أمى فنجان من الشاى ؟

ومع اننا ــ أنا واخي سيدنى ــ كنا نفهم ما فى دخول الملجأ من عار ، فاننا فكرنا فى الامر ــ عندما أخبرتنا به أمى ــ كمغامرة مثيرة ، واجازة من الحياة فى حجرة واحدة مزدحمة .. وعندما جاء ذاك اليوم الحزين لم أدرك حقيقة ما كان يجرى الا عندما دخلنا من بوابة الملجأ . فعندئذ وضح لى ماينطوى عليه الامر من الم وتعاسة ، اذ انهم وراء البوابة فرقوا بيننا ، وذهبت أمى فى أتجاه عنبر النساء ، بينما ذهبنا نحن فى الاتجاه الاخر نحو عنبر الاطفال ..

وكم اذكر جيدا حتى الآن مرارة الحزن اللاذع يوم أول زيارة بيننا ، وصدمنا عندما رأينا أمى تدخل الحجرة للزيارة مرتدية ثياب الملجأ . كم كانت تبدو حزينة ومرتبكة! لقد هرمت ونحل عودها فى أسبوع واحد . ولكن وجهها أضاء عندما وقع بصرها علينا . وشرعنا نبكى أنا وسيدنى ، فجعلناها تبكى هى الاخرى ، وبدأت تجرى على خديها الدموع . الا انها ما لبثت أن استعادت ثباتها ، وجلسنا معا على دكة رديئة الصنع ، وأيدينا فى حجرها تربت عليها برفق. وأخذت تبتسم لمرأى رؤوسنا الحليقة، وتتحسسها مواسية وهى تؤكد لنا أننا عن قريب سليتئم شملنا من جديد . ثم أخرجت لنا من ثوبها كيسا من حلوى جوز الهند كانت قد ابتاعته من مخازن الملجأ بما حصلت عليه

من نقود من احدى الممرضات فى مقابل قيامها بنسج أساور من الدانتيلا لها . وبعد افتراقنا ظل اخى سيدنى يردد فى أسى : كم تقدمت بها السن

وسرعان ما روضنا أنفسنا ـ أنا وسدنى ـ على حياة الملجأ ، ولكن فى اطار من الحزن . ولست أذكر الان الا قليلا مما كان يحدث . ولكن وجبة الغداء على المائدة المستطيلة مع غيرنا من الاطفال كانت من المناسبات المحببة التى نتطلع اليها . وكان يترأس المائدة نزيل بلغ حوالى الخامسة والسبعين من العمر ، فى ملامحه كبرياء ، وله لحية خفيفة بيضاء ، وعينان حزينتان . وقد أختارنى كى أجلس بجواره لاننى كنت أصغر الاطفال سنا ، وكانت لى ـ الى أن حلقوا راسى ـ اكثر الخصلات غزارة ، وقد سمانى هذا الرجل « نمره » الخاص . وكان يقول انه سيجعلنى عندما اكبر ارتدى قبعة ذات شارة وأجلس عند مؤخرة عربته واضعا يدى على صدرى . وقد جعلنى هذا التشريف أحبه حبا شديدا . ولكن ماكاد يمضى يوم أو يومان حتى ظهر على المسرح غلام آخر يتمتع بخصلات أغزر منى ، واحتل مكانى بجوار السيد العجوز الذى أوضح فى عبث أن صاحب الخصلات الاكثر والسن الصغير له دائما حق الاولوية !

وبعد ثلاثة أسابيع من وصولنا الى ملجأ لامبث ، نقلنا الى « معهد هانويل لليتامى والأحداث المشردين » .. على مسافة تبلغ حوالى ٢١ ميلا خارج لندن

وكانت رحلة مثيرة فى عربة خبز تجرها الخيل ، وتمت الرحلة فى ظروف طيبة ، فقد كانت المنطقة الريفية حول هانويل جميلة فى تلك الايام ، تزينها صفوف من شجر الكستناء ، وحقول من القمح الناضج ، وأشجار فاكهة مثقلة بالثمار . ومنذ ذلك الوقت ورائحة الريف العطرية

السخية بعد سقوط المطر تذكرنى دائما بهانويل
وما كدنا نصل الى هناك حتى سلمونا الى عنبر الاستقبال ، حيث وضعونا تحت الملاحظة الصحية والعقلية قبل أن ندخل المدرسة . لان وجود غلام واحد شاذ أو مريض ، بين ثلثمائة غلام او اربعمائة ، لن يكون فى صالح المدرسة ، فضلا عن أن الغلام نفسه سيكون فى حالة تعسة

وقد قضيت الايام الاولى فى المعهد ضائعا ، تعسا ، ففى الملجأ كنت دائما اشعر ان أمى على مقربة منى ، وكان هذا يطمئننى . أما فى هانويل فكان يبدو أن مسافات شاسعة تفصل بيننا . وعندما حولنا من عنبر الاستقبال الى عنابر المعهد ذاته ، فرقوا بينى وبين سيدنى ، فذهب هو مع الاولاد الكبار وذهبت انا مع الأطفال . وصرنا ننام فى قسمين منفصلين من العنابر . فكان نادرا ما يرى أحدنا الاخر . واصبحت وحيدا وانا لم اتجاوز السادسة من عمرى الا بقليل ، مما أشعرنى بالضآلة وحقارة الشأن .. خاصة فى أمسيات الصيف أثناء الصلوات التى تسبق النوم . عندما كنت « وانا راكع على ركبتى مع عشرين طفلا اخر بثياب النوم » انظر من خلال النوافذ المستطيلة الى عتمة الغروب وهى تتكاثف ، والى التلال المتعرجة فى الخارج ، واشعر انى غريب عن كل هذا ، بينما أصواتنا ترتفع بالغناء ، مبحوحة ، ناشزة :

أمكث معى ، فالمساء يهبط بسرعة ، والظلام يتكاثف ، يارب ، فلا تدعنى .. فى هذه اللحظات كنت أشعر أننى منبوذ تماما ، ومع اننى لم اكن أفهم معنى الابيات ، فان اللحن ، وشفق الغروب ، كانا يضاعفان من حزنى

ولكن ، كم كانت مفاجأة سعيدة عندما دبرت أمى ـ بعد شهرين ـ أمر خروجنا ، ورحلنا الى لندن مرة أخرى ،

والى ملجأ لامبث . وهناك وجدنا أمى تنتظرنا أمام بوابة فى ثيابها العادية . كانت قد تقدمت بطلب الخروج لمجرد الرغبة فى أن تقضى يوما فى طفليها ، وفى نيتها — بعد أن نقضى عدة ساعات معا — أن نعود فى نفس اليوم ! فهى كواحدة من نزيلات الملجأ لم تكن تملك غير هـذه الحيلة لتجتمع بنا

وكانت ملابسنا الخاصة قد أخذت منـا قبل دخـول الملجأ ، وعقمت بالبخار فأعادوها الينا الان غير مـكوية . وصارت هيئتنا ونحن نجتاز بوابة الملجأ — انا وسيدنى وامى — أشبه بالانقاض المهشمة

كانت ساعة مبكرة من الصـباح ، ولم يكن لنـا مكان نذهب اليه . فمشينا مسافة ميل الى حديقة كننجتون العامة . وكان مع سـيدنى تسـعة بنسـات مربوطة فى منـديل ، فاشـترينا نصف رطل من الكريز الاسـود ، وقضينا الصباح بأكمله فى الحديقة على احدى الدكك. ثم كور سيدنى فرخا من ورق الصحف . ولف حوله بعض الخيط ، وقضينا فترة من الوقت نلعب نحن الثلاثةلعبة « امسك الكرة » . وفى منتصف النهار ذهبنا الى«بوفيه» انفقنا فيه بقية نقودنا على كعكة ثمنها قرش . وسمكة من أسماك الرنجة المجففة ثمنها نصف قرش ، وكوبين من الشاى ثمن كل منهمـا مليمـان . وبعـد ذلك عدنا الى الحديقة ، ومضينا نلعب أنا وسيدنى مرة أخرى ، بينما جلست أمى تطرز بالابرة

وتوجهنا بعد الظهر عائدين أدراجنا الى الملجأ ، حتى تستطيع — كما قالت أمى بمرح — أن « نلحق بموعـــد الشاى » . وكان المسئولون فى غاية السخط . لان عودتنا معناها تكرار نفس الاجراءات من تبخير لثيـــابنا ، الى ابقائنا أنا وسيدنى فترة أخرى فى الملجأ قبل اعادتنا الى

هانويل .. الامر الذى كان يتيح لنا بالطبع فرصة لمقابلة امى مرة اخرى

ولكن اقامتنا فى هانويل فى المرة الثانية دامت ما يقرب من عام كامل ، وكان عاما تثقيفيا ، دخلت فيه المدرسة ، وتعلمت كيف اكتب اسمى : شـــــابلن . وكانت الكلمـة تفتنني ، ويخيل الى انها تشبهنى !

وكانت مدرسة هانويل مقسمة الى قسمين : أحدهما للبنين ، والاخر للبنات . وفى مساء السبت كان الحمام يحجز للاطفال ، وتشرف على استحمامهم البنات الأكبر سنا . وكنت بالطبع لم أبلغ السابعة ، ولكن شعـورا بالضعة كان يسودنى فى تلك المناســـبات .. فكان ذلك الخضوع لفتاة فى الرابعة عشر من العمر ، تعالج بالفوطة كل جزء من شخصى ، أول مناسبة فى حياتى أدركت فيها معنى الحرج

وعندما اتممت السابعة نقلت من عنبر الاطفال الى عنبر الصبيان ، حيث تتراوح الاعمار مابين السابعة والرابعـة عشرة . واصبحت الان أملك المساهمة رسميا فى كل نشاط للكبار . فى تمارينهم وتدريباتهم الرياضية ، ورحـلاتهـم المنتظمة التى كانوا يقومون بها مرتين فى الاسبوع مشيا على الاقدام خارج المدرسة

ومع اننا فى هانويل كنا موضع رعاية طبية : فان حياتنا كانت حزينة . فالحزن كان فى جو المكان ، وفى تلك الطرق الزراعية التى كنا نقطعها مشيا فى طوابير ثنـائية تتألف من مائة طفل ، وكم كنت أمقت هذه الطوابير ، والقرى التى نمر خلالها بينما الاهالى يحملقون فينا ! فقد كانوا يسموننا نزلاء « معمل التفريخ » .. وهو اصطلاح عامى للتعبير عن المعهد

وكان الملعب الخاص بالصبيان تبلغ مساحته فدانا ، وكان مرصوفا بالحجر ، تحيط به مبان من دور واحد من الطوب الاحمر ، تستخدم كمكاتب ومخازن ، وصيدلية ، وعيادة أسنان ، وحجرة الثياب . وفى اظلم ركن من الفناء توجد حجرة خالية ، كان محبوسا فيها فى ذلك الوقت غلام فى الرابعة عشرة من عمره ، يقول الاولاد عنه انه شخص ميئوس منه ، فقد حاول الفرار من المعهد متسلقا الى السطح من خلال نافذة فى الدور الثانى ، وتحدى المسئولين وهم يتسلقون وراءه بقذائف الطوب وثمار البلوط . حدث هذا بعد أن نمنا نحن الصغار ، ورواه لنا الاولاد الكبار فى الصباح التالى بصورة تبعث على الفزع

وكانت العقوبة على مثل هذا النوع من الجرائم الكبرى تجرى علنا فى يوم الجمعة من كل أسبوع ، فى صالة الالعاب الرياضية . وهى قاعة كئيبة يبلغ طولها عشرين مترا وعرضها حوالى ١٢ مترا ، ولها سقف مرتفع ، وعلى أحد جوانبها تتدلى حبال مثبتة فى العوارض العليا . فاذا جاء صباح الجمعة سار طابور من مائتين أو ثلثمائة من الاطفال تتراوح اعمارهم بين السابعة والرابعة عشرة ، واصطفوا فى القاعة بهيئة عسكرية ، راسمين ثلاثة اضلاع من مربع . أما الضلع الرابع فهو الطرف الاقصى من القاعة ، حيث يقف المذنبون وراء منصة مدرسية فى طول موائد طعام الجنود ، ينتظرون المحاكمة والعقاب ، وأمام المنصة من الناحية اليمنى ينهض حامل خشبى تتدلى منه السيور الجلدية التى تستخدم فى تقييد اليدين ، بينما تتدلى من اطاره عصا تنذر بالسوء

وكان جزاء المخالفات الصغيرة أن يوضع الغلام على المنصة الطويلة ، ووجهه الى أسفل ، ثم يوثق أحد الرقباء قدميه ويمسك بهما . بينما يقوم رقيب آخر بسحب

قميصه من البنطلون الى أن يغطى رأسه ، ويحكم شد البنطلون حول جسمه

وعندئذ كان يتقدم الكابتن هيندروم ، وهو من رجال البحرية المتقاعدين ، يبلغ وزنه حوالى قنطارين .. ويقف واحدى يديه خلف ظهره . وفى الاخرى عصا طولها أكثر من متر ، وسمكها كابهام الرجل ، يقيسها على مؤخرة الصبى . ثم ببطء ، بحركة مسرحية ، يرفعها عاليا فى الهواء ، ويهوى بها — بحفيف مسموع — على مؤخرة الصبى . كان مشهدا رهيبا ، وكان الصبى فى كافة الاحوال ينهار مغمى عليه

وكان الحد الادنى للعقوبة ثلاث عصى ، والحد الاقصى ستا . وكانت صرخات الضحية — اذا تلقى أكثر من ثلاث عصى — تمزق القلب. وفى بعض الاحيان كان يصمت صمتا مريبا ، أو يفقد الوعى . وكانت الضربات تشل الذى يتلقاها ، فيحتاج الى من يحمله وينحيه جانبا ، حيث يوضع على مرتبة من مراتب الالعاب ، ويترك فوقها يتلوى ويختلج عشر دقائق على الاقل قبل أن يخف الالم ، تاركا على مؤخرته ثلاثة خطوط حمراء عريضة كاصابع امرأة تحترف غسل الثياب !

ويختلف الامر عند استخدام « الفرقلة » . فبعد ثلاث ضربات بها ، كان اثنان من المشرفين يحملان الغلام الى العيادة للعلاج

وكان الاولاد ينصحون بألا تنكر التهمة ، حتى اذا كنت بريئا .. اذ أن ثبوتها عليك عندئذ سيكون معناه أن تنال أقصى العقوبة . والعادة أن الاولاد لم يكونوا قادرين على النطق بحيث يتمكنون من اعلان براءتهم

كنت عندئذ فى السابعة من العمر ، وفى قسم الاولاد

الكبار . وما زلت أذكر كيف شاهدت أول مرة عملية الضرب هذه ، وأنا أقف صامتا وقلبى يدق بعنف منذ دخل المسئولون .. بينما يقف وراء المنصة ذلك الصبى الميئوس منه المغامر الذى حاول الفرار من المعهد . كنا لا نكاد نرى أكثر من رأسه وكتفيه فوق مستوى المنصة ، فقد كان بالغ الضآلة ، وكان له وجه نحيف مدبب ، وعينان واسعتان

وقرأ الناظر التهمة بوقار ، ثم سأل :

ــ مذنب أم غير مذنب ؟

فلم يجب متمردنا ، وانما نظر امامه متحديا . فاقتادوه عندئذ الى العروسة . ولما كان صغيرا ، فقد أوقفوه على أحد صناديق الصابون حتى يمكن ربط معصميه . وبعد ان تلقى ثلاث ضربات « بالفرقعة » أخذوه الى العيادة للعلاج

وكانت العادة أنه ــ فى يوم الخميس من كل أسبوع ــ يرتفع فى الملعب صوت نفير يجعلنا نتوقف عن اللعب ، ونتجمد فى أماكننا كالتماثيل .. بينما يعلن الكابتن هيندروم فى البوق أسماء أولئك الذين يتعين عليهم أن يقدموا أنفسهم يوم الجمعة للعقاب

وحدث ذات خميس ــ لدهشتى الشديدة ــ أننى سمعت اسمى ينادى عليه . ولم يكن فى وسعى ان أتخيل ما الذى فعلت . ولكننى لسبب لا أعرفه أحسست بانفعال شديد . ربما لاننى صرت محور حادث هام

وفى يوم المحاكمة تقدمت نحو الناظر الذى قال :

ــ أنت متهم باشعال النار فى دورة المياه !

ولم يكن هذا صحيحا . اذ أننى عندما وصلت الى دورة المياه لادخل الحمام كان بعض الاولاد مشغولين

بحرق قطع من الورق على الارض الحجرية ، وكانت النار مشتعلة ، ولكن لم تكن لى يد فيها

وسأل الناظر :

ــ مذنب أم غير مذنب ؟

فوجدت نفسى مدفوعا بقوة فوق طاقتى ، وبعصبية شديدة ، الى أن أصيح :

ــ مذنب

ولم أشعر لا بالغيظ ولا بالظلم ، وانما باحساس المغامر الخائف ، عندما قادونى الى المنصة وأنالونى ثلاث عصى على مؤخرتى . وكان الالم مبرحا الى حد أن بهر أنفاسى ، ولكننى لم أصرخ . ومع انه شل أعضائى ذلك الالم ، وحملونى الى المرتبة كى أفيق ، فاننى أحسست كأنى بطل منتصر

ولما كان سيدنى يعمل فى المطبخ ، فانه لم يعرف بالامر الا فى يوم توقيع العقوبة .. عندما سار مع الاخرين فى الطابور الى قاعة الالعاب ، ورأى وجهى ــ لصدمته المذهلة ــ يطل من فوق المنصة . وقد قال لى فيما بعد أنه عندما رآنى أتلقى العصى الثلاث بكى فى غيظ شديد

وكانت عادة الاخ الاصغر ان يشير الى أخيه الاكبر بكلمة « صغيرى » . وهى كلمة توحى بالاعتزاز ، وتشعر بشىء من الامان . وكثيرا ما كنت أذهب لارى « صغيرى » سيدنى وأنا خارج من قاعة الطعام .. فقد اعتاد أن يأتينى خلسة بشريحة مطوية من الخبز ، فى داخلها كتلة غليظة من الزبد مضغوطة بين الطيات .. فأخفيها تحت قميصى ، ثم أقتسمها مع غلام آخر .. لا لاننا كنا نجوع ، ولكن لان كتلة الزبد السخية كانت ترفا غير عادى بالنسبة لنا

غير أنه ما كان لهذه الاطايب أن تستمر . فقد غادر سيدنى معهد هانويل كى يلتحق بسفينة التدريب « اكسماوث »

كان صبى الملجأ يخير ــ اذا ما بلغ العام الحادى عشر ــ بين أن يلتحق بالجيش أو بالاسطول . فاذا اختار الاسطول أرسلوه الى « اكسماوث » . ولم يكن هذا بالطبع اجباريا ، ولكن سيدنى كان يريد أن يبنى لنفسه مستقبلا فى البحار . وهكذا تركت وحدى ، منفردا ، فى هانويل

الشعر بالنسبة للاطفال جزء من كيانهم الشخصى . فهم يبكون بعنف عندما يحلق أول مرة . ومهما كان شكله ، كثيفا أو مجعدا أو ناعما .. فانهم يشعرون انهم بالحلاقة قد جردوا من جزء من شخصيتهم

وقد حدث مرة أن ظهر وباء القراع فى هانويل . ولما كان هذا المرض شديد العدوى ، فان المصابين كانوا ينقلون الى صالة العزل التى تطل نوافذها على الملعب من الدور الاول . وكثيرا ما كنا نرمى بأبصارنا الى أعلى فى اتجاه هذه النوافذ ، ونرى أولئك التعساء يرقبوننا بنظرات محرومة وقد حلقت رؤوسهم تماما واصطبغت باللون البنى من أثر صبغة اليود . كان منظرا بشعا ، وكنا لا ننظر اليهم الا باشمئزاز

ولهذا فاننى يوم وقفت خلفى احدى الممرضات فجأة فى قاعة الطعام ، وفرقت ما بين أطراف شعرى ثم صاحت « قراع ! » .. وجدت نفسى أنفجر فى نوبات عنيفة من البكاء

واستغرق العلاج عدة أسابيع بدت كأنها أبدية . وحلق راسى وصبغ باليود ، وربطت حوله منديلا كالفار جمع

القطن . ولكن الشيء الذى رفضت أن أفعله كان النظر من النافذة الى الاولاد فى الملعب ، فقد كنت أعلم مدى الازدراء الذى يحملونه لنا

وفى أثناء فترة العزل هذه ، زارتنى أمى ، فقد استطاعت بطريقة ما أن تدبر أمر خروجها من الملجأ ، وشرعت تحاول من جديد أن تقيم بيتا لنا . وكان حضورها بمثابة باقة من الزهور ، فقد كانت مشرقة وعذبة الى الحد الذى جعلنى أخجل من مظهرى غير المهندم ، ورأسى الحليق المصبوغ باليود

وقالت لها الممرضة :

– أرجو أن تغفرى له قذارة وجهه

فضحكت أمى .. وكم أذكر جيدا كلماتها الحبيبة وهى تضمنى الى صدرها وتقبلنى قائلة :

– بكل ما عليك من أقذار ، فاننى سأظل أحبك

وبعد ذلك بفترة قصيرة ، ترك سيدنى السفينة اكسماوث ، وتركت أنا هانويل ، وعدنا نعيش مع أمى . فقد استأجرت غرفة وراء حديقة كننجتون العامة ، واستطاعت لفترة ما أن تعولنا . ولكننا سرعان ما عدنا الى الملجأ مرة أخرى . وكانت الظروف التى أدت الى عودتنا تتعلق بعجز أمى عن العثور على عمل ، وكساد سوق أبى فى الوسط المسرحى . وكنا أثناء تلك الفترة القصيرة قد ظللنا طوال الوقت ننتقل من حجرة فقيرة الى حجرة فقيرة ، كأنما هى مباراة فى الشطرنج تنتهى النقلة الاخيرة فيها بالعودة الى الملجأ

ولما كنا نعيش الان فى أبرشية أخرى «شياخة أخرى»، فقد أرسلنا الى ملجأ غير الملجأ الاول ، ومنه الى معهد « نور وود »

وكان أكثر كآبة من هانويل ، اذ كانت أشجاره أطول ، وأوراقها أقتم . ولعل المنـاظر الريفية حوله كانت أكثر روعة ، ولكن الجو السائد كان مجردا من البهجة

وذات يوم ، بينما كان سـيدنى يلعب الكرة ، نادته اثنتان من الممرضات ، واخرجتاه من اللعب لكى تقولا له أن أمى قد جنت وأرسلت الى مستشفى الامراض العقلية فى « كين هيل » ولم يظهر على سيدنى أى انفعال عندما سمع بالنبأ ، بل عاد أدراجه ليستأنف لعب الكرة ، ولكنه بعد المباراة اختلى بنفسه ، وانخرط فى البكاء

أما أنا ، فلم أصـدقه عنـدما أخبرنى ، ولم أبك .. ولكن يأسا قاتلا سيطر على نفسى ، لماذا فعلت أمى ذلك ؟ كيف يمـكن لأمى المشرقة ذات القلب الرقيق أن تجـن ؟ كنت أحس احساسا غامضا بأنها تعمدت الفرار من عقلها ونبذتنا . وفى غمار يأسى كنت أراها فى الاحلام تنظر الى بأسى وهى تبتعد شيئا فشيئا وتذوب فى الفراغ

وبعد أسبوع تم ابلاغ النبأ الينـا بصفة رسـمية . وأبلغنا أيضا أن المحكمـة قضت بالزام أبى بكفالتنـا أنا وسيدنى

وكانت فـكرة الاقامة مع أبى شيئا مثـيرا .. فأنا لم أره فى حياتى غير مرتين ، احداهما على المسرح ، والاخرى أثناء عبورى ذات مرة أمام بيت فى شارع كننجتون ، اذ رأيته قادما فى ممر الحـديقة الامامى نحو البـوابة ، وبصحبته سيدة . فتوقفت أراقبه وقد أدركت ادراكا غريزيا انه أبى . وأومأ هـو الى كى أقترب ، ثم سألنى عن اسـمى ، فشـعرت برهبة الموقف وتصنعت البراءة قائلا : « شارلى شابلن » . وعندئذ نظر الى السـيدة نظـرة ذات مغزى ، ووضع يده فى جيبه ونفحنى نصف جنيه . فانطلقت دون كلمة أخرى أجرى راسـما الى

البيت ، واخبرت أمى أننى قد رأيت أبى

والان ها نحن سنعيش معه . ومهما كان الحـال فان شارع كننجتون كان شيئا مألوفا لدينا ، ولم يكن غريبا ولا كئيبا كمعهد نوروود

ونقلنـا المختصون فى عـربة خبز الى البيت رقم ٢٨٦ بشارع كننجتـون ، نفس البيت الذى سـبق أن رأيت والدى يمشى فى ممـر حديقته . وفتحت البـاب نفس السيدة التى سبق أن رأيتهـا معه . كان مظهرها يدل على التشتت وحدة الطبع ، ولكنها كانت جذابة ، رشيقة، طويلة القامة .. لها شفتان ممتلئتان ، وعينان حزينتان كعينى الظبى . وكان اسـمها لويز ، وعمرها يكاد يبـلغ الثلاثين ..

واتضح أن المستر شابلن ليس فى البيت .. فتركنـا الموظف المختص ـ بعد الشكليات المعتادة والتوقيع على الاوراق ـ فى عهـدة لويز .. التى صـعدت بنـا الى السلاملك ، ثم الى حجرة الجلـوس الخـارجية . وكان هناك طفل صغير يلعب على أرض الغرفة عندما دخلنا . طفل باهر الجمـال فى الرابعة من عمره ، له عينـان واسعتان ، داكنتان ، وشعر بنى غزير الخصلات : كان ابن لويز .. اخى غير الشقيق

كانت الاسرة تعيش فى غرفتين . ومع ان الحجـرة الخارجية كانت لها نوافذ رحبة ، فان الضوء كان يتسلل الى الداخل كما لو كان يأتى من تحت سطح الماء وكل شىء يبدو حزينا كلويز نفسها ، حتى ورق الجدران ، والاثاث المكسو بشعر الخيل . حتى السمكة الكبيرة الموضـوعة فى حوض زجاجى ، والتى ابتلعت سـمكة أخرى فى نفس حجمها ومازال رأسها يطل من فمها .. كانت هى الاخرى حزينة حزنا فظيعا

ووضعت لويز فى الغرفة الخلفية سريراً اضـافيا لى ولسيدنى كى ننام عليه ، ولكنه كان سريرا صـغيرا . فاقترح سيدنى أن ينام على الكنبة فى حجرة الجلوس . واذا بلويز ترد عليه :

ــ ستنام حيث تؤمر !

وساد بهذه الاجابة صمت محرج ونحن نعود أدراجنا الى غرفة الجلوس

لم يكن استقبالها لنا حارا ، ولا عجب . فأنا وسيدنى قد فرضنا عليها فرضا . ونحن فوق ذلك ابنـا زوجة أبى المطلقة

والتفتت لويز الى سيدنى قائلة :

ــ خذ .. اجعل نفسك ذا فائدة واملأ اناء الفحـم

ثم تحولت الى :

ــ وانت . اذهب الى مخزن الاطعمة المجاور « لهوايت هارت » ، واحضر لى لحما محفوظا بخمسة قروش

فما كنت الا سعيدا بالابتعاد عنهـا وعن الجو كله . ففى داخلى كان قد بدأ ينمو خوف غامض ، وبدأت أتمنى لو أننا عدنا الى معهد نوروود

ثم وصل أبى فيما بعـد ، واستقبلنا برقة وحنـان . وقد افتتنت تماما به . فكنت على المـائدة أراقب كل حركة يقوم بها ، وطريقته فى الاكل ، وفى الامساك بالسكين بين أصابعه كالقلم أثناء تقطيع اللحم . وقد ظللت أقلده فى ذلك عدة سنوات

وعندما تكلمت لويز عن شكوى سيـدنى من ضيق السرير ، اقترح أبى أن تدعه ينام على الكنبة التى فى حجرة الجلوس . فأثار انتصار سيدنى هذا حفيظتها ، ولم تغفر له ذلك ابدا . وصارت تشكوه الى أبى بشكل دائم

ومع أن لويز كانت امرأة مشاكسة ، مثيرة للخصام ، فانها لم تضربني مرة واحدة ، بل ولم تهددني بالضرب . ولكن بغضها لسيدني جعلني دائما في حالة خوف وحذر منها .. وكانت تشرب كميات كبيرة من الخمر ، ممـــا ضاعف من هذا الخوف . فقد كانت تنتابها حين تسكر حالة مخيفة من الاستهتار وعدم السيطرة على النفس ، حتى انها لتبتسم معجبة بطفلهـــا ذي الوجه الملائكي وهو يسبها مستخدما أقذر الالفاظ . ولسبب ما لم تكن لي على الاطلاق صلة بالطفل . فمع أنه كان أخي الا انني لا أذكر يوما اني تبادلت معه كلمة واحدة .. وكنت أكبره بأربع سنوات . وكثيرا ما كانت تجلس وهي مخمورة فتسرح وتتأمل ، بينما أكون أنا في حالـــــة من الذعر الشديد أما سيدني فلم يكن يعيرها التفاتا كبيرا ، اذ نادرا ما كان يعود الى البيت قبل ساعة متأخرة من الليل

اما انا فكان على أن أعود بعد المدرسة الى البيت رأسا، وأقضي المشاوير ، وأؤدي مختلف الاعمال

وأرسلتنا لويز الى مدرسة كننجتون . فكان في ذلك شيء من الترفيه والانطلاق ، اذ كان وجود اطفال آخرين معي يجعلني أشـــعر بأنني اقل عزلة . وكان يوم السبت نصف عطـلة ، ولكنني لم أكن أتطلع اليه ، لان العطـلة كانت تعني العودة الى البيت ، ومسح البلاط ، وغســـل السكاكين . ولان لويز كانت دائما تسكر في ذلك اليوم . فبينما أكون أنا مشـــغولا بغسل الســـكاكين ، تكون هي جالسة مع صديقة لها ، تشرب الى ان يسيطر عليها نكد مرير فتشـــكو لصديقتها بصـــوت مســـموع من الزامها برعايتنا أنا وسيدني . وتقول مشيرة الي :

ـ هذا لا بأس به . اما الاخر فانه حلوف . ويجب أن

يرسل الى اصلاحية .. فضـــــلا عن ذلك فانه ليس ابن شارلى .. !

وكان هذا التحقير اســـــيدنى يخيفنى ويحطم روحى ، فأذهب الى فراشى مكتئبـا ، وأرقـــد مستسلما لأرق حزين . ولم أكن عندئذ قد بلغت الثامنة بعد ، ولكن تلك الايام كانت أطول أيام حياتى ، وأكثرها تعاسة

وكان يحدث فى بعض ليالى السبت ـ وأنا فى قبضـة يأسى وجزعى ـ أن أسمع صوت الموسيقى الصاخبـــة لاحدى الفرق المتجولة وهى تعبر خارج النـافذة الخلفية لغرفة النوم ، تعزف لحنا حزينا من الحـــان المـارش ، ويصحبها شبان معربدون وبائعات متجولات تتصـــاعد ضحكاتهن العابثة فى الفضاء . فكنت أشعر أن هذا الموكب ـ بصخبه وحيويته ـ انما يتجاهل فى قسوة شـــديدة تعاستى . ومع ذلك ، فما تكاد الموسيقى تخفت وهى تبعد حتى اشعر بالاسف لذهابها . وكان يمر احيـــانا بعض المنادين : وكان منهم واحد يخيل لى انه يصيح « احكمى يا بريطانيا !» ، وينهيها بصوت كصياح الخنازير ، بينماهو الواقع يبيع المحار . ومن الحانة التى تفصل بيننا وبينها ثلاثة بيوت ، كنت أستطيع أن أسمع صوت الزبائن فى موعد الاغلاق ، وغناء السكارى وهم ينوحون بأغنية باكية مقبضة كانت شائعة فى ذلك الوقت :

بحق أيامنا الماضية ، لاتدع خصامنا يطول

بحق أيامنا الماضية ، قل أنك ستنسى وتصفح

فالحياة أقصر من أن تضيع فى الخصام

والقلوب إثمن من أن نحطمها

ضع يدك فى يدى ، ولنكن أصدقاء بحق أيامنا الماضية !

ومع أننى لم أتفهم الاحساس الذى تنطوى عليه أبدا ، فانها كانت تبدو لى متمشية مع ظروفى التعسة ، وكانت تسلمنى برفق الى النوم

وكان سيدنى اذا عاد متأخرا ــ وهو ماكان يحدث دائما ــ يغزو دولاب الاطعمة !. فأثار هذا لويز . ودخلت عليه ذات ليلة ــ بعد أن ثملت بالخمر ــ فنزعت من فوقه الغطاء وأمرته بأن يخرج من البيت . ولكن سيدنى كان قد أعد نفسه لها ، فدس يده بسرعة تحت الوسادة واخرج منها سلاحا .. خطافا طويلا من النوع المستخدم فى تثبيت الزراير كان قد دبب نهايته

وقال سيدنى :

ــ اذا اقتربت منى سأدفن هذا فيك !

فتراجعت مأخوذة :

ــ يا للمضغة الصغيرة القذرة ! انه يريد أن يقتلنى !

فقال سيدنى بلهجة مسرحية :

ــ نعم ، سأقتلك !

ــ انتظر حتى يعود المستر شابلن الى البيت !

ولكن المستر شابلن كان نادرا ما يعود للبيت .. علما اننى ما زلت أذكر مساء يوم من أيام السبت ، قضاه فى البيت يشرب مع لويز ، وكنا لسبب ما جالسين جميعا مع صاحبة البيت وزوجها فى حجرتهما الخارجية فى الدور الأرضى ، وكان وجه والدى يبدو شاحبا فى ضوء المصابيح الكهربائية ، وهو يغمغم لنفسه متأففا ، ثم فجأة وضع يده فى جيبه ، وأخرج حفنة من النقود قذف بها فى عنف على الارض ، تاركا قطع الذهب والفضة تتناثر فى كل اتجاه . فأصابنا الذهول . ولم يتحرك أحد من مكانه . وظلت صاحبة البيت جالسة كما هى ، ولكننى ضبطت عينيها تتابعان أحد الجنيهات الذهبية وهو يتدحرج الى

ركن بعيد تحت أحد المقاعد .. وكانت عيناى تتابعانه أيضا .. وعندما لم يتحرك أحد رأيت انه يحسن ان ابدأ انا والتقطه . فتبعتنى صاحبة البيت والاخرون ،وراحوا يلتقطون بقية النقود ، حريصين على ان تكون تحركاتهم مكشوفة امام عين والدى المنذرة

وذات يوم من أيام السبت ، عدت بعد المدرسة الى البيت فلم أجد فيه أحدا . كان سيدنى خارج البيت طول النهار كعادته يلعب الكرة ، وقالت صاحبة البيت ان لويز وطفلها خرجا منذ الصباح . وقد شعرت بالارتياح لذلك فى البداية . اذ كان معناه اننى لن الزم بمسح البلاط وتنظيف السكاكين . وانتظرت الى ما بعد موعد الغداء بوقت طويل ، ثم بدأت أقلق . اتراهم قد نبذونى وذهبوا؟ وعندما انقضى نصف النهار الثانى بدأت افتقدهم . ماالذى حدث ؟ كانت الحجرة تبدو شديدة الكآبة ، وخلوها من الناس يرهبنى . ثم اننى أيضا بدأت أشعر بالجوع ، فنظرت فى الخزانة ، ولكنى لم أجد طعاما . ولم يعد فى استطاعتى ان أتحمل البقاء وحيدا اكثر من ذلك ، فغادرت البيت وقد سيطرت على الكآبة ، وانفقت بقية النهار أتجول بين محال السوق القريبة من البيت . وتسكعت فى طريق لامبث ، وعند التقاطع ، وانا أتطلع فى نهم خلال نافذات المطاعم الى فخاذ الخنازير والعجول المشوية التى يتصاعد منها البخار ، والبطاطس بلونها البنى المذهب وهى مغمورة فى الصلصة . وقضيت ساعات اتفرج على الدجالين يعرضون بضاعتهم . فشغلنى ذلك عن نفسى ، وهدأ من روعى ، ونسيت الجوع بعض الوقت ، والمأزق الذى انا فيه ..

وعندما عدت الى البيت ، كان الليل قد حل . وطرقت الباب فلم يجب أحد . كان الجميع فى الخارج . وعدت

امشى مرهقا حتى بلغت ناصية الشارع ، ثم جلست فوق الرصيف على مقربة من البيت حتى أستطيع اذا ما جاء أحد ان اراه . كنت متعبا ، وشقيا . ورحت اتساءل أين يمكن ان يكون سيدنى . وكان الوقت يقترب الان من منتصف الليل ، والشارع قد خلا من متسكع أو اثنين . وبدأت الدكاكين تطفىء أنوارها ، باستثناء الصيدلية والمحلات العامة ، فأحسست عندئذ بتعاسة لا حد لها

ثم فجاة ، سمعت صوت موسيقى . موسيقى مذهلة ! تأتى من داخل الحانة القائمة على ناصية « هوايت هارت » وتتردد اصداؤها البديعة فى الميدانالخالى . كان اللحن لحن « النحلة وزهر العسل » ، تعزفه الكلارنيت وموسيقى الفم بمهارة معجزة . ولم أكن قد وعيت قبل ذلك تذوق الالحان .. ولكن هذا اللحن كان جميلا ، شديد العذوبة مسرفا فى البشاشة والبهجة ، دافئا يبعث على الاطمئنان والثقة ، فنسيت تماما موقفى اليائس ، وعبرت الطريق الى حيث كان العازفان . كان عازف موسيقى الفم رجلا ضريرا ، فى موضع العينين منه جرابان خاليان ، عليهما اثار جراح . أما الكلارنيت ، فكان يعزف بها رجل مخمور ، ينضح وجهه بالمرارة ..

ولكن العزف سرعان ماانتهى . وعاد الليل بعد انصرافهما اكثر كآبة مما كان . وعدت انا أعبر الطريق مرهقا ، ضعيفا فى اتجاه البيت . ولم يكن يعنينى عندئذ أن أجد فيه أحدا . فقد كان كل ما أريد هو أن أنام

وهناك فى ممر الحديقة ، تبينت فى الظلام شخصا يتجه عبر الممر نحو باب البيت . كانت لويز ، يسبقها ابنها الصغير . وانتفضت عندما لاحظت أنها تعرج بشكل ظاهر، وتميل على أحد جانبيها ميلا شديدا . وظننت فى البداية أن ساقها اصيبت فى حادث . ثم تبينت أنها مخمورة .

ولم أكن قد رأيت مخمورا يترنح من قبل . وفكرت انه من الافضل ــ فى مثل حالتها هذه ــ ان ابتعد عن طريقها . فانتظرت الى ان دخلت . ثم جاءت صاحبة البيت فدخلت معها ..

وبينما انا اصعد السلم المظلم متسللا على امل ان اصل الى فراشى دون ان يلحظنى احد ، برزت لى لويز على بسطة السلم صائحة :

ــ الى أين تظن أنك ذاهب بحق الجحيم ؟ .. ان هــذا ليس بيتك

وجمدت فى مكانى بلا حراك

واستطردت لويز :

ــ لن تنام هنا الليلة .. قرفت منكم جميعا . أخرج من هنا ! أخرج أنت وأخوك دع والدكما يتكفل بكما

فاستدرت عائدا دون تردد ، وهبطت السلم الى خارج البيت . لم أعد متعبا ، فقد انبثق فى نفسى عزم جديــد وكنت قد سمعت ان ابى من زبائن حانة « رأس الملكة » فى شارع الامير ، على مسافة نصف ميل تقريبا . فمشيت فى ذلك الاتجاه على امل ان اعثر عليه هناك . على اننى سرعان ما لمحت هيكل جسمه متجها نحوى ، وقد عكس ظله أحد مصابيح الطريق

وبادرته قائلا :

ــ لقــد رفضت ان تدعنى ادخل . واظن انهــا كانت تسكر ..

فقال وهو يترنح فى اتجاه البيت :

ــ انا نفسى لست فى وعيى ..

فحاولت أن أؤكد له عكس ذلك . ولكنه غمغم فى مرارة :

ـ كلا ٠٠ اننى مخمور ٠٠

ثم فتح باب غرفة الجلوس ، ووقف هناك صامتا يحدج لويز بنظرة تنذر بالشر ٠ وكانت تقف بجوار المدفأة ، تحاول أن تستند الى الرخامة وجسمها يتمايل

وقال ابى :

ـ لماذا لم تدعيه يدخل ؟

فنظرت اليه مرتبكة ، ثم غمغمت بلسان متثاقل :

ـ تستطيع ان تذهب الى الجحيم انت ايضا ٠ وكلكم !

وفجأة التقط ابى فرشاة ملابس من على الرف ، ثقيلة الوزن ، وقذف بها بعنف ، وبحركة خاطفة .. فأصاب ظهرها جانب وجه لويز ، وأغمضت عينيها ، ثم تهاوت فاقدة الرشد على الارض كأنما ترحب بالغياب عن العالم ٠٠

وصدمنى تصرف ابى صدمة شديدة فهذا العنف كان يجعلنى افقد احترامى له ٠ ولست اذكر الان بالضبط ماذا حدث بعد ذلك ٠ واظن ان سيدنى جاء متأخرا ،وان والدى ذهب بنا الى فراشنا ، ثم غادر البيت

وعرفت فيما بعد ان شجارا كان قد نشب فى الصباح بين ابى وبين لويز بسبب انه تركها ليقضى اليوم عند اخيه ، سبنسر شابلن ، الذى كان يملك عددا من المحال العامة في لامبث وما حولها ٠ وكانت لويز ، بسبب حساسية وضعها ، تكره ان تزور عائلة سبنسر شابلن ، فذهب والدى بمفرده ، وقضت هى اليوم سردا على ذلك فى مكان آخر ٠٠

كانت لويز تحب والدى ٠ وقد استطعت ـ برغم صغر

سنى – ان اتبين ذلك فى نظرتها اليه ، فى تلك الليلة التى وقفت فيها امام المدفأة مضطربة ، جريحة القلب بسبب اهماله لها . كما رأيت ذلك أيضا فى مناسبات اخرى . فثمة أوقات كان والدى فيها رقيقا ، شديد العذوبة ، يحرص على أن يقبلها قبلة المساء قبل ان ينصرف الى المسرح . وكان فى صباح الاحد يفطر معنا – ما لم يكن مخمورا – ويحدثها عن التمثيليات الفودفيل التى يكون مشتغلا باعدادها ، فيستحوذ تماما علينا . وكنت عندئذ اراقبه بيقظة الصقر ، واستوعب كل حركة يقوم بها . وقد حدث ذات مرة انه – فى نوبة من نوبات العبث – ربط فوطة حول رأسه ، ومضى يطارد طفله الصغير حول المائدة وهو يردد :

– أنا الملك دندى راوند !

وتلقت لويز ذات يوم زيارة من « جمعية الرفق بالاطفال » اثارت غيظها الى حد كبير . فقد جاءوا بسبب تقرير تلقوه من البوليس عن العثور علينا ذات يوم – انا وسيدنى – نائمين فى الثالثة صباحا بجوار مدفأة رجل من خفراء الليل . وكان ذلك قد حدث فى ليلة رفضت فيها لويز ان تفتح لنا الباب ، وارغمها البوليس على فتحه وادخالنا ..

على انه بعد ايام قليلة ، وبينما كان ابى فى جولة فى الاقاليم ، تلقت لويز خطابا يعلن ان امى قد غادرت مستشفى الامراض العقلية . وبعد يوم او يومين جاءت صاحبة البيت تعلن ان هناك سيدة تقف امام الباب الخارجى وتطلب مقابلة سيدنى وشارلى . فقالت لويز :

– هذه امكما ..

وساد الارتباك لحظة . ثم قفز سيدنى السلالم ليلقى

بنفسه بين احضانها ، وانا فى اثره • كانت هى نفسها ، أمنا الحلوة الباسمة .. التى بسطت يديها لتحضننا فى عطف حنون ••

وكانت لويز وامى فى حالة من الاضطراب لا تسمح لهما بان تلتقيا • ولهذا بقيت امى عند الباب الخارجي بينما مضينا انا وسيدنى نجمع حاجياتنا • ولم يكن ثمة حقد او حفيظة بين اى من الجانبين •• فالواقع ان شعور لويز كان طيبا جدا – حتى تجاه سيدنى – وهى تودعه

كانت أمى قد استأجرت حجرة فى أحد الشـــــوارع الخلفية وراء تقاطع كننجتون ، بجوار مصنع « هايوارد » للطرشى • وكانت رائحة الخل تفوح فى المكان يوميا بعد الظهر • ولكن الحجرة كانت رخيصة ، والتأم فيها شملنا من جديد • وصحة أمى كانت ممتازة ، حتى ان اذهاننا لم تتقبل ابدا فكرة انها كانت مريضة

اما كيف عشنا خلال تلك الفترة ، فليست لدى عن ذلك أدنى فكرة . على اننى لا اذكر اننا تعرضنا لمتاعب غير عادية ، او مشاكل مستعصية الحل • وكانت شـــلنات ابى العشرة الاسبوعية قد اصبحت شبه منتظمة • اما أمى فقد استأنفت بالطبع اعمال الابرة • وجددت صلتها بالكنيسة

وكانت عادة والدى قبل أن يخرج للذهاب الى المسرح – حوالى الثامنة مساء – أن يشرب ست بيضات نيئة ممزوجة بالنبيذ ، ولا يأكل معها – الا نادرا – أى طعام اخر . وكان هذا كل مايقيم أوده يوما بعد يوم . ونادرا ما كان يعود الى البيت . فاذا فعل فانما ليفيق من الخمر بالنوم

الفصل الثالث

راقص الكلاكيت

* أول جمال هزني .. ماري دورو
* الفن .. كلمة لا أعرفها !
* تظاهرت بأني يهودى .. لأجد عملا فى لندن !
* غار منى الممثل العظيم .. فضربنى قلما

كان والدى يعرف رجلا اسمه المستر جاكسون ، يدير فرقه من راقصي الكلاكيت اسمها « اولاد لانكشاير الثمانية » . فأقنع والدتى بأنها ستكون بداية طيبة لى كى أكون لنفسى مستقبلا مسرحيا ، وكى أساعدها فى نفس الوقت ماديا : فاحصل انا على الطعام والمأوى ، وتحصل هى على ١٢ قرشا فى الاسبوع · كانت امى مترددة فى البداية ، الى ان تقابلت مع المستر جاكسون واسرته ، فوافقت ··

وكان المستر جاكسون فى منتصف العقد السادس من عمره ، سبق ان عمل مدرسا فى لانكشاير ، وانجب ثلاثة اولاد وفتاة ·· كانوا جميعا اعضاء فى فرقة الثمانية · وكان الرجل كاثوليكيا شديد التدين . وبعد أن ماتت زوجته استشار اولاده فى امر الزواج مرة ثانية وكان يروى لنا ــ بروح الابوة ــ حكاية اقترانه بزوجته الثانية التى كانت اكبر منه قليلا فى السن : فهو قد نشر اعلانا فى الصحف عن حاجته الى زوجة ، واذا به يتلقى أكثر من ثلثمائة خطاب · فدعا الله أن يلهمه الصواب ثم فتح خطابا واحدا منها فقط ــ خطاب المسز جاكسون · وكانت مدرسة هى الاخرى . وكاثوليكية ايضا .. كأنما السماء قد استجابت بها لدعائه

ولم تكن المسز جاكسون ممن حباهن الله بجمال وافر ولا كانت فياضة الانوثة بأية صورة من الصور ··فوجهها

الشاحب كما اذكره كان مقددا يشبه الجمجمة ، وكانت تتزاحم فيه غضون كثيفة ، لعل السبب فيها انها انجبت غلاما لمستر جاكسون فى سن متأخرة من حياتها . على انها كانت زوجة وفية ، قائمة بواجباتها . وبالرغم من انها كانت ماتزال ترضع طفلها ، فانها كانت تساهم بجهد كبير فى ادارة الفرقة

أما روايتها عن المستر جاكسون فكانت تختلف عن روايته . فهما قد تبادلا الرسائل ، ولكن أحدا منهما لم ير الاخر قبل يوم الزفاف . وفى أول مقابلة جمعتهما منفردين فى حجرة الجلوس ، بينما العائلة تنتظر فى حجرة اخرى ، قال المستر جاكسون : ان فيك كل ما اصبو اليه . وقالت هى نفس الشىء . ثم تختتم قصتها لنا نحن الصبية قائلة :

ـ ولكننى لم اتوقع أن أصبح أما لثمانية اطفال دفعة واحدة ..

وكانت اعمار الاولاد الثلاثة تتراوح ما بين الثانية عشرة والسادسة عشرة . أما البنت فكانت فى السادسة ولها شعر محلوق كالاولاد حتى تصلح للعمل كواحد منهم فى الفرقة ..

وكان الجميع يذهبون الى الكنيسة الكاثوليكية فىأيام الاحاد ، الا انا . ولما كنت البروتستنتى الوحيد بينهم ، فقد كنت اشعر بالغربة ، واذهب معهم بين وقت واخر . ولولا الحذر من وساوس امى الدينية لكان سهلا اناتحول الى الكاثوليكية . فقد كنت احب صوفيتها الغامضة ، وهياكل المذبح المصنوعة فى المنازل ، مزينة بصور من الجبس للعذراء تحيط بها الزهور .. تلك الهياكل التى

كان الاولاد يضعونها فى ركن غرفة النوم، ويحيونها كلما عبروا أمامها

بعد ستة اسابيع من التدريب اصبحت صالحا للرقص مع الفرقة • ولما كنت الان قد تجاوزت الثامنة من العمر وبارحتنى ثقتى بنفسى ، فقد اصابتنى بالرعب مواجهة الجمهور أول مرة • ولم اكد اقوى على تحريك ساقى • ومضيت عدة اسابيع قبل ان اتمكن من أداء رقصة فردية كما كانوا يفعلون

لم يكن مما يسرنى بوجه خاص ان اكون مجرد عضو فى فرقة من ثمانية اولاد • كنت مثلهم أطمع الى القيام بدور منفرد ، لا لان ذلك يعنى مزيدا من النقود فقط ، ولكن لانتى بغريزتى كنت اشعر انه سيكون اكثر المنا من مجرد الرقص • وقد كنت احب لو صرت ممثلا ، لولا ان الوقوف على المسرح يقتضى أعصابا ثابتة • على أننى عندما فكرت فى ان افعل شيئا غير الرقص كان اول ما خطر ببالى هو ان اكون مضحكا • وكانت الصورة النموذجية لذلك عندى صورة فصل مزدوج يمثله غلامان فى ثياب الصعاليك • وقد قلت ذلك لاحد الصبية ، واتفقنا على أن نتزامل فى اداء هذا الفصل الذى أصبح حلمنا المقدس . نعم ، سنسمى أنفسنا « بريستوى وشابلن الصعلوكان صاحبا الملايين » . ونضع على خدودنا سوالف الصعاليك ، وفى أصابعنا خواتم ذات فصوص كبيرة من الماس • وكان الفصل يحتوى على كافة ما نظن انه مضحك • ولكنه ويا للاسف ، لم يتحقق أبدا

كان الجمهور معجبا بالفرقة ، « أولاد لانكشاير الثمانية » لاننا كنا كما يقول المستر جاكسون ـ كنا

نختلف اختلافا كبيرا عن غيرنا من اطفال المسرح • وكان مما يفخر به المستر جاكسون اننا لا نستخدم الاصباغ ابدا، وان حمرة خدودنا طبيعية . فاذا بدت وجوه بعضنا شاحبة قليلا قبل رفع الستار ، فانه كان يأمرنا بأن نقرص خدودنا • وكان يحدث احيانا ونحن فى لندن : وبعد ان نكون قد قدمنا عرضين او ثلاثه فى الليلة الواحدة ، أن ننسى نصيحته ونبدو على المسرح مرهقين ، مثقلين بالملل •• الى ان نلمحه فى الكواليس يبتسم لنا مشجعا ويشير الى وجهه ، فاذا بمس من الكهرباء يضىء وجوهنا على الفور بابتسامات مشعة

وكنا ـ عندما نتجول فى الاقاليم ـ نذهب فى كل مدينة الى مدرسة للضعفاء .. ولكن هذا لم يساعد الا قليلا فى تنمية ثقافتى ..

اما فى اعياد الميلاد : فانهم كانوا يؤجروننا فى مسرح « هيبودروم لندن » لنؤدى أدوار القطط والكلاب فى مسرحية سندريلا الصامتة « بانتوميم » • وكان هيبودروم لندن فى تلك الايام مسرحا جديدا مجهزا بحيث يجمع بين الفودفيل والسيرك • وكانت له ضجة كبرى • فأرض حلقته كانت تهبط الى اسفل ، وتغطى بالماء ، ثم تقدم فوقها عروض راقصة كبرى • صفوف بعد صفوف من الفتيات فى دروع لامعة يدخلن الحلقة ، ثم يختفين تماما تحت الماء • فاذا اختفى الصف الاخير جاء المهرج الفرنسى العظيم « مارسلين » فى ثوب سهرة زلق الملمس • وقبعة عارية ، ودخل بسنارة صيد فى يده : ثم جلس على مقعد من القماش • وفتح صندوق مجوهرات كبيرا ، ووضع عقدا من الماس فى مكان الطعم .. ثم القى به فى الماء . وبعد قليل يبدأ يستخدم مجوهرات اصغر : فيلقى

الى الماء ببعض الغوايش . وينتهى به الامر الى فـــراغ الصندوق كله . ثم فجأة تغمز الســــنارة ، فينطلق فى نوبات هزلية من « الشقلبة » وهو يناضل مع عصــــا السنارة : الى ان يستخلص من الماء فى النهاية كلبــــا صغيرا مدربا من نوع « البورل » .. يقلد كل حركة يقوم بها مارسلين ، فاذا وقف على رأسه فعل الكلب مثله ..

كانت مسرحية مارسلين الهزلية هذه غريبة وساحرة، رحبت بها لندن وقد أسندوا الى ـ المنظر الذى يصور المطبخ ـ دورا فكاهيا صغيرا أقوم به امام مارسيلين . كنت امثل دور قطة ، واقف وراء مارسيلين ، بينما هو يتراجع أمام كلب كبير الى أن يسقط فوق ظهرى وأنا مشغول بشرب اللبن. وكان مارسيلين يشكو دائماً من أننى لم أقوس ظهرى بقدر كاف كى اخفف من سقطته

وكنت أضع لهذا الدور قناعا يمثل وجه قطة بدت عليها الدهشة . وفى حفل الماتينيه للاطفال ، زحفت على يدى وقدمى حتى بلغت مؤخرة الكلب وبدأت اتشممه كما يفعل الكلاب ، فلما ضج جمهور المتفرجين بالضحك اســـتدرت ونظرت اليهم فى دهشة ، وانا اشد خيطا رفيعا يجعل عين القناع المفتوحة تغمز لهم ! وبعد عدة شمشمات وغمزات جاء مدير المسرح من وراء الستار يضرب الارض بحذائه ويلوح من الكواليس فى حالة غضب شديد . ولكننى لم اتوقف ، وبعد أن تشممت الكلب ، رحت اتشمم مقدمة المسرح ثم رفعت احدى ساقى كما يفعل الكلاب . وضج الجمهور بالضحك ، ربما لأن ما فعلته لم يكن من شم القطط فى شيء !

واخيرا التقت عينا مدير المسرح بعينى ، فقفزت امام

الجمهور وسط التصفيق الحاد ، واتجهت اليه ، وقال المدير : « اياك ان تفعل هذا مرة اخرى » قالها وهو يلهث من التعب ثم عاديقول : « هل تعلم ان هذا قد يؤدى الى سحب رخصة المسرح !! »

وقد نجحت « سندريلا » نجاحا ضخماً • وبالرغم من أن مارسيلين لم يكن له دور كبير فى القصة او الحبكة • فانه كان نجم المسرحية

وفى عام ١٩١٨ ، أو حوالى هذا التاريخ ، جاء سيرك « الاخوة رنج لنج » وهو سيرك ذو ثلاث حلقـــات ، الى مدينة لوس انجلس ، وكان مارسيلين معهم وتوقعت أن يعلنوا عن قدومه ، ولكننى صدمت عندما اكتشفت انــه مجرد واحد من المهرجين الذين يجرون حول الحلقة • لقد ضاع الفنان العظيم وسط مظاهر الاسراف والبذخ التى تميز بهما سيرك الحلقات الثلاث !

وذهبت الى حجرة ملابسه بعد العرض ، وقدمت لــه نفسى ، ورحت اذكره بدور القط الذى قمت به أمامه فى مسرح الهيبودروم فى لندن • ولكنه استقبلنى ببــرود ، وبالرغم من ان وجهه كان مختفيا وراء الالوان والمساحيق فاننى استطعت ان المح الشعور بالضجر والكآبة والبلادة على وجهه • وبعد عام من لقائى به ، انتحر مارسيلين فى نيويورك • وقرأت النبأ فى احدى الصحف ، حيث كان الخبر الصغير يقول ان احد الجيران الذين يقيمون فى نفس البيت سمع طلقا ناريا ثم شاهده ملقى على الارض وفى يده مسدس ، واسطوانة تعزف أغنية « ضوء القمر والزهور » ..

ان الفنانين الذين أثروا فى حياتى من بين الكثـــيرين

الذين شاهدتهم وأنا طفل ، لم يكونوا دائما من المشهورين والناجحين • بل من اولئك الذين ينفردون بشـــخصية فريدة من نوعها في سلوكهم خارج المسرح فمثـــلا كان الكوميدى الحاوى زارمو رجلا يحب النظام • فكان يمارس اعمال الحواة ساعات طويلة فى الصباح بمجرد أن يفتح المسرح أبوابه • وكنا نراه كل يوم وراء المسرح وهـــو يحاول ان يحفظ توازن عصا البلياردو فوق ذقنه •• او وهو يلقى بكرة البلياردو في الهواء ثم يحاول ان يلتقطها بطرف العصا • ثم يلقى بكرة اخرى ويحاول ان يضعها فوق الكرة الاولى التى التقطها منذ دقائق ، والتى كانت كثيرا ما تسقط منه !

وقد امضى زارمو اربع سنوات يقول لمستر جاكســـون انه يمارس هذه الحركة • وفي نهاية الاسبوع حاول ان يجربها امام الجمهور ، ووقفنا جميعا على جانبى المسرح نراقبه •• واذا به يقوم بلعبته بمهارة ومن اول مرة ! اذ القى بالكرة الاولى والتقطها بعصا البلياردو ، ثم القى بالثانية والتقطها فوق الاولى وبالرغم من هذا لم يكن تصفيق الجمهور حماسيا ••

وكان مستر جاكسون يروى قصة تلك الليلة دائما • وكان يقول لزارمو : انك تجعل لعبتك تبدو سهلة للغاية ولكى تبيعها للجمهور ، يجب أن تخطىء الكرة عدة مرات ثم تنجح أخيرا ! وكان زارمو يقول : « اننى لست خبيرا الى الحد الذى أستطيع معه أن أخطىء الكرة ! »

وبعد زارمو ، كان هناك اخرون ايضا اثروا فى حياتى •• كان هناك برانسبى وليامز الذى يقـــلد شخصيات الكاتب تشارلزديكنز الروائية • وقد اثار اعجابى وهو يقلد شخصيات يوريا هيل وبيل ســـايكس وشخصية

الرجل العجوز فى رواية « دكان التحف القديم » • ان شعوذة هذا الرجل الشاب الوسيم الوقور ، وطريقـــة ادائه لادواره امام جمهور جلاسجو الصاخب ، حين يتقمص شخصية هؤلاء الناس • قد فتحت افاقا جديدة فى المسرح كما ان برانسبى هذا قد اشعل فى نفسى الشغف ايضا بالادب . اذ جعلنى أريد أن اكتشف هذا الغموض الحبيس فى الكتب ، ان اعرف شيئا عن شخصيات ديكنز التى تتحرك فى عالمها ذلك الغريب • وبالرغم من اننى كنت لا اكاد اجيد القراءة • فاننى قررت فى النهاية ان اشترى قصة « أوليفر تويست »

وبالرغم من اننا كنا نعيش عيشة التقتير ، فان هـــذه الحياة مع أولاد لانكشاير الثمانية لم تكن سيئة .. وان كانت لنا أحيانا خلافاتنا الصغيرة . وما زلت أذكر بهلوانين صغيرين فى مثل سنى ، كانا مشتركين فى نفس العرض ، وقد أسرا الى ان اميهما تأخذان سبعة وثلاثين قرشا . بينما لا يحصلان هما الا على خمسة قروش ــ كمصروف ــ تحت طبق اللحم والبيض صباح الاثنين من كل اسبوع . وقال احدهما شاكيا :

ــ اننا لا نحصل الا على بنسين وافطار من الخبـــز والمربى ..

فلما سمع جون (ابن المستر جاكسون) اننا نشـــكو انفجر باكيا وقال لنا أن أباه لا يحصل أحيانا فى أسابيع الكساد فى ضواحى لندن على أكثر من سبعة جنيهـــات للفريق كله ، وانهم يتعرضون لاوقات عصيبة ويحـــاولون التوفيق بين الدخل والنفقات

***

وكانت حياة اليسار التى يتمتع بها الغلامان هى التى

جعلتنا نطمع في ان نصبح بهلوانات . فاعتدنا بمجرد ان يفتح المسرح ابوابه ، ان يقوم احدنا بحركات بهلوانيـــة والحبل مربوط في خصره ، وطرفه مثبت في بكرة ، بينما يمسك طفل آخر بالحبل . وقد أحسنت القيام بحركات البهلوانات بهذه الطريقة الى ان وقعت ورض ابهامى . وانهى هذا الحادث حياتى كبهلوان

وكنا نحاول دائما الى جانب الرقص ان نضيف شيئا جديدا الى اعمالنا . فأردت ذات مرة أن أكون مشـــعوذا كوميديا . ولذلك اقتصدت من النقود ما يـكفى لشراء أربع كرات من المطاط وأربعة أطباق معدنية . وكنت اقضى الساعات واقفا بجوار الفراش لأتدرب ..

وكان مستر جاكسون رجلا طيبا . وقبـــل ان اترك الفريق بثلاثة شهور قمنا بحفلة لصالح أبى الذى كان فى شدة المرض وتبرع كثير من ممثلى الفودفيل بالتمثيـــل ومن بينهم أطفال لانكشاير الثمانية .. وظهر أبى فى تلك الليلة على المسرح وهو يتنفس بصعوبة ، والقى خطـابا قصيرا فى جهد شديد . وكنت أقف الى جانب المسرح أراقبه وأنا ادرك انه رجل يحتضر

***

وكنت ، ونحن فى لندن ، أقوم بزيارة أمى فى نهاية كل اسبوع . فكان يخيل اليها انى شاحب ، نحيـــل ، وان الرقص يؤثر على رئتى . وقد أصابها هذا بقلق شديد لدرجة انها كتبت بشأنه الى المستر جاكسون الذى بلغبه السخط الى الحد انه طردني أخيرا وهو يقول انني لااستحق اهتمام مثل هذه الأم القلقة

على انني ، مع ذلك ، أصبت بالربو بعد بضعة اسابيع. وكانت النوبات شديدة حتى ان امى اقتنعت بأنى مصاب

بالسل ، وحملتنى فورا الى مستشفى بروميشون حيث فحصنى الاطباء بعناية ، ووجدوا ان رئتى سليمتان ولكنى مصاب بالربو .. وشعرت بالالام والكرب شهورا عديدة وانا لا استطيع التنفس .. وكانت تساورنى الرغبة فى بعض الاحيان ان أقفز من النافذة . ولكن استنشاق الاعشاب . وانا اغطى رأسى ببطانية . قد اولانى بعض الراحة وجعلنى كما قال الطبيب اتغلب على المرض

ثم طرأ تغيير مفاجىء على حياتنا ، فقد قابلت أمى احدى صديقاتها القدامى اللواتى اصبن النجاح والتوفيق ... وكانت سيدة متوقدة ، جميلة الطلعة ، تركت المسرح لتصبح خليلة لكولونيل عجوز ثرى . وكانت تقيم فى حى ستوكويل الفخم . وفى حرارة لقائها بأمى ، دعتنا للاقامة معها فى فصل الصيف .. ولما كان أخى سيدنى فى الريف يجمع الاعشاب فقد استدعى الامر بعض الاغراء لاقناع أمى واستمالتها . واستطاعت أمى ان تبدو وجيهة المظهر بفضل براعتها السحرية فى الحياكة ، بينما ارتديت انا بدلة يوم الاحد .. من مخلفات اولاد لانكشاير الثمانية . فظهرت وجيها بدورى ، كما يليق بالمناسبة

وهكذا وجدنا انفسنا بين عشية وضحاها ننتقل الى منزل فى ركن هادىء من ميدان لاند سداون . منزل غنى بمظاهر الترف ، والخدم وغرف النوم القرمزية الزرقاء ، والستائر الانيقة ، والسجاجيد ، وكم أتذكر الآن جيدا منظر تلك الحبات الزجاجية من العشب الازرق الكبير التى كانت تحلى مائدة غرفة الطعام ، وشعورى بالاثم كلما لاحظت انها تنقص شيئا فشيئا على نحو غامض ، وان العنقود يتعرى يوما بعد يوم ..

وكانت هيئة الخدم فى المنزل تتكون من اربع نساء ثلاث خادمات وطاهية بالاضافة الينا انا ووالدتى ..

كان هناك ضيف اخر .. شاب فارع الطـــول حسن المظهر ، له شارب احمر مفتول الى أعلى . وكان شابا رقيقا ساحرا ، ونجده دائما فى المنزل ، كأنه بعض أثاثه ، الى ان يظهر الكولونيل ذو السوالف البيضاء ، فيختفى عـــلى الفور الشاب الانيق

وكانت زيارات الكولونيل متقطعة ، لا تزيد على مرة او مرتين كل اسبوع فاذا كان فى المنزل ساد جو من الغموض والسرية .. وكانت امى تطلب منى عندئذ ان أختفى ولا أدع احدا يرانى .. وحدث ذات يوم اننى اندفعت الى الصالة بينما كان الكولونيل يهبط السلم فوجدته رجلا طويل القامة ، قوى البنيان .. يرتدى البدلة الفراك وقبعة عالية . وكان أحمر الوجه أصلع الرأس به أثار حروق طويلة قديمة ، وابتسم لى فى رقة ومضى فى طريقه

لم أكن افهم ما سر هذه الجلبة كلها ولماذا يحدث وصول الكولونيل كل هذا الاثر ، ولكنه لم يكن يمكث طـــــويلا وسرعان ما يعود بعده الشاب ذو الشارب المهذب ، ويعود البيت الى حياته المعتادة مرة اخرى

وقد أحببت كثيرا هذا الشاب ذا الشارب المهـــذب ، فاعتدنا ان نخرج للسير طويلا .. مع كلبى الســــيدة الجميلين فى كلافام كومون .. وكانت كلافام كومون ذات جو ساحر فى تلك الايام حتى محل الصيدلى الذى كنـــا نتوقف لديه احيانا لشراء بعض الحاجات كان يفيـــض بالسحر بما فيه من روائح العطور والصابون والمساحيق ، ومنذ ذلك الوقت ما أزال اشعر بارتياح خـــاص لروائح الصيدليات . وقد نصح هذا الشاب أمى أن تدعنى استحم بالماء البارد كل صباح حتى أشفى من الربو . ومن المحتمل ان يكون ذلك قد افادنى بالفعل فقد كان هذا الاستحمام يشعرنى بالقوة . ونشأت على حب الاستحمام

من الطريف أن يلاحظ الشخص مدى السـهولة التى يستطيع ان يكيف بها نفسه فى الوسط الاجتماعى المريح وان يعتاد هذه الراحة ، ففى أقل من اسبوع أخذت كل شىء على أنه أمر مفروغ منه ، وتعـــودت على كل تلك الواجبات الصباحية .. تدريب الكلاب وتغيير حراملها الجلدية البنية اللون ، ثم العودة الى المنزل الجميل مـع الخادمات لننتظر الطعام الذى يقدم بطريقة جميلة فـوق صحاف من الفضة

وكانت حديقتنا الخلفية متصلة بحديقة منزل آخر فيه ايضا عدد كبير من الخدم كمنزلنا . وكانت تسكن فيه أسرة من ثلاثة اشخاص : زوجين حديثى العهد بالزواج ، وابنهما الذى كان فى مثل سنى . وكانت له حجرة مليئة باللعب الجميلة .. وكثيرا ما كان يدعونى للعب معــه والانتظار حتى موعد الغداء . فأصبحنا صديقين حميمين وكان أبوه يشغل مركزا هاما فى بنك المدينة . أما والدته فكانت صغيرة وهادئة وجميلة

***

وذات يوم سمعت خادمتنا وهى تتحدث فى ود مـع خادمة الطفل ، وكانت الخادمة الاخرى تقول ان طفلهم فى حاجة الى مربية أطفال خاصة ، فقالت خادمتنا عنى : وهذا نفس ما يحتاج اليه طفلنا ! فأدهشنى ان تتحدث الخادمة عنى كأننى طفل ثرى . ولكنى لم أفهم كيف ترفعنى الى هذا المستوى الا اذا كانت تريد ان ترفع نفسها ايضـا باعتبار ان الناس الذين تعمل معهم أثرياء ومحتـرمون كجيرانهم فى المنزل المجاور ، فصرت كلما تناولت غـذائى مع الطفل بعد ذلك اشعر كما لو كنت محتالا !

ورغم انه كان يوما حزينا ذلك اليوم الذى غادرنا فيه المنزل الجميل كى نعود الى منزلنا فى كيننجتون ، فاننا شعرنا

بنوع من الارتياح لحصولنا مرة اخرى على حريتنا . فنحن مهما كان الامر كنا نعيش ضيوفا فى قبضة شعور بالتوتر، وكانت امى تقول ان الضيوف مثل الكعك ، اذا بقى طويلا فسد وصار غير مستحب

وهكذا انقطع الخيط الحريرى لتلك الفترة القصيرة المترفة . وعدنا مرة اخرى الى حياتنا الفقيرة المعتـــادة

الفصل الرابع

مات الوالد وجنت الأم

* الطريق الشاق الى هوليوود
* حيتنى أمريكا .. بالصمت !
* يوم واحد فى الجنة .. ثم فررت منها
* وبدأت أفرض شروطى : ألف دولار فى الاسبوع !

كان عام ١٨٩٩ عصر السوالف : فالملوك لهم سوالف، ورجال الدولة ، والجنود ، والبحارة . وكان ايضا عصر الاسماء الشهيرة : كروج ، وساليسبورى ، وكتشنر . عصر القياصرة ولاعبى الـــــــكريكت . عصر الازدهار والمتناقضات . عصر الثراء الفاحش ، والفقر ،والتعصب السياسى فى الفن والصحافة . ولكن انجلترا كان عليها أن تتلقى صدمات واهانات كثيرة : فان حفنة من فلاحى البوير فى الترانسفال الافريقية كانوا يشنون حربا غـير متكافئة ، ويتصيدون من وراء الصخور والحجارة جنودنا الذين جعلتهم ملابسهم الحمراء أهدافا سهلة .. الى ان تنبهت وزارة الحرب وحولت الملابس الحمراء الى اللون الكاكى . فما دام البوير يريدونها هـــكذا ، فلتـــــكن هكذا ..

لم أع حرب البوير الا بصورة غامضة من خلال الاغانى الوطنية واستكشاف الفودفيل وصور القــادة على علب السجائر .. فكانت صورة الاعداء فى ذهنى بالطبع صورة أشرار لا يؤمن جانبهم . وكانت الانبـــاء التى تتردد عن حصار البوير « لليدى سميث » أنباء محزنة

وعندما تم تحرير « ميكفنج » فقدت انجلترا صوابهامن فرط الابتهاج . وأخيرا كسبنا الحرب واجتزنا الازمة . وكل هذا كنت اسمعه من كل انسان الا أمى ، التى لم تكن تشير اليه بحرف . فقد كانت لديها معركتها الخاصــة

التى ينبغى عليها ان تخوضها

كان سيدنى الان قد بلغ عامه الرابع عشر ، وترك المدرسة ليلتحق بوظيفة « ساعى تلغراف » فى مكتب بريد ستراند . وبالمرتب الذى يحصل عليه ، بالاضافة الى ما تكسبه أمى من ماكينة الخياطة ، كادت حالتنا المادية ان تصبح محتملة .. بالرغم من ان مساهمة أمى فى الدخل كانت متواضعة : اذ كانت تعمل بالقطعة لحساب مشغل استغلالى ، تحيك له كل دستة من البلوزات بسبعة قروش ونصف قرش . صحيح ان القماش كان يرد مقصوصا ولكن حياكة الدستة كانت تستغرق اثنتى عشرة ساعة وكان أقصى ما تصنعه أمى اربعة وخمسين قطعة فىالاسبوع أى ما يوازى اربعة وثلاثين قرشا ..

وكثيرا ما كنت أصحو أثناء الليل فى « صندرتنا » فأجدها منحنية على ماكينتها ، وقد عكس ضوء مصباح الزيت هالة حول رأسها ، وبدا وجهها فى الظل الهادىء منفرج الشفتين قليلا من اثر الاجهاد وهى توجه خطوط الغرز المتلاحقة خلال الماكينة .. الى ان يحملنى الطنين على النوم من جديد . وكانت عادة تعمل الى ساعة متأخرة حين يكون عليها ان تواجه مأزقا ماليا . كما أنه كانت هناك دائما مشكلة الاقساط التى يجب أن تدفع ..

والان نشأت أزمة جديدة . فسيدنى يحتاج الى بدلة . وهو قد ظل يرتدى بدلة التلغراف الرسمية فى كافة ايام الاسبوع بما فى ذلك أيام الاحاد ، الى ان بدا اصحابه يتندرون بذلك . فما كان منه الا ان لزم البيت عطلتين متواليتين ، الى أن تمكنت أمى من شراء بدلة من الصوف الخشن له ..

واستطاعت بطريقة ما ان تدبر توفير تسعين قرشا لهذا

الفرض . وقد أدى ذلك الى خلق عقدة لا حل لهـــا فى ميزانيتنا ، حتى ان امى كانت تضطر الى رهن البدلة يوم الاثنين كل اسبوع . عندما يستأنف سيدنى العمل بثوبه الرسمى . وكانت تحصل فى مقابلها على ٣٥ قرشا تسددها يوم السبت وتسترد البدلة كى يرتديها سيدنى فى يـوم العطلة ..

وظلت هذه العادة اجراء روتينيا أكثر من عام كامل ،الى ان بليت البدلة . ثم جاءت الصدمة ! اذ ذهبت امى صباح الاثنين كالعادة الى محل الرهونات ، فقال الرجل بعـــد تردد :

ــ آسف يا مسز شابلن .. ولكننا لا نســـتطيع ان نقرضك ٣٥ قرشا بعد الان

فذهلت أمى ، وسألت :

ــ لمـــاذا ؟

قال الرجل وهو يبسط على يده مقعد البنطلون :

ــ انها مغامرة لا نستطيع ان نقدم عليها . فالبنطلون قد بلى تماما . أنظرى .. ان فى أستطاعتك ان تبصرى يدى من خلاله ..

قالت امى :

ــ ولكننى سأرد المبلغ يوم السبت ..

ولكن الرجل هز رأسه :

ــ خمسة عشر قرشا هى اقصى ما استطيع ان أدفع فى مقابل السترة والصديرى

وكانت امى نادرا ما تبكى . ولكن الصدمة كانت هائلة الى حد انها عادت الى البيت دامعة العينين .. فقد كانت تعتمد على هذه الشلنات السبعة للسير بنا حتى نهـــاية الاسبوع ..

فى ذلك الوقت كان اقل مايمكن ان يقال عن ثيابى انها هو

انها مهلهلة . ما بقى من حلة « أولاد لانكشاير الثمانية »
كان منظره يبعث على السخرية .. فهنـاك رقع فى كل
مكان على الكوع ، وفى البنطلون ، وفى الحذاء والجورب .
وبمنظرى هذا فوجئت بنفسى ذات يوم وجها لوجه امـام
صديقى الصغير اللطيف الذى عرفته فى ستوكويل . فلم
أدر ما الذى جاء به الى كننجتون ، ولم يتح لى الارتباك
ان أسأل . وحيانى هو فى كثير من الود ، ولكننى شعرت
بعينيه تفحصان مظهرى البائس . فحاولت ــ كى أتغـلب
على ارتباكى ــ ان اتظاهر بالاستخفاف ، وقلت له بأرقى
ما أستطيع من صوت اننى ارتدى ثيابى القديمة لانى عائد
لتوى من درس لعين فى النجارة

على ان هذا التفسير لم يثر لديه أدنى اهتمـــام .
وبدأ يظهر عليه الحرج ، ويحول عينيه بعيدا لاخفاءارتباكه
وسألنى عن أمى فأسرعت أقول انها غائبـــة فى الريف ،
وحولت موضوع الحديث اليه :

ــ هل انت مقيم هنا ؟

فأجاب وهو يحدجنى ببصره كأنما قد ارتكبت معصية
كبرى :

ــ نعم

قلت بايجاز :

ــ حسنا . سأمضى فى طريقى

فابتسم ابتسامة شاحبة ، وقال :

ــ الى اللقاء ..

ثم افترقنا . ومضى هو ببرود فى اتجاه ، بينما مضيت
أنا مضطربا ، حانقا، مثقلا بالخزى ، فى الاتجاه الاخر

كان هناك مثل تقوله امى : قد يحنى الانسان رأســه
ثم لا يلتقط شيئا

ولكنها لم تكن هى نفسها تلتزم هذه الحكمة ، وكثيرا

ما كان احساسي بالفضيلة يستفز . وقد حدث ذات يوم ان توقفت فى الطريق لتنهر بعض الصبية وهم يطاردون حطام امرأة ، تعلوها الاقذار بصورة غير معقولة . كان راسها حليقا على عكس العادة فى تلك الايام ، والاولاد يضحكون وهم يدفعون بعضهم بعضا فى اتجاهها ، كأنما ملمسها يعدى .. بينما هى تقف بينهم فى تعاسة كالظبى حين يحاصره الصيادون ، الى ان تدخلت امى .. وعندئذ بدا على وجه المرأة انها تعرفها ، ونادتها بصوت خافت باسمها المسرحى :

ـ ليل ! ألا تعرفينني ؟ انني ايفا لستوك . فعرفتها امى على الفور . صديقة من ايام المسرح . اما انا . فقد بلغ بى الارتباك الى حد انني ابتعدت ووقفت انتظر امى عند الناصية .. وعبر الصبية امامى يهزلون ويتضاحكون وتحولت فى غيظ لارى ماذا تفعل امى .. فاذا بالمرأة المحطمة تصحبها وهما قادمتان نحوى

وقالت امى :

ـ اتذكرين شارلى الصغير ؟

فغمغمت المرأة :

ـ اذكره : كم من مرة حملته بين ذراعى وهو طفل رضيع ..

فبدا لى ذلك امرا منفرا . اذ كان منظر المرأة كريها ، هيئتها بالغة القذارة . وعندما مضينا فى الطريق معا كان مما يبعث على الحرج ان ارى الناس يلتفتون الينا نحن الثلاثة ..

كانت أمى تعرفها أيام المسرح باسم « ايفا المتوهجة » .. فقد كانت عندئذ ـ كما اخبرتني امى ـ جميلة . ومتألقة . وقالت المرأة انها كانت مريضة فى المستشفى ، وانها منذ غادرته تنام تحت البواكى وفى مأوى « جيش الخلاص »

وكان اول ما فعلته امي انها ارسلتها الى الحمـــامات العامة . ثم عادت بها ــ لفزعى الشديد ــ الى غرفتنا

ولعل المرض وحده كان السبب فى حالتها الراهنة .. ذلك شيء لم استطع أن اعرفه . ولكن الذى كان يثــير الغيظ حقا هو انها نامت فى اريكة سيدنى . وان كانتأمى قد منحتها ما استطاعت ان تستغنى عنه من ثيـــاب ، وأقرضتها عدة قروش . وبعد ثلاثة ايام رحـــلت عن البيت ، وكان هذا اخر ما رأينا او سمعنا عن « ايفـــا لستوك » المتوهجة

قبل وفاة والدى ، تركت امى شارع بونوال واستأجرت غرفة في بيت مسز تيلور ، وهى صديقة لها ، وعضــو بالكنيسة ، ومسيحية مخلصة • وكانت امرأة قصيرة ربعة البنيان فى اواسط عقدها السادس ، ذات فك مربع ووجه متهدل مجعد • وقد اكتشفت وانا اراقبهـــا فى الكنيسة ان لها اسنانا صناعية تسقط من لثتها العليـــا عندما تغنى .. فكان لذلك اثر مذهل على نفسى

كانت سيدة حازمة الخلق ، ذات حيوية موفورة • وقد طوت أمى تحت جناحها المسيحى ، واجرت لها حجــرة امامية بسعر معتدل جدا فى الدور الثانى من بيتها الكبير بجوار المقابر ..

أما زوجها الذى كان صورة من بطل ديكنز « مســـتر بكويك » ، فكان صانع مساطر دقيقة ، يقيم ورشته فى الطابق الاعلى • وكان للسطح منور من الزجاج ، والمكان كله يسوده السلام • وكثيرا ما كنت اراقب المستر تيلور اثناء العمل ، فيبهرنى وهو ينظر من خلال منظاره السميك مستعينا بعدسة مكبرة ضخمة ، ليصنع مســـطرة من الصلب تقيس جزءا على خمسين من البوصة • وكانيعمل

غير مستعين بأحد ، وكنت كثيرا ما أقضى لـــه بعض المشاوير ..

وكان المطمع الوحيد لمسز تيلور هو ان تهدى زوجها الذى كان بمقاييسها المسيحية المتزمتة ـ رجلا خاطئا . أما ابنتها التى كانت ملامحها من نفس طراز أمها ، وان كانت بالطبع أقل تهدلا واصغر سنا ، فقد كان يمـــكن ان تكون جذابة .. لولا تعاليها وخلقها المنفر . وكانت كوالدها لا تذهب الى الكنيسة على الاطلاق . ولكن مسز تيلور لم تيأس ابدا من هداية كليهما

وكانت البنت حبة عين أمها ، ولكنها لم تكن حبة عين أمى . وذات مساء ، بينما انا فى الطابق الاعلى اراقب المستر تيلور اثناء العمل سمعت شجارا فى الـــدور الاسفل بين أمى وبين مس تيلور . وكانت مسز تيلور عندئذ خارج البيت . ولم ادر بالضبط كيف بـــدأ الشجار ، ولكن كلا منهما كانت تصرخ بصـــوت عال فى وجه الاخرى . وعندما هبطت اليهما كانت أمى تصيح من فوق درابزين السلم :

ـ من تظنين نفسك ؟ الليدى زفت ؟

فصاحت الفتاة :

ـ أوه ! يالها من لغة « مهذبة » تصـدر عن سـيدة مسيحية !

فعاجلتها أمى :

ـ لا تحزنى يا عزيزتى ! انها لغة فى الانجيل . فى « ريوتيروندمى » ، الفقرة الثامنة والعشرين ، الســطر السابع والثلاثين . كل ما فى الامر أن الكلمة مختلفة . ولكن كلمة « زفت » تناسبك تماماً !

وبعد هذه الحادثة عدنا مرة أخرى الى شارع بونوال

لم يكن محل « الغزلان الثلاثة » فى شارع كننجتون من الاماكن التى يرتادها أبى كثيرا . ولكن حافزا خفيا دفعنى وانا اعبر امامه ذات ليلة ان القى نظرة داخله ، لارى ما اذا كان أبى هناك

وما كدت افتتح باب القاعة قليلا حتى وجدته امامى جالسا فى أحد الاركان ! وكنت على وشك أن أنسحب عندما رأيت وجهه يضىء وأشار الى ان أقترب .. فأدهشنى هذا الترحيب من جانبه ، لانه لم يكن ممن يبالغون فى اظهار عواطفهم ، على انه كان يبدو مريضا ، غائر العينين ، متورم الجسم الى حد كبير . وكان يضع احدى يديه داخل الصديرى ــ على طريقة نابليون ــ كأنما يستعين بذلك على صعوبة التنفس .. وقد سألنى بالحاح فى ذلك المساء عن أمى ، وعن سيدنى ، واخذنى قبل ان انصرف بين ذراعيه .. ثم قبلنى

وكانت هذه آخر مرة رأيته فيها حيا ..

فبعد ثلاثة اسابيع نقلوه الى مستشفى سانت توماس ، واضطروا أن يسكروه كى يتمكنوا من اخذه الى هناك .. وعندما تنبه الى نفسه وعرف اين هو ، مضى يقاوم بوحشية .. ولكنه كان رجلا يحتضر . كان صغيرا ما يزال فى السابعة والثلاثين من العمر ، ومع ذلك فقد مات بتورم المفاصل . وفى اسبوع واحد سحبوا من ركبته ستة عشر لترا من الماء

وقد ذهبت امى لزيارته عدة مرات فكانت الزيارة دائما تحزنه ، وقالت لى امى انه حدثها عن رغبته فى أن يعود اليها ويبدأ حياة جديدة فى افريقيا

فلما تحمست للفكرة هزت رأسها . اذ كانت تعرفه أكثر منى . وقالت :

ــ انه لم يقل ذلك الا ليجاملنى

وذات يوم عادت من المستشفى ثائرة بسبب ما قاله الاب جون ماكنيل ـ أحد الانجيليين ـ لوالدى اثناءزيارته لـه :

ـ عندما انظر اليك يا شارلى لا أملك الا أن افكر فى المثل القائل : ما يزرعه الآنسان لابد أن يحصده

وقالت أمى :

ـ يالها من كلمات لطيفة فى مواساة رجل يموت .. !

وبعد ذلك بأيام ، مات أبى ..

واراد المستشفى ان يعرف من الذى سيدفنه • ولما كانت أمى لا تملك مليماً ، فقد اقترحت أن يتـولى الامر الصندوق الخيرى لممثلى المنوعات • ولكن هذا الاقتـــراح أثار ثائرة آل شابلن ـ فدفن انسان عن طريق الصدقة كان بالنسبة اليهم أمرا مهينا ، ومنفرا ـ وكان فى لندن فى ذلك الوقت عم لى ، اسمه البرت ، وهو اصغر اخوة ابى •• أعلن انه سيدفع تكاليف الدفن ••

وكان المقرر يوم الجنازة انتلتقى عند مستشفى «سانت توماس»، لننضم الى سائر عائلة شابلن،ثم نمضى من هناك الى مقابر « توتنج » .. ولكن سيدنى لم يتمـــكن من الحضور ، لانه كان مشغولا فى عمله . اما انا وامى فقـــد ذهبنا الى المستشفى قبل الموعد المحدد بساعتين ، لان امى كانت تود أن تلقى نظرة على أبى قبل ان يغلقوا عليـــــه الصندق ..

وكان الصندوق ملفوفا فى كفن من الساتان-الابيض ، وعند طرف منه كان يوجد اطار من الزهور البيضاء يحيط بوجه ابى . فلما اعجبت امى بهذه الزهور التى بدت لها رقيقة تلمس القلب ، وسألت عمن وضعها ، قال الحارس انها سيدة جاءت فى الصباح المبكر ومعها غلام صغير

كانت لويز ..

وجلست أمي فى العربة الاولى، ومعها عمي ألبرت وأنا.
وكانت الرحلة الى « توتنج » مرهقة للاعصاب ، لان أمي لم تكن قد التقت قبل ذلك بالعم البرت . وكان هو رجلا مزهوا الى حد ما ، يتحدث بلهجة متقفة . كما أن معاملته كانت - على أدبها - متحفظة . وكان معروفا عنه انـه ثرى ، يملك مزارع واسعة لتربية الخيل فى الترانسفال، وكان يورد الخيول للحكومة البريطانية اثناء حـرب البوير ..

وعندما حل موعد الدفن كانت السماء تصب مطرا كثيفا وكان عمال المقبرة يهيلون على الصندوق كتلا من الطين ترتطم به فتحدث رجة مخيفة . وكان ذلك شيئا رهيبا ، مفزعا ، فشرعت ابكى

ثم بدأ الاقارب يلقون بالاكاليل والزهور . ولم تجد أمي ما تلقى به ، فأخذت منديلى الثمين المطرز بحافة سوداء وهمست قائلة :

- هيا يا ولدى .. انه يكفى لكلينا !

وذهب أعضاء العائلة فيما بعد الى واحد من محلاتهم لتناول الغداء . ثم سألونا بأدب قبل انصرافهم أين نريد ان نذهب .. وأوصلونا الى البيت

وعندما عدنا من الجنازة لم تكن فى الدولاب ذرة من الطعام ، باستثناء سلطانية تحتوى على قليل من دسم اللحم . ولم يكن مع أمي درهم ؛ اذ كان اخر قرش معها قد أعطته لسيدنى ليتناول به غداءه . وكانت - منذ مرض والدى - لم تعمل كثيرا ، ونحن الان فى نهاية الاسبوع ، والشلنات السبعة التى يتقاضاها سيدنى من عمله كساع للتلغراف قد نفدت . لبثنا جائعين بعد الجنازة . الى ان عبر - لحسن الحظ - بائع الروبابيكيا فى الخارج . وكان

لدينا موقد بترول عتيق ، فباعته أمى ــ واضــيــة ــ بمليمين . واشترت بهما خبزا نأكله مع الدسم

ولما كانت امى هى الارملة الشرعية لوالدى ، فقد طلب منها فى اليوم التالى ان تذهب الى المستشفى لتتسلم ممتلكاته . وكانت هذه الممتلكات بدلة سوداء ملطخةبالدم، وغيارا داخليا، وقميصا ، وربطة عنق سوداء ، وروباقديما، وخفا ملونا تتدلى منه كرتان . وعندما نزعت امى هاتين الكرتين سقط من الخف نصف جنيه على السرير

وكانت هبة من السماء !

***

قضيت اسابيع اضع شريطا اسود على ذراعى . وبدات شارة الحداد هذه تدر على ربحا عندما قررت ــ فىمساء يوم من ايام السبت ــ ان ادخل ميدان العمل الحر بائعا للزهور . فقد اقنعت أمى ان تقرضنى خمسة قروش ، ثم ذهبت الى سوق الازهار وابتعت حزمتين من النرجس . وبعد المدرسة انهمكت فى تقسيمهما الى حزم صغيرة تباع الواحدة منها بنصف قرش ، وتدر ــ اذا بيعت جميعها ــ ربحا مقداره مائة فى المائة

ثم مضيت أدخل المحلات العامة ، واهمس متوسلا :

ــ نرجس يا آنسة ! نرجس يا مدام !

فكان النساء دائما يستجبن ، ثم يقلن :

ــ من هو يا بنى ؟

فأخفض صوتى واهمس :

ــ والدى !

فيغدقن على البقشيش . وعندما عدت آخر النهــار الى البيت ومعى أكثر من خمسة شلنات كسبتها بعملى نصف يوم ذهلت امى .. غير انها ذات يوم ضبطتنىخارجا

من باب احدى الحانات فكان فى ذلك نهايتى كبائع للزهور . ذلك ان تجوال ولدها بزهوره فى الحانات كان أمرا يستفز وساوسها الدينية

وقالت لى :

ـ لقد قتل الشراب والدك . وكل مال يأتينا عن هذا الطريق لن يجلب معه غير الخراب . غير انها احتفظت بالكسب رغم ذلك ! وان كانت لم تسمح لى أبدا ببيع الزهور مرة أخرى

كانت فى داخلى نزعة قوية الى التجارة . فانا مشغول دائما بمشاريع للسوق . انظر الى الحوانيت الخالية لافكر فى نوع التجارة المربحة التى يمكن ان استغلها فيها .. ابتداء من السمك والبطاطس المقلى وانتهى الى سلع البقالة، تجارة مرتبطة كلها بالطعام. ولا احتاج من اجلها الا رأس المال . ولكن من اين يجيىء الانسان برأس المال ؟

على اننى فى النهاية اقنعت امى بأن تدعنى اترك المدرسة واحصل على عمل

وصرت من ذلك الوقت صاحب حرف متعددة . فكنت أول ما كنت صبيا فى محل بقالة . وفى فترات الاستراحة كنت أقضى الوقت باستمتاع شديد فى القبو ، غارقا بين أكوام الصابون والنشا والشموع والحلوى والبسكويت، . أتذوق من كل ما يثير اللعاب حتى تؤلمنى بطنى

ثم عملت صبيا فى العيادة عند الدكتورين هو وكنس تيلور .. وكانا طبيبين لاحدى شركات التأمين فى شارع ترجمورتون . وهى وظيفة ورثتها من سيدنى الذى رشحنى لها . وكنت اتقاضى ١٢ شلنا فى الاسبوع فى مقابل استقبال الزبائن ، وتنظيف الحجرات بعد انصراف الطبيبين . وكنت ناجحا جدا كموظف استقبال ، وقادرا

على ادخال السرور على نفوس المرضى فى حجرة الانتظار ٠
أما تنظيف الحجرات فلم اكن اقوم به بحماس ٠ وفى ذلك كان سيدنى افضل منى ٠ لم يكن الذى يضايقنى تنظيف كئوس البول ، وانما تلك النوافذ التى يبلـــغ ارتفاعها عشرة اقدام ٠٠ والتى كان تنظيفها فوق طاقتى وترتب على ذلك أن العيادة ظلت تزداد كآبة ، والتراب يتراكم فيها ، الى أن قيل لى بادب اننى اصغر من أن أصلح للوظيفة ٠٠

وما كدت اسمع ذلك حتى انفجرت باكيا ٠ فعطف على الدكتور كنس تيلور ، الذى كان زوجا لسيدة بالغـــة الثراء يقيم معها فى بيت كبير فى «لانكسترجيت» ، وقال انه سيأخذنى خادما فى بيته ٠ فابتهج فؤادى على الفور ٠ خادم فى بيت ! وخادم ذكى لبق !

وكانت حقا وظيفة سعيدة ٠ فقد صرت الحيوان المدلل لكافة الخادمات ، يعاملننى كطفل ، ويقبلننى قبلة المساء قبل ان اذهب الى الفراش ٠ ولولا القدر لكان محتملا ان اكون الان رئيس خدم ٠ فقد ارادت السيدة يوما ان انظف قبوا كانوا يختزنون فيه اكواما من الصناديق تحتاج الى من يعيد ترتيبها ٠ فصرفتنى عن هذه المهمة ماسورة يبلغ طولها ثمانية اقدام ، عثرت بها ورحت انفخ فيها كالنفير ٠ وبينما انا اسلى نفسى فاجأتنى السيدة ٠٠ فكانت النتيجة أن فصلتنى من الخدمة بعد مهلة ثلاثة أيام

واستمتعت أيضا بالعمل عند(و.هـ.سميث وولده) .. باعة الادوات المكتبية ، ولكننى فقدت وظيفتى بمجرد ان اكتشفوا اننى تحت السن القانونية

ثم اشتغلت لمدة يوم واحد فى نفخ الزجاج ٠ وكنت قد قرأت عنه فى المدرسة ، وظننته عملا شاعريا . ولكن

الحرارة صرعتنى ، وحملونى فاقد الوعى الى كومة من الرمل القوا بى فوقها . وكان فى هذا الكفاية ، فلم أعد حتى لاتسلم أجر اليوم الذى عملت فيه

ثم عملت بعد ذلك عند (ستاركر) .. للطباعة والادوات المكتبية

وحاولت أن أدخل فى روعهم اننى قادر على ادارة مطبعة من طراز « دارفدال » .. وهى ماكينة هائلة ، يزيد طولها على عشرين قدما . وكنت قد رأيت هذه المطبعة تدور فى البدروم وانا فى الشارع ، وبدت لى ادارتها مهمة سهلة . وعلى الباب كانت لافتة تقول : « مطلوب صبى للعمل فى وضع الافرخ على مطبعة دارفدال » ، فلما أخذنى رئيس العمال اليها ، وجدتها تزأر كالوحش . ووجدت اننى لكى أديرها يجب أن أقف على رصيف يبلغ ارتفاعه خمسة اقدام . فأحسست كأننى أقف فوق برج ايفل

وصاح رئيس العمال :

ــ الطمها !

ــ ألطمها ؟ ..

وعندما رآنى أقف مترددا ضحك وقال :

ــ انت لم تعمل ابدا على ماكينة دارفدال

قلت :

ــ اعطنى الفرصة فقط . وسألتقط الصنعة بسهولة

كانت كلمة « الطمها » تعنى ان أجذب ذراع الرافعة ليدور الوحش . وأرانى الرجل الذراع ، ثم ضبط الوحش على سرعة متوسطة . فبدأت الماكينة تدور ، وتمضغ، وتتجشأ. وظننت أنها على وشك أن تلتهمنى. وكانت الافرخ هائلة ، أستطيع أن انطوى داخل واحد منها . وكان على أن افصل كل فرخ منها بسكين من

العاج ، ثم التقطه من الاركان ، واضعه بعناية على حافة أسنان الوحش فى ألوقت الملائم ، فتطبق عليه ، وتمضغه، ثم تفرزه من الناحية الاخرى . ولم ينته اليوم الاول الا وقد تحطمت اعصابى من ملاحقة الوحش الجائع الذى يريد أن يسبقنى . على اننى حصلت على الوظيفة بأجر قدره ١٢ شلنا فى الاسبوع

كان ثمة شىء من الشاعرية ، والمغامرة فى مغادرة البيت فى برد الصباح قبل شروق الشمس ، والذهاب الى العمل فى وقت تكون فيه الشوارع مهجورة الا من شبح شخص أو شخصين ، يشقان طريقهما نحو اللافتة المضاءة لمشرب الشاى (لوكهارت) من أجل تناول الافطار . كان يملأ الانسان شعور بالارتياح لوجود رفاقه الآدميين حوله وهو يشرب الشاى الساخن مستمتعا بالوهج والدفء أثناء تلك الاستراحة القصيرة قبل بدء يوم العمل كما أن عملى فى الطباعة لم يكن كريها . فباستثناء المجهود الشاق فى نهاية الاسبوع ، حين يتعين على أن أغسل الحبر عن اسطوانات الجيلاتين الطويلة الثقيلة التى تزن الواحدة منها أكثر من مائة رطل . . كان العمل فى مجموعه محتملا، غير أننى بعد ثلاثة أسابيع أصبت بالانفلونزا ، فصممت امى على أن أن أعود الى المدرسة

كان سيدنى الان فى السادسة عشرة من عمره . وذات يوم عاد الى البيت منفعلا لانه حصل على وظيفة نافخ للنفير على سفينة ركاب مبحرة الى أفريقيا تابعة لشركة خطوط (دونوفان آند كاسل) البحرية . وستكون مهمته أن يعلن بالنفير موعد الطعام ، الخ . وكان سيدنى قد تعلم ذلك على ظهر سفينة التدريب (اكسماوث) ، وها هو ما تعلمه يثمر الآن . فهو سيحصل على جنيهين

ونصف جنيه فى الشهر ، بالاضافة الى بقاشيش الخدمة على ثلاث موائد فى الدرجة الثانية . كما أنه سيستلم مقدما مبلغ خمسة وثلاثين شلنا قبل الابحار ، وسيعطيها بالطبع لامى ..

وهكذا انتقلنا - على أساس توقعاتنا السعيدة - الى حجرتين فوق صالون للحلاقة فى شارع تشستر

وكانت عودة سيدنى من أول رحلة قام بهـا مناسبة جديدة بالاحتفال .. اذ أنه عاد مزودا بثلاثة جنيهات من بقاشيش الخدمة ، كلها من القطع الفضية ، وما زلت أذكره وهو يصب النقود من جيبه على السرير . فقـد بدت لى ساعتها أكثر من كل ما رأيت فى حيـاتى من نقود ، ولم أستطع أن أكف يدى عنها . وظللت أحفن منها ، وأسكبها ، وأكومها ، والعب بها ، الى أن أعلن كل من أخى وامى اننى من البخلاء

ثم .. يا للترف ! يا للفخفخة ! كان الوقت صيفا ، وكانت هـذه فى حياتنـا مرحـلة الـكعك والآيس كريم بالاضافة الى أسباب النعيم الاخرى . كما كانت أيضـا مرحلة الاسماك المقددة والمملحة ، وبسكويت الشـاى فى الافطار ، وفطائر الزبد والبتيفور صباح الآحد

وأقام سيدنى معنا الى أن نفدت نقوده . ولكنه على أية حال كان متعاقدا على رحلة ثانية ، وصرفوا له مقدما خمسة وثلاثين شلنا أخرى أعطاها لامى

الا أن المبلغ هذه المرة لم يدم طويلا . فبعد ثلاثة أسابيع كنا نلحس قعر الحلة ، وكان علينا ان نظل ثلاثة أسابيع أخرى قبل عودة سيدنى . ومع ان أمى كانت مستمرة فى عملها على ماكينة الخياطة ، فان ما تكسبه لم يكن يكفينا

وهكذا عدنا نواجه ازمة أخرى . غير اننى لم اكن معدوم الحيلة . فقد كانت لدى امى كومة من الملابس القديمة ، ولما كنا فى صباح السبت فقد اقترحت عليها أن أحاول بيعها فى السوق . فبدت عليها الحيرة وقالت أنها لا تساوى شيئا على الاطلاق . ولـكننى رغم ذلك طويتها فى ملاءة قديمة واتخذت طريقى الى (نوينجتون بتس) حيث ألقيت بكومتى الوضيعة على الرصيف — وكان منظرها كالحا مؤلما — ثم وقفت فى الممر أصيح وأنا التقط منها قميصا أعرضه ، ثم زوجا من المشدات « أى الكورسيهات » :

— هنا ! هنا ! كم تدفع لى ؟ خمسة قروش ؟ نصف شلن ؟ قرشا ونصف قرش ؟ قرش واحد ؟

ولكننى حتى بنصف قرش لم أجد من يشترى . فقد كان الناس يتوقفون وتبدو عليهم الدهشة ، ثم يضحكون ويمضون فى طريقهم

وبدأت أشعر بالاضطراب ، خاصة عندما شرع الموجودون فى محل مجوهرات مقابل لى ينظرون الى من خلال نافذة المحل . ولكننى لم أدع شيئا يصرفنى عن قصدى . وبعت فى النهاية زوجا من (التزالك) ، مقبول الشكل الى حد ما ، بقرشين ونصف قرش . غير أن احساسى بالضيق كان يزداد كلما طال بقائى فى المكان . فقلت هذا يكفى ! ورأيت أنه قد آن لى أن أحزم بضاعتى وأعود الى البيت

وعندما قلت لامى اننى بعت زوجا من التزالك بقرشين ونصف ، غضبت وقالت :

— كان يجب أن يباع بأكثر من ذلك . فقد كان زوجا بديعا !

وكانت ستة أسابيع قد مضت حتى الآن ، وسيدنى لم يعد بعد

ولم يزعج هذا أمى فى البداية . ولكنها ـ عندما طالت غيبته أسبوعا آخر ـ كتبت الى ادارة خطوط (دونوفان آند كاسل) البحرية .. وتلقت اخطارا بأنه انزل الى البر فى (كيب تاون) ليعالج من الروماتيزم

فأزعجت هذه الانباء أمى ، وأثرت على صحتها . غير انها استمرت فى عملها على مكنة الخياطة ، بينما حصلت أنا ـ لحسن الحظ ـ على عمل صغير باعطاء دروس فى الرقص لاحدى العائلات بعد انتهاء يوم المدرسة ، فى مقابل خمسة وعشرين قرشا كل أسبوع

***

حوالى هذه الفترة ، جاءت عائلة مكارثى تقيم فى شارع كننجتون . وكانت مسز مكارثى فيما مضى ممثلة كوميدية ايرلندية ، وصديقة لامى . ثم تزوجت المستر مكارثى الذى كان يعمل محاسبا قانونيا . فلما اضطرت أمى الى اعتزال المسرح فقدنا كل ما يربطنا بالمستر والمسز مكارثى ، ولم نلتق بهما مرة أخرى الا بعد سبع سنوات .. عندما جاءا يقيمان فى حى (والكوت) الفاخر ، فى الجزء الراقى من شارع كننجتون

وكان ابنهما « والى مكارثى » فى مثل سنى . وعندما كنا أطفالا كان من عادتنا أن نقلد الكبار ونحن نلعب فنتظاهر بأننا فنانى الكوميديا ، ويمضى كل منا يدخن سيجاره الوهمى ، ويقود عربته الوهمية ذات الحصان .. مما كان يسر أهلنا الى حد كبير

وعندما جاءت أسرة مكارثى وأقامت فى حى والكوت ، ظلت أمى لا تزورهم الا نادرا . أما انا ووالى فقد عقدنا

فيما بيننا صداقة لا تنفصم . فكنت بمجرد انتهاء يوم الدراسة ارمح الى أمي فى البيت لأرى ان كانت فى حاجة الى اية مشـاوير ، ثم ارمح الى بيت عائلة مكارثى . وهناك كنا نلعب لعبة المسرح وراء مساكن والكوت . ولما كنت انا المخرج، فقد كنت دائما أعطى نفسي دور الشرير، مدركا بغريزتى انه ألمع من دور البطل . ونظل نلعب الى أن يحين موعـد عشـاء والى ، فأدعى ـ عادة ـ الى الطعام .. اذ كانت لى دائما فى أوقات الطعام طريقة لبقة فى فرض نفسى على المـائدة ..

على أنه كان يحدث أحيانا ان تفشل مناوراتى، فأعود مستسلما الى البيت ... حيث يسر أمي دائمـا ان ترانى ، وتعد لى شيئا آكله : خبزا محمرا فى الدسم ، أو بيضة مقلية مع فنجان من الشاى ، ثم تمضى تقرأ لى ، أو تجلس معى فى النافذة وتسـليني بالتعليق على المارة العابرين من تحتنا ، ونخترع لكل منهم حكاية . فاذا كان شابا مرح الخطى ، مزهوا بنفسه ، قالت :

ـ ها هو السيد نطاط فى طريقه الى سباق الخيل !

ويمر شخص تبدو عليه الاهمية والترفع ، فتقول :

ـ ها هو رجل مهذب ، ولكنه فى هذه اللحظة قلق بسبب الثقب الذى فى مقعد بنطلونه ..

ثم يعبر شخص آخر ، سريع الخطى فتقول :

ـ هذا السيد قد شرب لتوه ملحا فوارا !

وهكذا تمضى دون توقف مطلقة اياى فى نوبات عاصفة من الضحك ..

***

مضى اسبوع اخر دون أن تصل كلمة من سدنى . ولو اننى كنت اقل طفولة واكثر احساسا بما تعانيه أمي

من قلق ، لكان ممكنا ان ادرك ما يوشك ان يحيق بها • ولاحظت أنها ظلت جالسة عدة أيام أمام النافذة فى ذهول ، واهملت تواتيب الحجرة ، ولاذت بصمت غير عادى • وكان يمكن ان اهتم بالامر عندما بدأ مصنع القمصان يكتشف اخطاء عملها وتوقف عن التعامل معها ، وعندما سحبت منها ماكينة الخياطة بسبب التأخر فى الدفع ، وعندما توقفت فجأة قروشى الخمسة والعشرون التى كنت اكسبها من دروس الرقص •• وخلال هذا كله كان يمكن ان الاحظ ان امى ظلت متبلدة ، غير مكترثة

ثم ماتت مسز مكارثى فجأة ، فبدأت الاحلام على الفور تغزو رأسى • كم يكون رائعا ان يتزوج المستر مكارثى من أمى . . خاصة ونحن اصدقاء الى هذا الحد ، أنا ووالى ! فضلا عن أن ذلك سيكون حلا مثاليا لكافة متاعب أمى

وما كادت تنتهى الجنازة حتى تحـــــدثت الى امى فى المسألة ، وقلت لها :

ــ يجدر بك ان تهتمى بالاكثار من رؤية المســــتر ماكارثى • فأنا أراهن انه سيميل الى الزواج منك

فابتسمت امى ابتسامة خفيفة وقالت :

ــ دع الرجل المسكين فى حاله

ــ اؤكد لك انه سيفعل ، لو انك فقط عنيت بثيابك وحرصت على أن تكونى جذابة كعـــادتك فى الماضى • ولكنك لا تبذلين أى مجهود ، وكل ما تفعـــلين هو ان تجلسى حيث انت فى هذه الحجرة القذرة ، ويبدو شكلك مزعجا . .

مسكينة امى ! كم اندم اليوم على هذه الكلمات •فاننى ماادركت أبدا أنها كانت ضعيفةبسببسوءالتغذية . . ومع

ذلك فانها فى اليوم التالى ، وبجهد فوق الطاقة البشرية ، قامت ونظفت الحجرة

وكنا فى أيام العطلة الصيفية ، فرأيت ان أبكر فى الذهاب الى بيت آل ماكارثى •• لمجرد الفرار من جو الفقر والاملاق فى حجرتنا •• وهناك دعيت الى البقاء لتناول الغداء ، ولكن شيئا ألهمنى أننى يجب أن أعود الى امى • وعندما وصلت الى « بونال تيراس » ـ حيث كنا نقيم حينذاك ـ استوقفنى بعض اطفال الجيران عند البوابة • وقالت بنت صغيرة منهم :

ـ لقد جنت امك !

فكانت كلماتها كالصفعة على وجهى ••

وغمغمت قائلا :

ـ ماذا تعنين ؟

فقالت صبية اخرى :

ـ انها الحقيقة •• فقد اخذت تقرع جميع الابواب وتوزع قطعا من الفحم على البيوت قائلة انها هدايا للاطفال بمناسبة عيد الميلاد • وفى استطاعتك أن تسأل امى ••

فانطلقت اجرى ـ دون ان اسمع المزيد ـ من باب البيت المفتوح الى الممر ، ثم قفزت السلالم وفتحت باب حجرتنا ، ووقفت التقط انفاسى وانا احدج امى بنظرات فاحصة • كنا بعد الظهر فى الصيف ، والجو خانق ثقيل وكانت امى عند النافذة كعادتها • فاستدارت ببطء ، ونظرت الى بوجه شاحب ، مضطرب • وكدت اصرخ وانا اناديها :

ـ امى !..

فقالت فى ذهول :

ــ ما الخبر ؟

فعدوت اليها وركعت على ركبتى ، ودفنت وجهى فى حجرها ، ثم انفجرت فى بكاء لا سلطان لى عليه ..

وقالت برفق وهى تربت على رأسى :

ــ كفى ، كفى . ما الذى يضايقك ؟

قلت وانا ابكى وانشج :

ــ انك لست على ما يرام

فقالت فى ثقة :

ــ بل على ما يرام بكل تأكيد

وكانت تبدو ذاهلة تماما ، ومشتتة الـــذهن ، وهى تقول ذلك . فصحت قائلا :

ــ ابدا ! ابدا ! انهم يقولون انك مررت على كل البيوت وانك ...

ولم استطع ان اكمل ، ومضيت اواصل البكاء

وقالت هى فى ضعف :

ــ لقد كنت ابحث عن سيدنى انهم يخفونه عنى ..

فعرفت عندئذ ان ما قاله الاطفال كان صحيحا

وارتفع نشيجى وانا اقول :

ــ ماما .. لا تتكلمى هكذا ! لا تفعلى ذلك ! لا تفعلى .. دعينى احضر لك طبيبا

فاستطردت وهى تربت على رأسى :

ــ ان آل ماكارثى يعرفون أين هو . ولكنهم يخفونه عنى ..

فصرخت :

ــ ماما ، ارجوك ، دعينى احضر طبيبا ..

ونهضت متجها الى الباب
فتابعتنى بنظرة فيها ألم وعتاب وهى تقول :
ــ الى أين انت ذاهب ؟
ــ الى الطبيب ‥ لن اغيب طويلا ‥
فلم تجب بحرف ، ولكنها تابعتنى بعينيها فى قلق ٠ أما انا فاندفعت اهبط السلم على عجل الى صاحبة البيت
ــ يجب ان احضر طبيبا على الفور ٠ ان امى ليست على ما يرام ‥
فقالت صاحبة البيت :
ــ لقد ارسلنا نطلبه بالفعل ‥
وكان طبيب الابرشية رجلا عجوزا ، ضيق الصدر ٠ وبعد أن استمع الى رواية صاحبةالبيت التى كانت مشابهة لرواية الاطفال ، قام باجراء فحص شـــــكلى لامى ، ثم قال :
ــ مجنونة ٠ أرسلوها الى المصحة
وكتب الطبيب ورقة أكد فيها ــ بالاضافة الى أشـــياء أخرى ــ أن أمى تعانى من « سوء التغذية » ‥ وفسر لى هذه الكلمة بقوله انها لا تأكل ما يكفيها
وقالت صاحبة البيت تواسينى :
ــ ان حالها سيكون هناك أفضل ، وســـــتحصل على الطعام المناسب
وساعدت المرأة فى جمع ثياب أمى والباسها ٠ وأطاعتها أمى كالطفل فى ضعف شديد وقد بدا أن ارادتهـــــا قد تخلت عنها ٠ وعندما خرجنا من البيت كان الجيران محتشدين أمام البوابة الخارجية ، يراقبون ما يجـرى فى وجل ‥

وكانت المصحة على مسافة ميل تقريبا من البيت • فسرنا على مهل وأمى تترنح من فرط الضعف كأنها امرأة مخمورة ، وتتمايل من جانب الى جانب وأنا أسندها • وبدت لى شمس ما بعد الظهر المتوهجة كأنها تفضح بقسوة تعاستنا • ولا شك أن الذين قابلونا كانوا يتصورون أن أمى مخمورة ، ولكنهم بالنسبة لى لم يكونوا أكثر من أشباح فى حلم • ولم تتكلم أمى أبدا ، ولكن كان يبدو عليها أنها تعرف الى أين نحن ذاهبون ، وأنها تتوق الى الوصول الى هناك • فى الطريق حاولت أن أطمئنها ، فابتسمت ولكنها كانت أضعف من أن تتكلم

وعندما وصلنا الى المصحة أخيرا ، تسلم أمى طبيب شاب قرأ المذكرة ثم قال برفق :

ـ حسنا • من هذا الطريق يا مسز شابلن

فأطاعت مستسلمة • ولكنها عندما شرعت الممرضات يبتعدن بها ، استدارت فجأة وقد تنبهت فى ذعر أليم الى أنها قد خلفتنى وراءها • فتظاهرت بالبشاشة وقلت :

ـ سأراك غدا ••

وابتعدوا بها وهى تتلفت الى الوراء وتنظر لى فى قلق • فلما اختفت تحول الطبيب الى قائلا :

ـ والان •• ماذا سيكون مصيرك أنت أيها الفتى الصغير ؟

ولما كان ما أصابنى من مدارس الملاجىء يكفينى ، فقد أجبت بأسلوب مهذب :

ـ أوه •• سأعيش مع خالتى ••

وفى طريق عودتى من المستشفى الى البيت ، لم أكن أشعر الا بحزن يبلد الحواس • ومع ذلك فقد كنت راضيا

لاننى أعرف أن حالها فى المستشفى سيكون أفضل من جلوسها فى تلك الحجرة المظلمة وحدها بلا طعام • غير أننى لن أنسى أبدا نظرتها تلك التى تمزق القلب وهم يبتعدون بها وأخذت أتذكر كل ما كانت تفعل ، وسرح خيالى الى روحها المرحة ، وعذوبتها ، وحنانها • الى ذلك الهيكل الضئيل المرهق الذى اعتاد ان يقبل من اول الطريق مهموما ، بادى التعب الى أن يقع بصرها على مندفعـــا نحوها •• وكيف كانت عندئذ تتبدل على الفور ، ويملأ الابتسام وجهها كله وأنا أفتش بشغف فى كيس الورق الذى تحمله ، أبحث عن تلك الهدايا الصغيرة التى كانت دائما تعود بها الينا أنا وسيدنى • حتى فى ذلك الصباح كانت تدخر لى بعض قطع الحلوى •• وقدمتها الى عندما كنت أبكى فى حجرها

لم أذهب رأسا الى البيت • لم أستطع • وانما اتجهت الى سوق « نوينجتون بتس » ورحت أنظر فى واجهـات المحال الى ساعة متأخرة من المساء • وعنـــدما عدت الى حجرتنا كانت تبدو مهجورة ، حزينة • وعلى المقعد كان طشت غسيل ممتلىء الى نصفه بالماء ، وقد نقع فيه قمصان لى، ولم يكن فى الدولاب الا نصف باكو من الشاى ، ولا طعام • وعلى رف المدفأة كان كيس نقودها الذى وجدت فيه خمسة عشر مليما ، وبعض المفاتيح ، وايصالات رهن متعددة • وفى ركن من المائدة كانت ما تزال قطع الحلوى التى قدمتها الى فى الصباح .. فانهرت مـرة اخـرى وبكيت ..

ونمت فى تلك الليلة نوما عميقا وقد ارهقنى الانفعال . ثم استيقظت فى الصباح على فراغ محلق فى الحجرة ، وضوء الشمس الذى ينساب على الارض يبدو كانه يزيد

غياب أمى وضوحا . وجاءت صاحبة البيت فيما بعد تقول أن فى امكانى البقاء الى أن تؤجر الغرفة . وليس على اذا ما احتجت الى الطعام الا ان أطلبه . فشكرتها وقلت لها ان سيدنى سيدفع كل ما نحن مدينون به عند عودته . ولكننى خجلت أن اطلب الطعام

ولم أذهب لزيارة أمى فى اليوم التالى كما وعدتها . لم استطع أن أفعل ، ولو فعلت لسبب لى ذلك ألما كبيرا . ولكن صاحبة البيت قابلت الطبيب الذى قال لها انها قد نقلت الى مستشفى الامراض العقلية فى كين هيل . فأعفانى هذا النبأ الحزين من عبء ضميرى ، اذ كانت كين هيل تبعد عشرين ميلا ، ولا أملك وسيلة للوصول اليها . ثم أن سيدنى سيعود قريبا ، وسيكون فى استطاعتنا عندئذ أن نذهب معا لزيارتها

وقد ظللت طوال الايام القليلة الاولى بعد ذلك لا أرى أحدا ، ولا اتحدث الى أحد ، ممن أعرف . كنت أتسلل من البيت فى الصباح الباكر ، والبث طول النهار فى الخارج ..

وكان فى استطاعتى دائما أن أحصل على الطعام فى مكان ما — فضلا عن أن تفويت وجبة لم يكن بالنسبة لى أمرا شاقا — وقد ضبطتنى صاحبة البيت ذات صباح وأنا أهبط السلم متسللا فسألتنى ان كنت قد تناولت افطارى . فلما هززت راسى قالت بلهجتها الخشنة : فلتأت اذن . أما آل مكارثى ، فقد انقطعت عنهما لاننى لم أكن أريد أن يعرفا بما حدث لامى . كنت كاللاجىء الهارب ، حريصا على الا يرانى أى انسان ...

مضى أسبوع على ذهاب أمى ، وتعودت على طراز من الحياة لا متعة فيه ولا ألم ، وكان أكثر ما يهمنى هو صاحبة البيت ، لانها ما لم يعد سيدنى — ستضطر عاجلا

أو آجلا الى ابلاغ سلطات المقاطعة بأمرى ، فيبعثون بى مرة أخرى الى معهد هانويل لليتامى والاحداث المشردين. لهذا كنت أتجنبها ، بل وكنت فى بعض الاحيان أنام خارج البيت ..

ثم تعرفت الى رجلين من قاطعى الاخشاب كانا يعملان فى حظيرة وراء شارع كننجتون .. رجلين مهلهلين ، يقومان بعملهما الشاق فى « مغلق » مظلم ، ويتكلمان بصوت ناعم خفيض وهما ينشران الخشب ويقطعانه طول النهار ليصنعا منه حزما تباع الواحدة بمليمين . وكنت اتسكع أمام الباب المفتوح لاراقبهما . فتنتنى السرعة الخارقة التى يقطعان بها الخشب ، وأتصور أنه عمل جذاب ، وسرعان ما بدأت أساعدهما .. وكانا يشتريان كتل الخشب من مقاولى الانقاض ، ثم يحملانه بالعربة الى « المغلق » ويكومانه فوق بعضه البعض .. وهو عمل يستغرق يوما كاملا . وكانا بعد ذلك ينشران الخشب يوما ، ثم يقطعانه فى اليوم التالى ، وفى يومى الجمعة والسبت يبيعانه للوقود . ولكن عملية بيعه لم تكن تغرينى . فالعمل معا فى « المغلق » كان أكثر امتاعا ..

وكان الرجلان من الطراز الذى يعتاد الناس بسرعة ، وكانا فى أواخر العقد الرابع من العمر . ولكن هيئتهما وتصرفاتهما تجعلهما يبدوان أكبر سنا بكثير . وكان للرئيس (كما كنا ندعوه) أنف كبير أحمر ، ولا أسنان فى فكه الاعلى غير ناب واحد ، ولكن وجهه كان يوحى بالطيبة والعذوبة . وكانت له ابتسامة عجيبة تكشف عن سنته الواحدة بشكل يلفت اليها النظر . وكان اذا احتاج الى فنجان اضافى للشاى غسل علبة من علب اللبن الفارغة ، وابتسم قائلا :

ـ ما رأيك فى هذه بدلا منه ؟

اما الرجل الآخر فانه ، عـــلى لطف معشره ، كان شاحب الوجه ، غليظ الشفتين ، بطيئاً فى نطق الكلمات

وكان الرئيس اذا ما بلغت الساعة الواحدة ينظر لى قائلا :

ـ هل ذقت فى حياتك طعم حساء ويلز المصنوع من قشور الجبن ؟

فأجيب :

ـ لقد أكلناه عشرات المرات ..

فيبتسم ضاحكا ويسلمنى قرشا اذهب به الى محل «آش» للبقالة والشاى عند الناصية ، اذ كانوا هناك يحبوننى ويعطوننى بسخاء فى مقابل نقودى . وأشترى قشور جبن بنصف قرش . وخبزا بنصف قرش . وبعد أن نغسل الجبن ونبشره . نضيف اليه الماء وقليلا من الملح والفلفل . وفى بعض الاحيان كان الرئيس يضيف أيضا قطعة من دهن الخنزير وبصلة مقطعة الى حلقات . وكان هذا ـ مع كوب من الشاى الساخن ـ يؤلف وجبة مثيرة للشهية ..

ومع أننى لم أطالب بنقود على الاطلاق . فان الرئيس فى نهاية الاسبوع أعطانى نصف شلن .. كان بمثـــابة مفاجأة سارة

وكان جو ـ أو الوجه الشاحب ـ يعــانى من نوبات من الصرع يسعفه الرئيس بحرقا ورق بنى اللون تحت أنفه . وفى بعض الآحيان كان فمه يزبد. ويعض لسانه. فاذا أفاق من النوبة بدا عليه الاسى والخجل

وكان الرجلان يعملان من السابعة صباحا الى السابعة مساء والى ما بعد ذلك فى بعض الاحيان . ولكننى كنت

دائما اشعر بالحزن حين يغلقان الحظيرة ويعودان الى البيت ..

وذات يوم قرر الرئيس ان يدعونا الى مقاعد من ذات القرش فى بلكون مسرح الميوزيكهول بجنوب لندن ، فاغتسلنا انا وجو ، وأصلحنا من هيئتنا فى انتظاره ، وكنت فى قمة الانفعال لان مسرحية « الطيور المبكرة » لفريدكانو ــ الفرقة التى انضممت اليها بعد ذلك بسنوات ــ كانت هى التى تعرض هناك . وبينما كان جو مستندا بظهره الى حائط الحظيرة ، وانا اقف فى مواجهته مسرورا ، متحمسا .. فوجئت به يصدر صيحة عالية ، ثم يتهالك محتكا بالجدار فى احدى نوباته . كان تشوقه الى السهرة اقوى مما يحتمل . وأراد الرئيس ان يبقى الى جواره للعناية به . ولكن جو أصر على ان يذهب كلانا بدونه ، مؤكدا انه سيكون بخير فى الصباح

كان خطر المدرسة غولا يتهددنى ولا يبارح مخيلتى . فقد كان قاطعا الاخشاب يستجوبانى بين وقت وآخر عن هذه المسألة . وعندما انقضت أيام الاجازات بدأ ينتابهما القلق . فكان على أن أغيب عنهما كل يوم حتى الرابعة والنصف مساء . وهو موعد انصراف المدرسة . وكان يوما طويلا من الوحدة ذلك الذى أقضيه فى عراء الشوارع أنتظر الساعة الرابعة كى أعود الى مأواى الظليل وقاطعى الاخشاب

***

وبينما انا أتسلل صاعدا الى فراشى ذات ليلة . سمعت صاحبة البيت تنادينى ، وكانت مستيقظة فى انتظارى ثم سلمتنى بانفعال شديد برقية تقول :

« أصل العاشرة صباح غد الى محطة ووترلو ــ مع حبى ــ سيدنى »

ولم يكن مظهرى مما يسر الخاطر كمستقبل له فى المحطة . فثيابى كانت قذرة . ممزقة . وحذائى مفتوح الفم يتثاءب ، وبطانة قبعتى تطل كقميص امرأة تدلى ذيله . كما اننى كنت لا اغسل وجهى حين اغسله ــ الا من صنبور قاطعى الاخشاب ، حتى أوفر على نفسى عناء الصعود بجردل من الماء الى ثلاثة أدوار ، والمرور أمام مطبخ صاحبة البيت . فلما ذهبت للاقاة سيدنى كانت هناك ظلال سوداء حول عنقى وداخل أذنى

وقال سيدنى وهو يفحص شكلى :

ــ ماذا حدث ؟

فلم اترفق وانا أدلى اليه بالنبأ :

ــ لقد جنت أمى واضطررنا الى ارسالها الى المصحة.

فتجهم وجهه ، ولكنه سيطر على نفسه وقال :

ــ وأين تقيم أنت ؟

فى نفس المكان . . بونوال تيراس

فتحول عنى ليعنى بأمر حقائبه ، ولاحظت عندئذ انه شاحب . متهالك . وبعد أن أمر باحضار عربة . جاء الحمالون وكوموا عليها منقولاته .. وكان من بينها سباطة موز !

وسألت بشغف :

ــ هل هذه ملكنا ؟

فأومأ برأسه :

ــ انها ما تزال خضراء . ويجب أن ننتظر يوما أو يومين قبل أن نأكلها

وفى طريقنا الى البيت بدأ سيدنى يلقى الاسئلة عن أمى . ولكن انفعالى كان أقوى من أن يسمح لى بتقديم رواية مترابطة ، فلم يحصل منى الا على نتف من

القصة . ثم أخبرنى بأنهم خلفوه وراءهم للعلاج فى أحد المستشفيات فى « كيب تاون » ، وانه فى رحلة العودة كسب عشرين جنيها .. وكان ينوى أن يسلم أمى هذا المبلغ الذى جمعه من الجنود عن طريق تنظيم عمليات مراهنة ويانصيب ..

ثم أخبرنى عن خططه للمستقبل . فهو يتنوى أن ينصرف عن العمل فى البحر ويصبح ممثلا .. وفى تقديره أن النقود ستكفى للانفاق علينا عشرين أسبوعا يبحث اثناءها عن عمل فى المسرح

وكان لوصولنا فى عربة ومعنا سباطة الموز أثر بالغ على كل من الجيران وصاحبة البيت .. التى أخبرت سيدنى بنبأ أمى . ولكن دون أن تدخل فى تفاصيل تحرج مشاعره

***

وذهب سيدنى فى نفس اليوم الى السوق ، وكسانى ثيابا جديدة .. وفى تلك الليلة جلسنا، وأنا بكامل ثيابى، فى مقاعد الصالة بمسرح « موزيكهول جنوب لندن » ، وكان سيدنى لا يفتأ يردد طوال العرض :

ــ تصور ماذا كان يمكن أن تعنى هذه الليلة بالنسبة لامى ..

فى ذلك الاسبوع ذهبنا نزورها فى كين هيل ، وعندما جلسنا فى حجرة الزيارة كدنا لا نحتمل فترة الانتظار، وما زلت أذكر حتى الآن صوت دوران المفتاح ، ثم دخول أمى .. كانت تبدو شاحبة ولون شفتيها أزرق .. ومع انها عرفتنا ، فانها لم تبد حماسا لذلك .. فحيويتها القديمة كانت قد ذهبت . وكانت تصحبها ممرضة طيبة

القلب ، ثرثارة ، وقفت معنا ترغب فى الكلام ، ومضت تقــول :

ــ من المؤسف أن يكون حضوركم فى مثل هذا الوقت. اذ اننا لسنا فى خير حالاتنا اليوم

ــ أليس كذلك يا عزيزتى ؟

فنظرت أمى ــ فى أدب ــ اليهـــا وابتسمت نصف ابتسامة ، كأنما تنتظر انصرافها

وأضافت الممرضة :

ــ يجب أن تحضرا مرة أخرى عندما يكون حالنــا أفضــل ..

ثم انصرفت أخيرا ، فصرنا وحدنا



الشقيق سيدنى



الوالد : قتله المسرح والخمر !

ومع أن سيدنى حاول أن يدخل البهجة على أمى ، محدثا اياها عن التوفيق الذى أصابه ، والنقـود التى جمعها ، وأسباب غيابه كل هذه المدة .. فان أمى ظلت تنصت وتهز رأسها شاردة الذهن ، ذاهلة عن نفسها. وعندما قلت لها انها سرعان ما ستسترد صحتها قالت فى شرود :.

ـ بالطبع . لو أنك فقط أعطيتنى فنجانا من الشاى ذلك المساء ، لما أصابنى شيء

وقال الطبيب لسيدنى فيما بعد ان عقلها قد تأثر دون شك بسبب سوء التغذية ، وأنها تحتاج الى علاج طبى كامل ، وانها بالرغم من لحظات صفاء الذهن التى تمر بها فستحتاج الى عدة أشهر قبل أن يتم شفاؤها

أما أنا ، فقد قضيت عدة أيام تلاحقنى كلماتها :

ـ لو أنك فقط أعطيتنى فنجانا من الشاى ذلك المساء، لما أصابنى شيء !

الفصل الخامس

الممثّــل المتجوّل

* المظاهرات تهتف : شابلن .. شابلن ..
* على بساط المليون دولار
* بافلونا .. سارة برنار .. سومرست موم ..
* النهاية الفاشلة لغرام جاء عنيفا

كتب جوزيف كونراد الى صديق له ما معناه : « ان الحياة تجعله يشعر كأنه جرز أسير ، أعمى ، فى انتظار القتل » . ومع ان هذا التشبيه ينطبق علينا جميعا ، فان بعضنا أحيانا يصيبه حسن الحظ .. وهذا هو ما حدث لى ..

فقد عملت بائع صحف ، وعامل مطبعة ، وصانع لعب للاطفال ، ونافخ زجاج ، وصبى طبيب .. الخ . ولكننى طوال هذا كله لم أدع هدفى النهائى فى أن أعمل بالتمثيل يغيب عن عينى . مثلى فى ذلك مثـل سيدنى . ولهـذا فاننى ، فى فترات ما بين العمل ، كنت أصقل حذائى ، وانظف ملابسى بالفرشاة ، واضع ياقة نظيفة ، ثم أقوم بجولات منتظمة على متعهدى « بلاكمور » المسرحيين فى شارع بدفور ، على مسافة من « ستراند » وقد ظللت افعل هذا الى أن حالت هيئة ثيابى دون مزيد من هذه الزيارات

وعندما ذهبت أول مرة ، كان المكان مزدانا بوجهاء من الجنسين ، ملابسهم بالغة النظـافة ، يتبادلون الحديث بعظمة . فوقفت مرتبكا فى ركن بجوار الباب ، احـاول فى خجل شديد ان أخفى ثيابى الممزقة وحذائى الذى تنبعج منه أصابع قدمى . ومن المكتب الداخلى كان يخرج بين لحظة وأخرى موظف يشـق طريقه كرجل الحصـاد فى زحام الواقفين المتعالين ، قائلا : « لا شىء لك ــ ولا لك

ـ ولا لك » .. الى أن يخلو المكتب كله كالكنيسة وقت انصراف المصلين

وفي احدى هذه المرات وجدت نفسي وحدي . فلما رآني الموظف سألني بلهجة قاطعة :

ـ ماذا تريد ؟

فأحسست كأنني « أوليفر تويست » يطلب المزيد . وقلت مضطربا :

ـ ألديكم أدوار للاولاد ؟

ـ هل اسمك مسجل ؟

فهززت رأسي نافيا

واذا به ، لدهشتي الشديدة ، يدفعني الى مكتب مجاور ، ويأخذ اسمي وعنواني وبقية التفاصيل ، قائلا انه سيخبرني اذا ظهر شيء

وغادرت المكان وفي نفسي ارتياح ممن قام بواجبه ، ومسرور في نفس الوقت لأن الامور لم تتطور الى شيء

وبعد شهر من عودة سيدني اذا بي أتلقى بطاقة بريد تقول :

« يمكنكم المرور على مكتب وكالة بلاكمور ، شارع بدفورد ، ستراند ! » ..

وفي ثيابي الجديدة ذهبت ، فأدخلني لمقابلة المستر بدفورد نفسه . وكان كله رقة وابتسامات . وبكل ود زودني هذا الرجل « الذي كنت أتصوره رهيبا جبارا » بمذكرة اذهب بها الى المستر « س . أ هاملتون » في مكتب شارل فورهمان

وقرأ المستر هاملتون المذكرة . فأدهشه وسره أن اكون صغير السن الى هذا الحد . واضطررت بالطبع أن

أكذب عليه ، وأدعى أننى فى الرابعة عشرة لا فى الثانية عشرة كما كانت الحقيقة

وأوضح لى الرجل أننى سأمثل دور الغلام « بيلى » .. فى مسرحية شيرلوك هولمز .. طوال مدة تستغرق أربعين أسبوعا ، وتبدأ فى الخريف

ثم قال :

ـ أما فى الوقت الحاضر فهناك دور ممتاز لغلام فى مسرحية جديدة كتبها هـ . أ . سينتسبرى .. الممثل الذى سيقوم بالدور الرئيسى فى مسرحية شيرلوك هولمز فى الجولة المقبلة

كانت هذه المسرحية « جيم » سوف تعرض فى كينجستون كتجربة قبل القيام بجولة هولمز . وكان المرتب جنيهين ونصف جنيه فى الاسبوع . نفس المرتب الذى سأحصل عليه من مسرحية شيرلوك هولمز

ومع أن المبلغ كان كنزا مذهلا ، فان جفنى لم يختلج وقلت بوقار :

ـ سأتشاور مع أخى حول الشروط

فانفجر المستر هاملتون ضاحكا ، وبدا شديد الاستمتاع . ثم دعا كل هيئة المكتب ليلقوا نظرة على قائلا :

ـ هذا هو بيللى الذى سنقدمه . ما رأيكم فيه ؟

فإذا بالجميع سعداء جدا بى ، يبتسمون فى وجهى . ما الذى حدث ؟ بدا كأن العالم كله تغير .. كأنه هو ضمنى بين أحضانه وتبنانى

وسلمنى المستر هاميلتون بعد ذلك مذكرة الى مستر سينتسبرى ، الذى قال اننى سأجده فى نادى « جرين

روم » بميـــدان لانكستر . فغادرت المكان وانا امشي فوق السحاب

وتكرر نفس الشيء فى نادى « جرين روم » . اذ دعا المستر سينتسبرى أعضاء النادى الاخرين لالقاء نظـرة على . وسلمنى فى التو واللحظة دور « سامى » .. قائلا انه من أهم شخصيات المسرحيــة . فخشيت أن يطلب منى قراءته فى الحال ، الامر الذى كان يمكن أن يحرجنى لاننى كنت شبه عاجز عندئذ عن القراءة

علما أنه لحسن الحظ طلب منى أن آخـذ الدور معى الى البيت ، وأقراه على مهل .. لان البروفات لن تبدأ قبل أسبوع

وعدت الى البيت وقد أسكرتنى السعادة . ثم بدأت أدرك بالضبط كل ما حدث لى . لقد تركت فجأة حياة الفقر والحرمان وبدأت أدخل حلما طالما راودنى .. حلما كانت أمى تحدثنى عنه وتسعد له . فقــد قــدر لى أن أصبح ممثـــلا ! وجاء كل شيء فجأة ودون أن أتوقعه . ورحت أقلب على دورى فى المسرحيــة ، وكانت داخــل غلاف من الورق البنى الجميــل . كانت أهم مســـتند أحمله بين يدى فى حياتى

وفى خـــلال رحلتى بالاوتوبيس أحسست أننى قـــد اجتزت عقبة هامة فى حياتى . لم أعد انسانا شاذا يعيش فى الاحياء الفقيرة . اننى الآن شـــخصية يشــار اليهــا بالبنان فى المسرح . واردت أن أبكى !

كانت عينا سيدنى شقيقى تلاحقان كلمــاتى وكأنهمــا شريط سينمائى ، وانا أروى له ما حدث لى . كان يجلس رابضا فوق فراشه ويتطلع فى امعان الى ما وراء النافذة ويهز رأسه بين الحين والحين . وأخيرا قال لى فى صوت جاد وقور : « هذه هى نقطة التحول فى حياتنا . كم كنت

أتمنى لو أن أمنا كانت هنا لتسعد بها معنا »

قلت لسيدنى فى حماس : « ان مجرد التفكير فيما حدث .. تصور اربعين اسبوعا بمرتب جنيهين وعشرة شلنات عن كل أسبوع . لقد قلت لمستر هاملتون أنك ستعنى بكل المسائل المالية . وربما نحصل على أكثر من ذلك . على أية حال اننا نستطيع أن نوفر ستين جنيها هذا العام !! »

ولكن ما كاد حماسنا يهدأ ، حتى كنا ندرك أن جنيهين وعشرة شلنات فى الاسبوع لا تتناسب مع هذا الدور الكبير . وذهب سيدنى فى محاولة لرفع هذا الاجر الذى اتفقنا عليه مبدئيا . وقالت لاخى : « لا بأس من المحاولة على أية حال » . ولكن مستر هاملتون كان صلب الرأى عنيدا ، وقال ان جنيهين وعشرة شلنات هى أقصى ما يمكن دفعه ، ويجب أن نكون سعداء لاننا حصلنا على هذا الأجر ..

وقرأ سيدنى دورى وساعدنى على حفظ سطوره عن ظهر قلب . وكان دورا كبيرا يقع فى ٣٥ صفحة ، لكننى استطعت أن أحفظه فى ثلاثة أيام

وبدأت بروفات « جيم » فى الدور العلوى لمسرح « درورى لين » لقد كان سيدنى يلقننى دورى بحماس شديد حتى أننى أتقنته تماما . ولكن كانت هناك كلمة واحدة تثير غيظى . كان هناك سطر يجب أن أقول فيه : « من تكون أنت يا مستر بيربونت مورجان ؟ » ولكننى كنت أنطق اسمه باتربينت بدلا من بيربونت ! ولكن مستر سينتسبرى استطاع أن يساعدنى على ان أحفظ اسمه ! وكانت هذه « البروفات » الاولى كافية لان تكشف لى عن أشياء كثيرة . لقد فتحت لى عالما جديدا من « التكنيك » أو الفن المسرحى . فلم أكن اعلم أن

هناك شيئا اسمه فن المسرح ولا التوقيت ولا الاداء ، لم أكن أعلم شيئا عن فن التمهل فى الدوران والجلوس . ولكن كل هذا جاء طبيعيا وبلا تكلف

وبعد أن قمت ببروفات لبعض المناظر ، ذهل مستر سينتسبرى وسألنى عما اذا كنت قد قمت بالتمثيل من قبل !؟ وشعرت بارتياح شديد وأنا المس السرور فى عينى الرجل وفى عيون كل الممثلين على المسرح . وتقبلت حماسهم كما لو كان حقا طبيعيا فى يوم مولدى

وكان من المقرر عرض مسرحية « جيم » لمدة أسبوع فى مسرح كنجيستون ثم عرضها لمدة أسبوع آخر فى مسرح « فولهام »

لقد كان كل سطر قرأته يثير الضحك . الا ان العمل اليدوى كان يشغل بالى اذ كان على أن أعد الشاى على المسرح وربما ارتبك فيما اذا كنت سأضع الشاى فى الوعاء قبل الماء الساخن اولا . والغريب انه كان من السهل على ان اصيح بالقراءة من ان أقوم بعمل يدوى على المسرح . ولكن مسرحية « جيم » لم تكن ناجحة وقد اسقطها المراجعون . ومع ذلك تلقيت ملاحظات طيبة وخاصة ملاحظة أبداها لى تشارلس ، وهو احد أعضاء شركتنا ، فبعد ان القى على محاضرة فى التواضع وكرم الاخلاق قرأ لى تعقيبا من صحيفة « لندن تايمز » مازلت اذكره بالكلمة وكانت الصحيفة قد أستطردت بعد حملة عنيفة على المسرحية قائلة « ولكن هناك ما يشفع للمسرحية وهو دور سامى ذلك الصبى العربى الذكى المتسكع بشوارع لندن الذى كان له الفضل الاول فى الفن الهزلى .. فمع انه شخصية مبتذلة متأخرة فانه كان مسليا للغاية بفضل تمثيل شارلى شابلن الذكى النشط الذى لم أسمع عنه

من قبل ولكنني أود ان اسمع عنه أشياء عظيمة فى المستقبل القريب » وقد اشترى سيدنى ١٢ نسخة من الصحيفة

وبعد انتهائنا من العمل فى مسرحية (جيم) الذى استغرق أسبوعين بدأنا الاستعداد لمسرحية (شرلوك هولمز) . وكنت وسيدنى خلال هذا الوقت ما زلنا نقيم فى (باونول تيراس) لاننا لم نكن واثقين من موقفنا الاقتصادى . وكنت أذهب وسيدنى الى كين هيل « مستشفى مجاذيب » لزيارة أمى . وقالت لنا الممرضات أول مرة أنه لا يمكن زيارتها لانها لم تكن فى حالة طيبة فى ذلك اليوم . وانتحت الممرضات جانبا بسيدنى بعيدا عن سمعى ولكننى سمعته يقول (كلا .. لا اعتقد إنه سيفعل) ثم التفت الى وسألنى فى حزن (هل ترغب فى رؤية أمك فى غرفة عزل المجاذيب ؟) فتراجعت قائلا كلا .. كلا فلن أستطيع الاحتمال !)

ولكن سيدنى زارها واستطاعت ان تعرفه حينما عادت لرشدها وبعد بضع دقائق أخبرتنى الممرضة أن أمى فى حالة طيبة واستطيع ان أراها اذا شئت . وجلست معها فى غرفة العزل وقبل خروجى انتحت بى جانبا وهمست فى أذنى قائلة « لا تضل طريقك حتى لا يحضروك الى هذا المكان » وقد بقيت ١٨ شهرا فى كين هيل قبل أن تستعيد صحتها ، ولكن سيدنى كان يتردد عليها أثناء غيابى فى جولاتى ..

وقد حتمت على جولتى الاولى الاقامة مع مستر جرين وزوجته وهو نجار الشركة وكانت زوجته المسئولة عن خزانة الملابس . ولم تكن اقامتى معهما طيبة . فقد كان الزوجان يشربان الخمر كثيرا ولم أكن دائما أريد

الاكل معهما او اكل ما يأكلونه. وكنت متأكدا ان اقامتى معهما كانت متعبة لهما أكثر مما هى متعبـــة لى . ولذا اتفقنا بعد ثلاثة اسابيع على الانفصال . ولما كنت أصغر من ان أعيش مع أعضاء الفرقة الاخرين فاننى قررت أن أعيش وحدى . وهكذا اصبحت وحيدا فى مدن غريبـــة وغرف منعزلة لاأكاد اقابل احـــدا الا فى المساء وقـت التمثيل . ولم اكن اسمع ســـوى صوتى حينما كنت أحدث نفسى . وكنت احيانا أذهب الى الصـــالون حيث يجتمع اعضاء الشركة واراقبهم وهم يلعبون البليـــاردو ولكنى كنت أحس دائما أن وجودى يقيد حديثهم وكانوا يتعمدون اشعارى بذلك . وما كنت أستطيع ان ابتسم لدعابتهم دون ان ينظروا الى شذرا ..

ومكثت فى الاقاليم ستة أشهر ، وفى تلك الاثناء كان سيدنى قد عجز عن الحصول على عمل فى احد المسارح واضطر الى النزول عن طموحه الاسطورى وتقـديم طلب للحصول على وظيفة ســـاقى (بارمان) فى قاعة كول بستراند ، وحصـــل فعلا على الوظيفة من بين ١٥٠ تقدموا لها . ولكنه كان قد سقط بذلك سقوطا مخزيا من قمة سحره وطموحه

وكان يكتب لى بانتظام ويجعلنى اتتبع اخبار امنـــا ولكننى كنت نادرا ما ارد على خطاباته وكان السبب فى ذلك اننى لم اكن استطيع ان اتهجى الكلمات جيـدا ، ولكن احد خطاباته مس شغاف قلبى وجعلنى اكثر اقترابا منه ، كتب لى فى هذا الخطاب يؤنبنى على عدم الرد على خطاباته ويذكر الشقاء الذى ذقناه معا والذى يجب ان يوحد بيننا اكثر من اى شيء ، ومضى قائلا : « منذ ان مرضت أمنا ليس لكل منا فى الدنيا سوى الاخر ، ولذلك

ينبغى عليك أن تكتب لى بانتظام وتجعلنى اشعر ان لى أخا .. »

وكان خطابه مؤثرا للغاية الى درجة اننى شرعت فورا فى الرد عليه ، لقد اصبحت ارى الان سيدنى فى ضوء آخر ، لقد ثبت خطابه حبه الاخوى فى قلبى ودام هذا الحب طوال الحياة

تعودت ان اعيش وحيدا وكدت انسى عادة الكلام الى درجة أننى اذا التقيت فجأة بأحد معارفى كنت اشعر بالخجل الشديد ، فلم أكن أستطيع أن أجمع شتات فكرى بسرعة حتى أستطيع أن اجيب أسئلته بذكاء وكان مثل هذا الشخص يتركنى وهو يشعر بالاسف نحوى

مكثت فى ايبوفال ثلاث ليال وأحمد الله اننى لم أمكث أكثر من ذلك ، فقد كانت ايبوفال مدينة رطبة قبيحة بها صفوف متراصة من المنازل الكئيبة الشوهاء ، كل منزل يتكون من أربع حجرات صغيرة تضاء بمصابيح الغاز ، ونزل معظم أعضاء الفرقة فى فندق صغير ، ولحسن حظى عثرت على حجرة أمامية فى منزل احد عمال المناجم . ورغم انها كانت حجرة ضيقة فانها كانت مريحة ونظيفة ، وعندما أعود فى الليل بعد انتهاء العرض كنت أجد عشائى موضوعا امام النار ليحتفظ بسخونته وكانت صاحبة المنزل امرأة طويلة القامة انيقة فى منتصف العمر يفوح منها عبير مأساة. دخلت حجرتى فى الصباح حاملة أفطارى دون أن تنبس ببنت شفه . ولاحظت ان باب المطبخ كان مغلقا دائما وكنت عندما أريد شيئا أطرق الباب وعندئذ يفتح بمقدار بوصات قليلة

وفى الليلة الثانية بينما كنت أتناول عشائى دخل زوجها . وكان فى نفس سنها تقريبا . وكان قد عاد لتوه

من المسرح فى تلك الليلة حيث استمتع بالمسرحية

ووقف برهة يتحدث وهو ممسك بشمعة مضاءة وعلى استعداد للنوم . ثم بدا فجأة وكأنه يفكر فيمـــا يريد أن يقول .. وقال : اصـــغ الى . لدى ما قد يلائم نوع عملك .. هل رايت ضفدعة بشرية ؟ هيا . امسك هذه الشمعة وسأحمل المصباح

وتقدمنى الرجل الى المطبخ ، حيث وضع المصباح على الدولاب الذى كانت تغطى أسفله ستارة بدلا من البابين، وقال وهو يفتح هذة الستارة :

ـ هيا يا جلبرت .. اخرج من عندك .. !

فاذا بنصف رجل بلا قدمين يزحف من أســـــفل الدولاب ، برأس ضخم أشقر مبطط ، ووجه شـــاحب البياض ، وانف مفلطح ، وفم هائل ، وكتفين وذراعين عضلاتهما مفتولة . وكان يرتدى سروالا داخليـــا طويلا من نسيج الفانلات ، قصت ساقاه من أسفل الفخذين ، حيث تنبعج الى الخارج عشرة من أصابع الاقدام ! ونظر الينا هذا المخلوق الذى كان عمره يتراوح بين العشرين والاربعين وابتسم كاشفا عن صـفين من أسـنان صفراء غير متلاصقة .

وصاح الاب :

ـ هيا يا جلبرت .. اقفز !

فهبط الرجل التعس بنفسـه ببطء، ثم قذف بساعديه الى أعلى فجأة حتى كاد يبلغ مستوى رأسى !

ـ ما رأيك فيه مع احدى فرق السيرك ؟ الضفدعـــة البشرية !

فبلغ بى الذعر حدا جعلنى أعجز عن الجواب .. غير

أننى أقترحت على أية حال أسماء عدد من فرق سيرك ليكتب اليهـا ..

وإذا بالرجل يصمم على أن يقوم ذلك المخلوق التعس بأداء مزيد من النمر ، زحفا ، وتسلقـا ، ووقوفا على يديه فوق ذراعى كرسى هزاز . فلمـا فرغ من ذلك تظاهرت بأننى فى غاية الحماس ، وهنأته على ألعابه .. ثم قلت وأنا انصرف :

ـ مساء الخير ياجلبرت ..

فأجاب المسكين فى صوت أجوف ، وبلسان مقيد :

ـ مساء الخير ..

وفى تلك الليلة نهضت عدة مرات أثناء الليل وتأكدت من أحكام قفل الباب

وفى الصباح التالى بدت صاحبة البيت لطيفة ، ومتفاهمة ، وهى تقول :

ـ يقال انك رأيت جلبرت أمس. انه بالطبع لا ينـام تحت الدولاب الا عندما يسكن معنا احد من المسرح

وعندئذ طرقت ذهنى الفكرة البغيضة : اننى كنت انام فى سرير جلبرت .. وقلت للمرأة :

ـ أجـل ..

ثم تكلمت بحماس مفتعل عن فرص التحاقه بالسيرك . فأومأت برأسها قائلة :

ـ لقد فكرنا فى هذا كثيرا ..

وبدا أن هذا الحماس ـ أو سمه ما شئت ـ قد سر صاحبة البيت . وذهبت بعـد ذلك الى المطبخ لاودع جلبرت . وصافحت يده المشوهة وانا أحاول أن أبدو طبيعيا . وصافحنى هو فى رفق

وبعد أربعين أسبوعا فى الاقاليم عدنا لنمثل ثمانيــة أسابيع فى ضواحى لندن . ولما كانت مسرحية (شرلوك هولمز) قد حققت نجاحا ساحقا ، فقد كان مقررا ان نقوم بجولة أخرى بها بعد ثلاثة أسابيع من انتهاء الجولة السابقة ..

وكنا أنا وسيدنى قد قررنا الآن ان نترك مسكننا فى بوندال تيراس ونستأجر مسكنا أكثر مدعاة للاحترام فى شارع كننجتون . فقد كنا كالثعابين نريد أن نغير جلدنا ، ونتخلص من كل اثر من آثار الماضى

وتحدثت مع الادارة بشأن اعطاء دور صغير لسيدنى فى الجولة التالية لشرلوك هولمز . فحصل على الدور ب ٣٥ شلنا فى الاسبوع ! وصرنا الآن نعمل معا ..

كان سيدنى يكتب لامى كل أسبوع وقبل انتهاء جولتنا الثانية تلقينا خطابا من مصحة « كين هيل » للامراض العقلية ، يعلن انها استردت صحتها تماما . فكانت تلك أنباء طيبة حقا ، واتخذنا الاجراءات على عجل لاخــلاء سبيلها . واعددنا ما يلزمها للحاق بنا فى (ريدنج) . ولكى نحتفل بالمناسبة أستأجرنا شقة فاخرة تتألف من غرفتين للنوم ، وغرفة للجلوس مزودة ببيانو ، وزينــا غرفة نومها بالازهار ، واعددنا وليمة غذاء سخية

ثم انتظرناها أنا وسيدنى فى محطة الســكة الحديد ، ومع اننا كنا سعيدين ، ومتلهفين ، فأننى لم استطع أن أغالب أحساسا بالقلق وانا اتساءل كيف ستسترد مكانها فى حياتنا من جديد . فقد كنت أعلم أن تلك الروابط الوثيقة التى كانت بيننا فى الماضى لا يمكن أن تستعاد

وأخيرا وصل القطار ، ومضينا نتصفح وجوه المسافرين فى انفعال ، وتساؤل ، وهم يغادرون العربات .. الى أن

وقع بصرنا أخيراً عليها ، وهى تتجه نحونا باسمة ، هادئة ، فلما ذهبنا لملاقاتها لم تبد انفعالا كبيرا .. وانما حيتنا فى حنان تقليدى . وكان واضحا انها هى الاخرى تحاول أن تلائم نفسها مع الظروف الجديدة

واثناء المسافة القصيرة التى قطعناها بالعربة الى مسكننا ، تكلمنا فى مئات من الاشياء التى تعنينا والتى لا تعنينا . ولكننا ، بعد أن فرجناها على الشقة والزهور فى غرفة نومها ، وبعد أن خبت جذوة الحماس الاولى ، وجدنا أنفسنا نجلس صامتين فى حجرة الجلوس ، وكل منا ينظر الى الآخر ! كان يوما مشمسا ، وشقتنا تقع فى شارع هادىء ولكن هذا الصمت الآن لم يعد مريحا . وبالرغم من رغبتى فى أن أكون سعيدا ، وجدت نفسى أقاوم حالة من الوجوم . فأمى المسكينة ، التى كان أقل ما تجود به الحياة يجعلها سعيدة مستبشرة ، كانت تذكرنى بماضى التعس .. وهى آخر انسان فى العالم يصح أن يكون له مثل هذا الاثر على نفسى .. على أننى بذلت أقصى ما فى وسعى لاخفاء هذه الحقيقة . وكانت السن قد تقدمت بها ، وزاد وزنها . ولاننى كنت دائما أعتز بهيئتها ، وأناقتها ، فقد كنت أريد أن أقدمها للفرقة فى أحسن حالاتها . اما الآن ، فقد بدت لى أقرب الى « البهدلة » .. ولا شك أنها شعرت بما أفكر فيه ، لانها استدارت تنظر الى متسائلة .. فأمسكت بخصلة من شعرها ، وسويتها فى تدليل وانا اقول :

ـ قبل ان تراك الفرقة اريد ان تكونى فى أحسن حالاتك ..

فنظرت الى لحظة ثم اخرجت بدارتها وربتت بها على وجهها وهى تقول بمرح :

ـ كفانى سعادة أننى حية ..

لم يمض وقت طويل حتى تلاءم كل منا تماما مع الاخر ، وانقضت فترة القلق وعدم الارتياح . وفهمت أمى ـ أكثر مما فهمنا ـ أن سننا تجاوزت مرحلة الالتصاق الوثيق بها كما كان الحال ونحن اطفال . فجعلنا هذا نزداد حبا لها .. وكانت أثناء جولاتنا تتولى الذهاب للسوق وشراء ما يلزمنا . وتعود حاملة معها الحلوى والفاكهة وبعض الزهور فى كل مرة . وفى الماضى كانت أمى قادرة ـ مهما بلغ بنا الفقر ـ على أن تبقى نصف قرش للزهور كلما ذهبت ليلة السبت الى السوق

وكانت تمر بها فترات تلوذ فيها بالصمت والتحفظ . فكان هذا الانعزال عنا يحزننى . اذ كانت تتصرف كضيف علينا أكثر مما تتصرف كأم لنا

وبعد شهر أرادت أن تعود الى لندن . لانها تتلهف الى الاستقرار حتى يكون لنا بيت نعود اليه بعد جولتنا . بالاضافة الى أن ذلك فى رأيها سيكون أكثر اقتصادا فى النفقات من التجول فى الاقاليم ودفع مزيد من أجور الاقامة

وهكذا استأجرت أمى شقة فوق دكان الحلاق فى شارع شستر ، حيث سبق أن أقمنا ذات يوم ، ثم اشترت بالتقسيط أثاثا بعشرة جنيهات ، ولم تكن الحجرات فى اتساع قصر فرساى أو فى فخامته ، ولكن أمى صنعت المعجزات فى غرف النوم بصناديق البرتقال التى كستها بالكريتون وجعلتها تبدو كالمقاعد

كان مجموع دخلنا عندئذ ـ أنا وسيدنى ـ أربعة جنيهات وخمسة شلنات فى الاسبوع ، نرسل منها جنيها وخمسة شلنات الى أمى .. وبعد انتهاء جولتنا الثانية عدنا الى البيت وقضينا عدة أسابيع معها

ومع أننا كنا سعداء بوجودنا معا ، فاننا شعرنا بسرور

خفي عندما غادرنا المكان الى جولة اخرى . فشارع شستر لم يكن فيه ما في مساكن الاقاليم من وسائل الراحة التي صرت انا وسيدني معتادين عليها . وكانت امي ولا شك تدرك ذلك . وعندما جاءت تودعنا في المحطة كانت تبدو مشرقة الى حد كبير ولكننا والقطار يغادر المحطة ، وهي تلوح لنا باسمة بمنديلها ، بدت لنا كأنها محرومة تتمنى أن نظل معها ..

وفي خلال جولتنا الثانية كتبت لنا امي ان لويز التي كنا نعيش معها في شارع كننجتون قد ماتت — وياللسخرية — في ملجأ لامبث .. نفس المكان الذي اودعنا فيه .. فهي لم تعش بعد ابي الا اربعة اعوام ، تاركة طفلها اليتيم الذي ارسل ايضا الى معهد هانويل .. حيث سبق أن ارسلنا نحن ...

وقالت أمي في خطابها أنها زارت الغلام ، وأفهمته من هي ، وكيف أننا — انا وسيدني — كنا نعيش معه ، ومع امه وابيه ، في شارع كننجتون . ولكنه لم يستطع أن يتذكر الا قليلا ، اذ لم يكن قد تجاوز الرابعة في ذلك الوقت . كما انه لم يتذكر أيضا والده . وهو الان في العاشرة من عمره . وقد سجل باسم عائلة والدته ، وليس له — في حدود ما علمت أمي — اي أقارب . ووصفته امي بانه غلام وسيم ، هادئ جدا ، وبانه خجول ومهموم . وقد حملت له معها كيسا من الحلوى ، وبعض البرتقال والتفاح ، ووعدته بأن تزوره بانتظام . وهو وعد أعتقد أنها وفت به الى ان مرضت هي نفسها مرة إخرى ، وأعيدت من جديد الى مصحة « كين هيل »

كانت انباء نكسة امي كالطعنة في القلب . وما عرفنا على الاطلاق اية تفاصيل . فكل ماتلقيناه كان اخطارا

رسميا موجزا بأنهم قد عثروا عليها تتجول ذاهلة فى الطرقات .

ولم يكن هناك ما نفعله سوى أن نتقبل باستسلام مصير أمى المسكينة ، التى لم تسترد عقلها أبدا بعد ذلك بصورة كاملة . وبقيت عدة سنوات سجينة المصحة فى كين هيل ، الى أن صار فى مقدورنا أن ننقلها الى مصحة خاصة ..

على أن آلهة الايذاء تمل احيانا لعبتها ، وتبدى شيئا من الرحمة . وهذا هو ما فعلته مع أمى . فطول السنوات السبع الاخيرة من حياتها عاشت فى جو من الراحة ، محاطة بالزهور وضوء الشمس ، لترى ولديها البالغين يتمتعان بشهرة وثروة تفوق كل ما خطر بخيالها

لم نستطع أن نرى أمى مرة أخرى قبل مضى عدة أسابيع ، بسبب جولتنا مع مسرحية « شرلوك هولمز »

وكان وليم جيليت مؤلف المسرحية قد جاء الى لندن مع « مارى دورو » ليقدم مسرحية كتبها بعنوان « كلاريسا » .. ولكن النقاد هاجموا المسرحية ، وطريقة القاء جيليت .. مما دفعه الى أن يضيف مسرحية من فصل واحد فى أول العرض اسمها « المأزق المؤلم لشرلوك هولمز » لا يقول هو فيها جملة واحدة .. ولم يكن فى المسرحية الا ثلاث شخصيات : امرأة مجنونة ، وشرلوك هولمز ، وغلام خادم ، واذا ببرقية كأنها نبأ من السماء تصل الى من المستر بوستانت ، مدير فرقة جيليت ، يسألنى فيها عما اذا كان يمكننى الحضور الى لندن لامثل دور بيلى مع وليم جيليت فى مسرحيته هذه ذات الفصل الواحد

وتبددت نفسى من فرط اللهفة ، والقلق . فقد كنت اشك فى أن تتمكن فرقتنا من العثور على بديل لدور

بيلى فى الاقاليم خلال مهلة قصيرة كهذه . وظللت عدة أيام يعذبنى القلق ، الى أن عثروا بالفعل على « بيلى » آخر ..

وبينما انا انتظر فى المسرح بدء البروفات ، وقع بصرى للمرة الاولى على مارى دورو .. فى أروع ثياب الصيف البيضاء . يا للهزة المفاجئة لوقوع العين على كل هـذا الجمال فى تلك الساعة ! كانت قد وصلت فى عربة أنيقة ، واكتشفت بقعة حبر فى ثوبها ، فأرادت أن تعرف هل يوجد لدى صاحب المسرح شىء يمكن ان يمحـوها .. فلما أجاب انه يشك فى ذلك ردت بأجمل تعبير عصبى سمعته :

ـ أوه ! أليست هذه وحشية !

***

كان جمالها مدمرا الى حد أننى ضقت بها ! ضقت بشفتيها الرقيقتين المضمومتين ، وأسنانهـا البيضـاء المتسقة ، وذقنها الحلو المعبود ، وشعرها الفـاحم ، وعينيها البنيتين الداكنتين .. ضقت بتظاهرها بالعصبية ، وبالسحر الذى تنفثه وهى تفعل ذلك ! وكانت طوال الوقت الذى قضته تستـجوب المشرف على الملابس لا تشعر على الاطلاق بوجودى ، بالرغـم من أننى أقف بقربها أحملق فيها ، مذهولا بجمالها . كنت قـد بلغت السادسة عشرة من عمرى . واثار اقتراب هذا التألق المفاجىء عزمى على الا ادعه يسيطر على . ولكن ، ياالهى . لقد كان ذلك هو الحب من أول نظرة !

ومع أن النقاد فتنوا بجمال مارى ، الا أنهم قالوا انه لايكفى لاعادة تماسك مسرحية مفككة . فأكمل جيليت بقية موسمه باعادة عرض « شرلوك هولمز » التى احتفظت فيها بدور بيلى ..

وقبل أن ينتهى عرض المسرحية بأسبوعين ، سلمنى المستر ديون بوشيكولت خطاباً يقدمنى فيه الى « مستر ومسز كندال » الذائعى الصيت ، بأمل الحصول على دور لى فى مسرحيتهمـــا الجديدة .. وكانا فى مسرح « سانت جيمس » .. وتحدد لى موعد فى العـــاشرة صباحا لمقابلة السيدة فى مدخل المسرح .. ولكنها تأخرت عشرين دقيقة ، وأخيراً برز أمامى ظل أسود على صفحة ضوء الشارع ! وكان ظل المسز كندال وهى امرأة قوية الشكيمة ، متسلطة ، حيتنى بقولها :

ـ أوه .. أنت الفلاح اذن ! ستقوم عن قريب بجولة فى الاقاليم بمسرحية جديدة .. وكنت أحب أن أسمعك تقرأ الدور أمامى .. ولكننا الآن مشغولون جداً .. فهل يمكنك أن تكون هنا غداً فى نفس هذا الموعد ؟

فأجبت فى جفاء :

ـ آسف يا مدام .. ولكننى لا أستطيع أن أقبل أى عمل خارج المدينة !

ثم رفعت قبعتى . وغادرت المدخل ، واستوقفت عربة مارة في الطريق .. وعشت بلا عمل عشرة أشهر

وفى الليلة التى اختتم فيهـــا عرض شرلوك هولمز فى مسرح « دوق يورك » وكان على مارى دورو أن تعــود بعدها الى امريكا ، انفردت بنفسى وسكرت حتى فقدت الوعى ..

وبانتهاء عرض « هولمز » .. أصبح كل من سيدنى وانا عاطلا . ولكن سيدنى لم يضيع وقتا طويلا فى الحصول على عمل . فبعد اطلاعه على اعلان فى صحيفة « ايرا » المسرحية ، التحق بفرقة شارلى مانون الهزلية المتجولة . وبينما هو يعمل مع فرقة مانون قابله فريد كارنو ووقع

معه عقدا بمرتب قدره أربعة جنيهات فى الاسبوع . ولما كنت أنا أصغر منه بأربع سنوات ، فقد كنت بالنسبة للعمل المسرحى لا فى العير ولا فى النفير .. ولكننى كنت قد ادخرت بعض النقود من عملى فى لندن . وبقيت فيها أثناء عمل سيدنى فى الاقاليم



مارى بيكفورد : قصة الغرام مع دوجلاس فيربانكس

الفصل السادس

الحبّ والمراهقة

* لبست سوالف مستعارة كى أبدو يهوديا

* المتفرجون يقذفوننى بقشر البرتقال

* بينما أنا أمشى منفوخا متعجرفا .. سقط بنطلونى

كنت الآن فى سن المراهقة الشاقة التى لا جاذبيـــة فيها ، وسلوكى متفق مع الطابع النفسى للمراهقين . فأنا ميال الى الطيش والمبالغة ، حالم شارد الذهن ساخط على الحياة . محب لها . وعقلى ما زال يتشكك ، ولكنه يتفجر بانبثاقات مفاجئة من النضج . وفى ممـــر المرايا السحرية هذه كنت أتسكع تائها . وطمـوحى يضرب فى السماء بقفزات عالية .. ولم تكن كلمة « الفن » تخطر ببالى على الاطلاق ، أو ترد فى حديثى .. فالمسرح كان بالنسبة لى رزقا ولا شىء ابعد من ذلك

وحصلت فى النهاية على عمل فى اســــــكتش هزلى « فودفيل » فى سيرك كيزى . وكان العرض فى رأيى تافها . ولكنه كان يتيح لى فرصة التحول الى ممثل هزلى

كان ستة منا ـ أثناء وجود سيرك كيزى فى لنـــدن يقيمون بشارع كننجتون مع المسز فيلدز .. وهى أرملة فى الخامسة والستين . لها ثلاث بنـــــات : فردريكا ، وثيلما ، وفويب .. وكنا جميعا نأكل فى المطبخ . ونمت بيننا وبين العائلة صلة وثيقة . وكانت المرأة العجـوز طيبة القلب ، واسعة الصدر ، لا تكف عن العمل ، وليس لها دخل الا من تأجير الغرف . أما الابنة المتزوجـــة ـ فردريكا ـ فكان ينفق عليها زوجها .. واما ثيلمـا وفويب فكانتا تساعدان فى أعمال المنزل

وكانت فويب جميلة فى الخامسة عشرة ، ذات ملامح

نحيلة مدببة ، ولها جاذبية شديدة بالنسبة لى ، جثمانيا وعاطفيا .. وان كنت قد قاومت الجانب العاطفى لاننى لم أكن قد بلغت السابعة عشرة بعد ، ولم تكن لى غير أسوأ النوايا نحو الفتيات .. على انها كانت فتاة طاهرة ، فلم أفز منها بشىء .. وان كنت قد تعلقت به وصرنا صديقين حميمين

كنت قد بقيت حوالى ثلاثة أشهر بلا عمل ، وسيدنى هو الذى ينفق على ويسدد للمسز فيلدز تكاليف اقامتى وطعامى أربعة عشر شلنا فى الاسبوع . وكان قد أصبح ممثلا هزليا رئيسيا فى فرقة فريد كارنو ، وكثيرا ما حدثه عن أخيه الصغير الموهوب . ولكن كارنو أصم أذنيه ، لانه كان يعتقد اننى أصغر مما ينبغى

وفى ذلك الوقت كان الهزليون اليهود هم الموضة فى لندن. ففكرت فى أن أخفى شبابى وراء سوالف ضخمة.. واعطانى سيدنى جنيهين انفقتهما فى اعداد اغنيات وحوار هزلى مأخوذ من أحد الكتب الفكاهية الامريكية « ميزانية شارع ماريسون » . وقضيت أسابيع اتدرب ، وأمثل أمام عائلة فيلدز .. فكانوا يتابعوننى بانتباه وتشجيع ، ولكن لا شىء أكثر من ذلك

وحصلت على فرصة للعمل أسبوعا دون أجر — على سبيل التجربة — فى موزيكهول فورستر .. وهو مسرح صغير فى شارع « مايل اند » ، فى قلب الحى اليهودى ، وكنت قد لعبت فيه قبل ذلك مع سيرك كيزى ، فرأت الادارة اننى أستحق أن أمنح فرصة . وصار مستقبلى الآن ، وأحلامى كلها ، تتوقف على أسبوع التجربة هذا . فبعد فورستر أستطيع أن ألعب كافة الاسكتشات الذائعة فى لندن . ومن يدرى ؟ قد يصعد نجمى خلال عام واحد فأصبح من أكبر الاسماء فى عالم الفودفيل . ووعدت

غائلة فيلدز جميعا بتذاكر قرب نهاية الاسبوع ، عنـدما أكون قد أتقنت تماما دورى

وقالت فويب :

ـ أظن أنك لن تريد البقاء معنا بعد نجاحك

فأجبت فى لهجة السخى الكريم :

ـ بالطبع سأبقى ..

وفى الثانية عشرة من ظهر الاثنين كانت تجرى بروفات الفرقة الموسيقية والاغنيـــات .. الخ . فقمت بدورى بحذق المحترف . ولكننى لم افكر بما فيه الكفاية فى أمر الماكياج . اذ لم يكن رأيى قد استقر بعد على الصورة التى ينبغى أن أظهر بها

وفى ليلة العرض ظللت ساعات فى حجرة الملابس أجرب أشكالا مختلفة .. ولكننى لم أســــتطع ـ على قدر ما استخدمت من الشعر المستعار ـ أن أخفى صـــغر سنى ..

وبرغم أننى كنت حسن النيـــــة ، فان نمرتى كانت مسرفة فى معـــاداة اليهود . ولم تكن فكاهاتى قديمة فقط ، وانما مفتعلة أيضا كلهجتى اليهودية .. وبالاضافة الى ذلك فاننى لم أكن أبعث على الضحك ..

وما كدت أفرغ من القاء أول نكتتين حتى بدأ المتفرجون يقذفوننى بقشر البرتقال والعملات ، ويدقون بأرجلهم على الارض ، ويطلقون صيحات التســـخيف . ولم أتنبه فى البداية الى ما يجرى . ولكن حقيقة الموقف الرهيب تسربت الى وعيى تدريجا . وبدأت أتعجل ، وأتكلم أسرع فأسرع كلما تزايد الهرج والقذف بقشر البرتقال والعمـــلات . وعندما غادرت خشبة المسرح لم أنتظر لاسمع حكم المدير . وانما مضيت رأســـا الى غرفة الملابس ، وتخلصت من

الماكياج ، ثم غادرت المسرح ولم أعد اليه أبدا .. ولا حتى لكى أسترد كراساتى الموسيقية

وكانت ساعة متأخرة من الليل عندما عدت الى البيت فى شارع كننجتون . وكانت عائلة فيلدز كلها نائمة ، فحمدت الله على ذلك . وفى الصباح كانت مسز فيلدز ـ على مائدة الافطار ـ متلهفة لسماع أنباء الحفلة . فتظاهرت بعدم الاكتراث وقلت :

ـ لا بأس ! ولكن النمرة تحتاج الى بعض التعديلات :

وقالت مسز فيلدز أن فويب قد ذهبت ورأتنى ،ولكنها لم تقل لهم شيئا لانها كانت متعبة جدا ، وتريد أن تنام . وعندما قابلت فويب فيما بعد لم تشر الى الموضوع ،لاهى ولا أنا . كذلك لم تشر اليه المسز فيلدز ولا أى فرد آخر من العائلة ، ولم يبد أحد منهم أية دهشة لعدم اتمام بقية الاسبوع

***

وكان سيدنى فى الاقاليم ولله الحمد : فلم يكن على أن أتجرع مرارة اخباره بما حدث . ولكنه لا شك قد استنتج الحقيقة ، أو اخبرته بها عائلة فليدز ، لانه لم يسألنى أبدا عنه. وقد بذلت أقصى مافى وسعى لكى أزيح عن ذهنى رعب تلك الليلة ، ولكنها خلفت أثرا لا يمحى على ثقتى بنفسى . فقد علمتنى تلك التجربة الرهيبة أن أرى نفسى فى ضوء أصدق . وتحققت من اننى لست ممثلا فودفيليا ، ولا أملك قدرة هذا الممثل على أزالة الكلفة ، ومصادقة الجمهور . وعزيت نفسى باننى من ممثلى النماذج « الكاراكتر »

وبعد شهر من فشلى فى مسرح فورستر ، اخبرنى سيدنى ان مستر كارنو يريد ان يرانى . ويبدو انه كان

غير راض عن أحد الممثلين فى دور يقوم به أمام مستر هارى ويلدون فى « مباراة الكرة » ٠٠ وهو من انجح اسكتشات كارنو ٠ وكان ويلدون من اشهر الممثلين الذين احتفظوا بشعبيتهم حتى اخر ايام حياتهم فى الثلاثينيات

كان مستر كارنو رجلا برونزيا صغير الحجم ، ممتلىء الجسم ، له عينان لامعتان ، فاحصتان دائما ٠ وكان قد بدأ حياته بهلوانا على المتوازيين ، ثم ضم اليه ثلاثة من المهرجين ٠ وصار هذا الرباعى نواة اسكتشاته الهزلية الصامتة ٠ وكان هو نفسه ممثلا رائعا ، وابتدع كثيرا من الادوار الهزلية ٠ وظل يمثل حتى بعد أن صار يملك خمس فرق اخرى

وكان بيت المستر كارنو فى طريق « كولدهاربر » بحى كامبرويل ، وقد الحق به مخزنا لايداع المناظر الخاصة ببرامجه العشرين ٠ كما ان مكتبه ايضا كان هنـــــاك ٠ وعندما وصلت استقبلنى بروح ودية ، وقال لى :

ــ لقد حدثنى سيدنى طويلا عن مقدرتك ٠ فهل تظن انك تستطيع أن تمثل أمام هارى ويلدون فى «مباراة الكرة» ؟

وكان هارى ويلدون يتعاقد على مرتب غير عادى ٣٤ جنيها فى الاسبوع ٠

قلت فى ثقة :

ــ كل ما احتاج اليه هو الحصول على الفرصة

فابتسم :

ــ ان السابعة عشرة سن صغيرة ٠ بل انك لتبــــدو أصغر ٠٠

فهززت كتفى باستخفاف وقلت :

ــ هذه مسألة ماكياج !

فضحك كارنو ٠ وكانت هزة كتفى هذه ــ كما صارح

يميدنى فيما بعد ـ هى التى جعلتنى احصل على الوظيفة ثم قال لى :

ــ جميل .. جميل .. سنرى ماذا تستطيع أن تفعل ..

وتقرر أن يكون تعاقدنا لمدة اسبوعين على سبيل التجربة ، فى مقابل ثلاثة جنيهات ونصف جنيه فى الاسبوع .. فاذا كان ادائى مرضيا حصلت على عقد لمدة سنة ..

كان امامى اسبوع لدراسة دورى قبل الافتتاح فى « لندن كوليزيوم » . وطلب منى كارنو ان اذهب الى مسرح « شبرد بوش امباير » حيث كانت تعرض « مباراة الكرة » لاراقب الرجل الذى سألعب دوره .. والحق انه كان سمجا ، غير مندمج فى دوره ، واننى ـ دون تواضع كاذب ـ عرفت انى سأقهره

كان الدور يحتاج الى تهريج اكثر ، فقررت ان أؤديه بهذه الطريقة . ولكنهم لم يتيحوا لى أن أقدمه بغير بروفتين لان مستر ويلدون لم يكن لديه وقت لغيرهما . بل الحقيقة أنه ضاق بمجرد الحضور ، لانه كان يتعارض مع الموعد الذى اعتاد ان يلعب فيه مباراة الجولف

ولم أكن فى البروفات ملفتا للنظر . ولما كنت بطيئا فى القراءة فقد احسست ان لدى ويلدون بعض التحفظات على صلاحيتى . ولو كان سيدنى موجودا فى لندن لكان محتملا ان يساعدنى ، لانه سبق ان ادى نفس الدور . ولكنه كان يمثل فى الاقاليم فى اسكتش اخر

وبالرغم من أن « مباراة الكرة » كانت مسرحية تهريجية صارخة ، فانها لم تكن تستثير ضحكة واحدة الا بعد ظهور ويلدون . فكل شىء كان يمهد لدخوله . ولما

كان ممثلا رائعا • فقد كان بالطبع يبقى على الجمهور فى حالة ضحك مستمر منذ اللحظة التى يدخل فيها

وفى ليلة الافتتاح فى الكوليزيوم كانت اعصـــابى مشدودة كزمبلك الساعة • فتلك الليلـــة كانت تعنى استعادة ثقتى بنفسى ، ومحو عار تلك المحنـــة التى تعرضت لها فى مسرح « فورستر » • ولذا ظللت امشى جيئة وذهابا وراء المسرح الضخم ، أدعو الله فيما بينى وبين نفسى ، والقلق فى صدرى يركب الخوف

ثم عزفت الموسيقى ! ثم ارتفع الستار ! وعلى المسرح كانت فرقة من عشرة منشدين يتـدربون ، لم يلبثوا ان غادروا المسرح وتركوه خاليا . وكانت هـذه هى اللحظة التى أدخل فيها ، فدخلت وانا فى حالة من الفـــوضى النفسية ، والانسان فى مثل هذه الاحوال أما أن يرتفع الى مستوى الموقف او يستسلم له • ففى اللحظة التى دخلت فيها المسرح انزاح عنى العبء • وبـــدا كل شىء واضحا أمامى • دخلت بظهرى الى المتفرجين ــ وكان هذا ارتجالا من جانبى •• ومن الظهر كنت ابدو على ما يرام ، مرتديا بدلة الفراك ، والقبعة العالية ، والعصا ، وغطاء الحذاء ــ نموذجا للشرير فى عهد الملك ادوارد ، ثم درت حول نفسى كاشفا عن انفى الاحمر • فضحك الناس • وضيقت هذه الضحكة المسافة بينى وبينهم • ثم هززت كتفى ، ثم طرقعت اصابعى ، قبل ان امشى عبر المسرح متعثرا فى احد الاثقال الحديدية « الدامبلز » • ثم اصطدمت عصاى بكيس يتدلى فوقى من الطراز الذى يتدرب عليـــه الملاكمون ، فأجابنى بصفعة فى الوجه • فترنحت وملت بجســـمى ضاربا جانب رأسى بالعصا •• وماج الجمهور بالضحكات وبعد قليل هدات أعصابى، وتدفقت قدرتى على الابداع ••

وكان فى امكانى أن أبقيهم خمس دقائق فى ضحكمتواصل دون أن أنطق بكلمة . وبينما أنا أمشى منفوخا متعجرفا ، بدأ بنطلونى ينسدل . أو انقطع أحد ازراره . فبدأت أبحث عن هذا الزرار . والتقطت من الارض شيئا وهميا، ثم قذفت به بعيدا فى تقزز وأنا أقول :

ـ تلك الارانب القذرة !

فكانت ضحكة أخرى

وبدأ فى الكواليس وجه هارى ويلدون وهو يدور حول المسرح كما يدور القمر . فالعادة أنه لم تكن ترتفـــع على اطلاق ضحكة واحدة قبل دخوله ..

وعندما أسدل الستار كنت أعرف أننى أجـــــدت . وصافحنى عدد من أعضاء الفرقة وهنأونى . وفى طريقى الى غرفة الملابس نظر لى ويلدون من فوق كتفه وقال فى برود :

ـ أحسنت . شىء جميل !

وفى تلك الليلة عدت الى البيت مشيا على الاقدام لارخى أعصابى المشدودة . وفى الطريق وقفت مستندا بذراعى الى حاجز كوبرى وستمنستر ، أراقب الميـــاه الحريرية الداكنـــــة وهى تمر من تحته . كنت أريد أن أبكى من الفرح ، ولكننى لم أستطع . وظللت « أحزق » وأعتصر عينى ، فلم تنسكب منهما دمعة واحدة . كنت أجوف من الداخل . ومن كوبرى وستمنستر مشيت الى « الفيـــل والقلعة »حيث عرجت على مقهى هناك لاتناول فنجانا من الشاى . وأحسست بالحاجة الى أن أخاطب أى انسان .. ولكن سيدنى كان فى الاقاليم . ليته كان هنا لاحدثه عن الليلة ، وماذا تعنى بالنسبة لى ، خاصـــــة بعد مسرح فورستر !

ووجدت نفسى لا أرغب فى النوم . فمشيت من «الفيل والقلعة » الى بوابة كننجتون ، وتناولت فنجانا آخر من الشاى . وظللت طوال الطريق أضـــحك وأكلم نفسى . وبلغت الساعة الخامسة صباحا قبل أن يصيبنى الارهاق وأذهب الى فراشى

ولم يكن مستر كارنو حاضرا فى الليلة الاولى . ولكنه جاء فى الليلة الثالثة ، وفيها استقبل الجمهور دخـــولى الى المسرح بالتصفيق .. فجاء بعـــد العـــرض تسبقه ابتساماته ، وطلب منى أن أحضر الى مكتبه فى الصــباح وأوقع العقد

وكنت لم أكتب لسيدنى عن الليـــلة الاولى . ولكننى ارسلت له الآن برقية موجزة : « وقعت عقدا لمدة عام بأربعة جنيهات أسبوعيا ، مع حبى . شارلى »

كانت الشخصية الهزلية التى يؤديها ويلـــدون من طراز صفيق : شخصية رجل أحمق ثقيل اللســـــان . وكانت هذه الشخصية ناجحة تماما فى شمال انجلترا . ولكنها فى الجنوب لم تستقبل كما ينبغى . وكانت مدن برستول، وكارديف، وبليموث ، وساوثهامبتون ، مواقع فشل بالنسبة له :

فظل طول تلك الاسابيع ضيق الصدر يقـــوم بدوره كأداء واجب ويصب جام غضبه على رأسى

وكان الدور يتضمن أن يصفعنى ويطرحنى أرضـــا أكثر من مرة ، بطريقة نسميها « ســـحب الكارت » .. ومعناها ان يتظاهر بأنه يصفعنى ، بينما يصفق أحدهـــم فى الكواليس للايهام بأنها صفعة حقيقية . لكن ويلدون كان فى بعض الاحيان يصفعنى بالفعل ، وبعنف لا ضرورة له ، مدفوعا فيما أعتقد بدافع الغيرة

ثم تطور الامر في « بلفاست » الى خصومة صريحة . اذ رسم النقاد صورة مريعة لاداء ويلدون ، بينما أثنـــوا على ادائي . فكان هذا فوق ما يحتمل ويلدون . وفزت منه فى تلك الليلة على المسرح بقلم مـــوزون أيقظنى من أندماجي فى التمثيل ، وجعل الـدم ينزف من أنفى .. وقلت له ـ فيما بعد ـ انه اذا فعل ذلك مرة أخـرى فسوف أهشم رأسه بأحد الاثقال الحديدية الموجـــودة على المسرح . ثم اضفت انه اذا كان يشعر بالغيرة فيجب الا ينفث عنها على حسابى ..

فصاح بازدراء ونحن فى طريقنا الى غرفة الملابس :

ـ الغيرة منك أنت ! ماذا .. ! ان فى « ... » من المواهب أكثر مما فى جسمك كله !

فرددت عليه :

ـ حقا .. أنها المكان الذى تكمن فيه كل مواهبك !

ثم أغلقت على الفور باب حجرة الملابس !

***

الحب عند الشباب يجرى غالبا على نسق واحـد : نظرة عابرة ، ثم كلمات قليلة « غبية في العادة » يتغير بسببها وجه الحياة كله ، وتحنو الطبيعة علينا فتكشف لنا فجأة عن متعها الخفية وهذا هو ما حدث لى.

كنت على أبواب التاسعة عشرة ، وممثلا ناجحا فىفرقة كارنو . ولكن شيئا ما كان ينقصنى . لقد جاء ربيع وذهب ، ثم أقبل الصيف على ومعه الفـراغ ، وبرنامجى اليومى يتكرر كما هو وكل ما يحيـــط بى كئيب . أما المستقبل فلا أرى فيه غير حيـــاة عادية بين اناس عاديين يعلوهم الصدأ . وليس مما يسر الانسان أن يكون شغله الشاغل انتزاع اللقمة يوما بيوم . فالحياة مهمة شاقة ،

ولا سحر فيها • وبدأ يسيطر على الاسى والسخط ، وأتجول منفردا بنفسى فى أيام الاحاد ، أنصت الى فرق الموسيقى فى الحدائق وأخيرا حدث بالطبع الشىء المتوقع: أصابنى سهم الغرام !

كنا فى ذلك الوقت نمثل فى « سترتهام امباير » ، وذهبنا مبكرين حتى نتمكن من الذهاب بعد ذلك الى مسرح « موزيكهول كانتربرى » ، ثم الى « التريفولى » • وعندما بدأنا العمل كان ضوء النهار ، مازال قائما ، والحر يكتم الانفاس ، ومسرح « سترتهام امباير » نصف خال من المتفرجين •• الامر الذى لم يكن من شأنه ـ بالمناسبة ـ أن يخفف عنى الاسى الذى أشعر به

وكانت تظهر قبلنا على المسرح فرقة غنائية راقصة اسمها « فرقة برت كادنس لفتيات اليانكى وورل »وكنت لا أكاد أتنبه الى وجودها • ولكن حدث فى الليلة الثانية للعرض ـ وأنا واقف فى الكواليس شارد الذهن غير مكترث ـ أن انزلقت احدى الفتيات أثناء الرقص وسقطت على الارض ، فبدأت الاخريات يضحكن ، والتفتت احداهن تنظر لى لترى ما اذا كنت أنا أيضا استمتع بالنكتة •• فوجدت نفسى فجأة أسير عينين واسعتين ، بنيتى اللون ، تلمعان بخبث •• يصوبهما نحوى ظبى رشيق الجسم ، بيضاوى الوجه ، وسيم الملامح ، شفتاه ساحرتان ممتلئتان وأسنانه رائعة

وأصابنى مس من الكهرباء !

وعندما غادرت الفتاة المسرح سألتنى أن أمسك لها بالمرآة ريثما تسوى شعرها • فمنحتنى بذلك فرصة أتأملها فيها • وكانت هذه هى البداية ، فما حل يوم

الاربعاء الا وسألتها ان كان ممكنا أن نتقابل يوم الاحد • فوعدتنى بأن تلقانى عند بوابة كننجتون فى الساعة الرابعة مساء

كان يوما رائعا من أيام الصيف ، والشمس متألقة طوال الوقت . ارتديت حلة سوداء محبوكة باتقان عند الخصر ، وربطة عنق سوداء أيضا ، وحملت عصا من الابنوس الاسود كذلك • وقبل الرابعة بعشر دقائق كنت أقف ـ وكل أعصابى مشدودة ـ أراقب الركاب وهم يهبطون من عربات الترام • وتذكرت وأنا أنتظر أننى لم أرها بغير ماكياج ، وغامت فى ذهنى ملامحها ، فلم أستطع على قدر ما حاولت أن أتذكرها . وبدأ شيء من الخوف يستحوذ على • لعل جمالها لم يكن الا خدعة ! لعله مجرد وهم ! وأصبحت كل فتاة عادية تهبط من الترام تسببلى احساسا مريرا باليأس • ترى هل سيخيب أملى ؟ هل غرر بى خيالى ، أو أصباغ المسرح الصناعية ؟

وقبل الرابعة بثلاث دقائق هبطت واحدة من الترام واتجهت نحوى • فغاص قلبى • كانت ملامحها تخيب الامل . وكان يبعث على الندم مجرد التفكير فى قضاء الامسية كلها معها •• متظاهرا بالسرور والحماسة • على اننى ما كدت ارفع قبعتى وابتسم لها حتى حدجتنى بنظرة استنكار ومضت فى طريقها • حمدا لله ! انها لم تكن هى

ثم هبطت من الترام ـ بعد الرابعة بدقيقة واحدة بالضبط ـ فتاة شابة أقبلت نحوى مباشرة ثم وقفت أمامى • كان وجهها خاليا من الاصباغ ، وأجمل من أى وقت آخر • وكانت ترتدى قبعة بسيطة كقبعات البحارة ، وجاكتة قصيرة زرقاء ذات أزرار نحاسية ، وتضع يديها داخل جيوب المعطف • وقالت ببساطة :

ـ ها أنذا ..

فبلغ من ارتبـــاكى أننى كدت لا أقوى على الكلام . واستبد بى الانفعال . ولم أستطع أن أفكر فى شىء أقوله أو أفعله .. وغمغمت فى صــــوت متحشرج وأنا أبحث بعينى فى طول الشارع وعرضه :

ثم التفت اليها قائلا :

ـ أين تحبين ان تذهب ؟

فهزت كتفيها قائلة :

ـ اى مكان

ـ فلنذهب اذن الى «فوست اند» نتناول الطعام..

قالت بهدوء :

ـ لقد تناولت طعامى

فقلت :

ـ سنبحث هذا الامر فى التاكسى !

وكانت حدة انفعالى ولا شك تذهلها فقد ظللت أكرر طول الوقت ونحن فى التاكسى :

ـ أعلم اننى سأندم على ذلك .. فأنت أجمل مايجب!

وعبثا حاولت أن أكون ظريفا ، حتى أؤثر فى نفسها . وكنت قد سحبت من البنك ثلاثة جنيهات ، وانتويت أن أذهب بها الى « التروكاديرد » .. حيث يمكن فى جــــو الموسيقى والشياكة الناعمة أن ترانى وهى واقعة تحت أبلغ مؤثرات رومانتيكية ممكنـــــة . كنت أريد أن أدير رأسها وأفقدها التوازن . ولكنها ظلت باردة النظرات ، مندهشة بعض الشىء ، فى مواجهة كل ما ألفظ به .وخاصة قولى انها تمثل بالنسبة لى « نميسيس » .. وهى كلمـة كنت قد تعلمتها أخيرا

ولكن ما كان أقل ادراكها لما يعنيه الامر بالنسبة لي !
لم يكن الجنس هو المسألة ، وانما كان الاهم صحبتها .
فالجمال والذوق الرفيع كان العثور عليهما في مثل مركزي
امرا نادرا

وكان تناول الطعام محنة حقيقية ، اذ لم أكن واثقا
بأية أداة من أدوات المائدة أتناوله . ولكنني تحايلت على
الوجبة بروح المرح والاستخفاف ، حتى أثناء استخدامي
عرضا لاناء غسل الاصابع . وان كنت اظن أننا ـ كلانا ـ
كنا سعيدين بمغادرة المطعم

في تلك الليلة سرنا على شاطيء التيمز ، ومضت « هيتي
كيلي » تتحدث في أشياء طريفة ، ومسائل لا اهمية لها
.. وأنا لا أكاد أعي ما تقول . كان كل ما أعلمه أنها ليلة
تفيض بالنشوة ، وأنني أسير في الفردوس ..

وبعد أن تركتني عدت مرة أخرى الى الشاطيء ـ
مسحورا ! وفي داخلي كان يشع ضوء رقيق ، ورغبة حارة
في فعل الخير . ووزعت على المتشردين النائمين على شاطيء
التيمز ما بقي من جنيهاتي الثلاثة ..

وكنا قد تواعدنا على اللقاء في السابعة من صباح اليوم
التالي ، لانها كانت مرتبطة ببروفات في الثامنة في مكان
ما في شارع شانتسبري . وكانت المسافة حوالي ميل
ونصف ميل من بيتها الى محطة المترو في شارع كوبري
وستمنستر . وبالرغم من أنني كنت أعمل الى ساعة
متأخرة ، ولا أنام على الاطلاق قبل الثانية صباحا .. فانني
صحوت عند الفجر من أجل أن ألقاها ..

***

أصبح لشارع « كامبرويل » الآن سحر خاص ، لان
هيتي كيلي تقيم فيه .. وكانت المسافة التي نقطعها كل

صباح الى محطة المترو وأيدينا متشابكة ، جنة من السعادة الممتزجة بأحلام غامضة • والشارع الذى كان كالحــــا يبعث على الضيق ، والذى كانت عادتى أن أتجنب السير فيه ، صارت له الان فتنة خاصة وأنا أمشى فيه فىضباب الصباح المبكر ، وأنبض بالانفعال حين يبدو من بعيدقوام كيلى مقبلة نحوى

وما كنت أتذكر على الاطلاق شيئا مما تقــــول أثناء سيرنا معا • فقد كان يستحوذ على تفكيرى الاحساس بأن هناك قوة غامضة هى التى جمعتنا معا

ودام الحال كذلك ثلاث فترات صباحية ! ثلاث فترات قصيرة ، كل منها تمحو بقية اليوم من الوجود ، الى أن يحين الصباح التالى

ولكن سلوكها ــ فى اليوم الرابع ــ بدأ يتغـــير • اذ استقبلتنى ببرود ، وبلا حماس ، وأبت أن أمسك بيدها• فلمتها على ذلك ، واتهمتها مازحا بأنها لا تحبنى

واذا بها تقول :

ــ أنت تطلب أكثر مما ينبغى • ثم اننى لم أتجـــاوز الخامسة عشرة ، وأنت تكبرنى بأربع سنوات

فلم أفهم بالضـــــبط مغزى هذه الملاحظة ولكننى لم أستطع أن أتجاهل المسافة التى وضعتها فجأة بيننا وهى تمشى ناظرة أمامها باعتداد ، وبخطى كفتيات المدارس ، ويداها فى جيب معطفها ••

وقلت لها :

ــ معنى هذا أنك حقا لا تحبيننى

فأجابت :

ــ لست أدرى

فذهلت وقلت لها :

ـ اذا كنت لا تعلمين ، فأنت لا تحبينني ..

ولكنها لم تجب بغير الصمت

ومضيت مستطردا فى لهجة مازحة :

ـ أرأيت كما أنا ملهم ؟ لقد قلت لك أننى سأسف على انى عرفتك

وحاولت بجد أن أنقب فى تفكيرها لافهم مدى شعورها نحوى . ولكنها ظلت تجيب على كل أسئلتى :

ـ لست أدرى !

وعندئذ داهمتها :

ـ هل تقبلين الزواج منى ؟

ـ اننى مازلت صغيرة

ـ حسنا . افترضى أنك أرغمت على الزواج ، فهــل تختارينني أم تختارين غيرى ؟

فلم تحسم بشىء . وظلت تكرر :

ـ لا أعلم .. اننى أميل اليك .. ولكن ..

ثم سكتت

وكان الصباح مثقلا بالضباب . والشوارع تبدو كئيبة تخنق الانفاس

وكنا قد وصلنا الى مدخل محطة المترو ، فقلت بلهجة خشنة :

ـ يبدو أننى سمحت لعلاقتنا بأن تتمادى الى أكثر مما يجب . وأظن أن الافضل هو أن نفترق الان ، ولا يعــود أحدنا يرى الآخر بعد ذلك

قلت هذا وأنا أتساءل كيف ســيكون رد الفعل من جانبها ، واذا بشىء من الحزن يبدو عليها

فأمسكت بيدها ورحت أربت عليها برفق وحنـــان وقلت : . .

ـ الوداع ٠ من الافضل أن نفترق هكذا ٠ لقـد كان لك أثر كبير على

قالت :

ـ الوداع ٠ انى آسفة !

وصدمتنى كلمة الاعتذار الاخيرة صـــدمة قاتلة ٠ وشعرت بفراغ لم أستطع أن أحتمله وهى تتركنى لتختفى فى ممر المترو

ماذا أفعل الان ؟ لو اننى استطعت أن أغرق هذا الألم الذهنى فى النوم حتى أراها ثانية لهان الامــر ! لابد أن أبتعد عنها مهما كان الثمن الى أن تطلب هى مقـابلتى ٠ لعلنى كنت خشنا أكثر من اللازم ٠ لعلنى كنت متوترا أكثر مما يجب ٠ لابد أن أكون أكثر مرحا وتقربا اليهـا عندما نلتقى فى المرة القادمة ٠ ولكن هل ســتحاول أن ترانى مرة ثانية ؟ بكل تأكيد ! انها لن تســتطيع أن تفصلنى من حياتها بهذه السهولة !

وفى صباح اليوم التالى لم أستطع أن أقاوم قدمى وهما تقودانني الى شارع كامبرويل ٠٠ ولكننى لم أعثر عليها وانما عثرت على والدتها !

الفصل السابع

باريس ..! باريس ..!

* لا أريد أن أتزوج أية فتاة
* شبح الفشل يطاردنى ..
* شابلن ؟.. انه يثير الاشمئزاز ..

كانت والدة الفتاة ، ولكن معرفتى ازدادت بها فيما بعد ، فقد كانت تقيم فى نفس الفندق الذى اقيم فيه مع اختيها الراقصتين فى باليه (الفولى بريجير) . وكانت الصغرى فى الثالثة عشرة من عمرها ، (وراقصة أولى) غاية فى الجمال والموهبة ، أما الكبرى ففى الخامسة عشرة ولا تمتاز بموهبة أو جمال . وكانت الام فرنسية سمينة فى حوالى الاربعين ،متزوجة من اسكتلندى يعيش فى انجلترا ، وبعد ان بدأنا العمل فى الفولى بريجير جاءت واعتذرت عن فظاظتها ، فكانت هذه المناسبة بداية لعلاقة صداقة قوية ، وكنت كثيرا ما أدعى لتناول الشاى فى حجرة نومهن

وعندما استعيد هذه الذكرى أشعر اننى كنت فى غاية البراءة . ففى احدى الامسيات بعد أن نامت الفتاتان وأصبحت أنا والام وحيدين ، لاحظت أن سلوكها أصبح غريبا للغاية . وان يدها ترتجف وهى تصب الشاى بينما أنا أتحدث عن آمالى وأحلامى وما شعرت به من حب وما منيت به من اخفاق

وأثارها حديثى .. فلما نهضت لاضع قدح الشاى على المائدة اقبلت نحوى ، وقالت وهى تمسك وجهى بين راحتيها وتنظر فى عينى بعمق :

ــ كم أنت عذب ! ان صبيا مليحا مثلك لا ينبغى أن يصاب بأى أذى

وأصبحت نظراتها حادة غريبة ، وارتعش صـــوتها وهى تقول :

ـ هل تعرف أنى أحبك كابن ..؟

وكانت ما تزال قابضة على وجهى براحتيهـا ثم بدأ وجهها يقترب فى بطء نحوى وقبلتنى

فشكرتها باخلاص ، وقبلتها ببراءة ولكنها استمرت تحدق فى عينى بنظراتها وشفتاها ترتعشـان وعيناها تلمعان ، ثم استرجعت نفسها فجـأة وذهبت تصب لنفسها قدحا من الشاى ، وتغير حانها وبدأ صوتهـا يحمل رنة جديدة من المرح وقالت :

ـ يا لعذوبتك !!.. اننى أحبك كثيرا

وبدأت تسر لى بأخبار ابنتيها ..

ـ أن الصغيرة فتاة طيبة جدا ، أمـا الكبرى فتجب مراقبتها جيدا . انها بدأت تصبح مشكلة

واعتادت السيدة ان تدعونى بعد انتهاء العرض لتناول العشاء فى حجرة نومها الواسعة التى تنام فيها مع ابنتها الصغرى . وقبل عودتى الى حجـرتى كنت أقبل الام والابنة الصغرى قبلة المساء . وكنت أعبر أثناء عـودتى الى الحجرة الصغيرة التى تنام فيها الابنـة الكبرى ...

وذات ليلة ـ أثناء مرورى بتلك الحجرة ـ اشـارت الابنة الكبرى وهمست فى اذنى قائلة :

ـ اترك بابك مفتوحا فساحضر اليك بعد ان تنـام الاسرة

وسواء صدقتم أو لم تصدقوا ، فقد القيت بها فوق فراشها فى اشمئزاز وغادرت الحجرة متثاقل الخطى . وسمعت ، بعد انتهاء عقدهم مع الفولى برجير ان الابنة الكبرى لا تزال فى الخامسة عشرة من عمرها وانها هربت

مع مدرب للكلاب ، المانى بدين فى الستين من العمر

وجاءنى المترجم ذات ليلة وقال لى ان موسيقيا مشهورا يريد مقابلتى فهل اذهب اليه فى مقصورته ؟ وكانت الدعوة لطيفة سارة ، اذ كانت معه فى المقصورة سيدة اجنبية من اجمل النساء ، وعضو فى الباليه الروسى .. وقدمنى اليها المترجم .. وقال السيد انه استمتع بتمثيلى ودهش لصغر سنى • وانحنيت فى ادب امام هذه المجاملات وانا استرق النظرات الخاطفة الى صديقته

وقال الرجل :

ـ انك موسيقى وراقص بالفطرة . فشعرت بأنه ليس ثمة رد على هذه التحية افضل من ابتسامة لطيفة حلوة. ونظرت الى المترجم وانحنيت فى ادب . ثم وقف الموسيقى ومد يده ، فوقفت وقلت له :

ـ انا ايضا

وقال وهو يصافحنى :

ـ نعم انت فنان !

وبعد أن غادرنا المقصورة التفت للمترجم وقلت له :

ـ من هذه السيدة التى معه ؟

فأجاب :

ـ انها راقصة باليه اسمها (...)

عندئذ شعرت بأن نجمى فى صعود .خاصة اننا كنا ـ فوق ذلك ـ سنبدأ موسمنا فى مسرح اوكسفورد ، اهم قاعة للموسيقى فى لندن وسألعب الدور الرئيسى ، وسينشر اسمى لاول مرة فى راس القائمة . وهذا ولا شك خطوة كبيرة

غير اننى أصبت فى (البروفة) الاولى بالتهاب فى

الحنجرة . وبذلت كل ما فى استطاعتى لانقاذ صـوتى ، فكنت أتحدث فى همس،واستنشق الابخرة المطهرة وارش حلقى بالمطهرات حتى سلبنى القلق كل شعور بما فى دورى من خصوبة ، وكوميدية

وفى ليلة الافتتاح كان كل شريان وكـل حبـل فى حنجرتى متوترا بسبب الرغبة فى الثأر . ولكن صـوتى لم يكن مسموعا . وجاء الى كارنو بعد ذلك وعلى وجهـه تعبير يجمع بين خيبة الامل والاحتقار . وقال لى فى لهجة تأنيب :

ــ ان أحدا لم يسمعك

فأكدت له انصوتي سيكون فيحالة أفضل فى الليلة التالية ، ولكنه لم يكن كذلك . بل الحقيقة أنه كانأسوأ، وبلغ درجة كنت فيها مهددا بأن أفقده تماما . ونتيجـة لهذا الغى العقد بعد الاسبوع الاول ، وانهارت كل آمالى واحلامى التى وضعتها فى هذا العقد فى أوكسـفورد ، وأدت خيبة الامل فى اصابتى بالانفلونزا

لم أكن قد رأيت هيتى منذ أكثر من عام . وفى حالة الضعف والكآبة التى اصبحت فيها بعد الانفلونزا بدأت أفكر فيهـا مرة أخرى ، ورحت أتجول ذات ليـلة نى فى اتجاه منزلها فى كامبرويل ولكن المنزل كان خاليـا وعليه لافتة كتب عليها (للايجار)

وظللت أتجول فى الشوارع بلا هدف محدد . وفجـأة برز من وسط الظلام شبح عبر الطريق واقبل نحوى :

ــ شارلى ، ماذا تصنع هنا ؟

كانت هى ..

وكانت ترتدى معطفا أسود وقبعة

وقلت مازحا : جئت لمقابلتك

فابتسمت قائلة : انك نحيف جداً
فقلت لها :
ــ انني شفيت لتوى من الانفلونزا ..
كانت الان فى السابعة عشرة من عمرها ، جميلة وأنيقة . وقلت لها :
ــ السؤال هو ماذا تفعلين أنت هنا ؟
فأجابت :
ــ كنت أزور احدى صديقاتى . وأنا الآن ذاهبة الى منزل شقيقى . أتريد أن تأتى معى ؟
وفى الطريق روت لى ان شـــقيقتها تزوجت مليونيرا امريكيا يدعى فرانك جولد ، وتعيش فى نيس ، وانهـــا ستغادر لندن فى الصباح لتلحق بشقيقتها وزوجها
وفى تلك الليلة وقفت أرقبها وهى ترقص فى دلال مـــع شقيقها . كانت تتصرف فى حماقة ، وتتصنع الاغراء مع شقيقها .. وعلى الرغم منى لم أســـــتطع أن أتجنب شعورا بأن ولعى بها قد تضاءل قليلا . هل أصبحت فتاة عادية كأية فتاة أخرى ؟ وأصابنى هذا التفكير بشـــعور من الحزن
كان جسمها قد نما ، ولكنى لاحظت أن بروز صدرها صغير وليس فيه اغراء . هـــل أتزوجها حتى لو كنت استطيع ذلك ؟ كلا ، لا أريد أن أتزوج أية فتاة
ولا بد اننى وانا اسير معها فى الطـريق الى المنزل فى تلك الليلة الباردة الصافية ، كنت اتكلم بطريقة موضوعية تبعث على الاسى حينما حدثتها عن احتمالات تمتعها بحياة سعيدة رائعة . فلقد قالت لى :
ــ انك تبدو مليئا بالامانى ، اننى أكاد ابكى
وفى تلك الليلة عدت الى منزلى وأنا اشعر بالانتصار ،

ذلك اننى استطعت أن أحركها بحزنى وان أجعلها تشعر بشخصيتى

***

أعادنى كارنو الى التمثيل الصامت « تحنيط الطيور » والعجيب اننى لم استغرق أكثر من شهر واحد كى استعيد صوتى تماما وبرغم أن خيبة أملى بسبب « مباراة الكرة » كانت بالغة ، فاننى لم ألق بالا الى المسألة . وان كنت قد وقعت تحت تأثير فكرة مسيطرة باننى قد لا اكون كفؤا لاحتلال مكان « ويلدون » ووراء هذه الفكرة كان هناك أيضا شبح فشلى فى مسرح فورستر . ولما كنت لم أسترد تماما ثقتى بنفسى منذ ذلك الوقت ، فقد كان كل اسكتش جديد العب فيه دور البطولة امتحانا مخيفا . ثم ان مدة عقدى مع كارنو كانت قد انتهت ، وجاءت اللحظة المزعجة التى لابد أن أخطر فيها كارنو بذلك ، واطلب منه علاوة

وهكذا .. وقفت أمامه نتفاوض حول العقد الجديد فقال وهو يبتسم ابتسامة ساخرة :

ــ حسنا أنت تطلب علاوة ودوائر المسرح تطلب تخفيضا !

ثم هز كتفيه وقال :

ــ منذ فضيحة « موزيكهولى أوكسفورد » ونحن لا نتلقى منهم غير الشكاوى ، فهم يقولون ان الفرقة ليست فى المستوى اللائق .. مجرد « زحمة من الناس » قلت :

ــ ليكن ، ولكنهم لا يستطيعون ان يلوموني على ذلك

فأجاب وهو يحدجنى بنظرة ثبتتنى فى مكانى :

ــ ولكنهم يفعلون !

فسألته : « ما الذى يشكون منه ؟ »
فتنحنح ونظر الى الارض قائلا :
ــ يقولون انك غير كفء
ومع أن هذه الملاحظة أصابتنى كلكمة فى المعدة ، الا انها فى نفس الوقت أثارت كبريائى · ولكننى أجبت فى هدوء :
ــ حسنا . آخرون لا يرون ذلك وهم على استعداد لاعطائى أكثر مما آخذ هنا ··
ولم يكن هذا صحيحا . فالواقع انه لم يكن هنــاك اى عرض اخر
ورفع كارنو سماعة التليفون وهو يقول :
ــ انهم يقولون أن العرض فظيع ، والممثل لا جــدوى منه وسأطلب الان مكتب « ستار » برموندس ، لتسمع بنفسك
وبدأ يتكلم فى التليفون :
ــ سمعت أن الحالة لم تكن طيبة لديكم فى الاسبوع الماضى ··
فاذا بصوت يجيب : « كانت نيلة ! »
وابتسم كارنو : « بأى شىء تفسر ذلك ؟ »
ــ العرض ميت ··
ــ وماذا عن شابلن ·· الممثل الرئيسى . ألم يفــد بشىء ؟
قال الصوت : « انه يثير الاشمئزاز »
وقدم لى كارنو سماعة التليفون وهو يبتسم . فقلت ارد على المتكلم :
ــ ربما كان يثير الاشمئزاز . ولكن ليس بنصف القدر الذى يثيره مسرحك الحقير

ولم ينجح كارنو في محاولة تخفيض مرتبي . فقد قلت له انه اذا كان هذا رايه هو الاخر ، فلا حاجة به الى تجديد عقدي . وكان كارنو رجلا خبيثا فی كثـير من تصرفاته ، ولكنه لم يكن خبيرا بالنفوس . فما كان من حسن الادارة ــ حتى لو كنت حقا اثير الاشمئزاز ان يجعل رجلا على الطرف الآخر من الخط يقول لى ذلك. وكان مرتبى فی ذلك الوقت خمسة جنيهات ، وانا اطالب بستة . فاذا بكارنو ــ لدهشتى الشديدة ــ يعطينى ما طلبت ، وعدت مرة اخرى الى رعايته الطيبة

عاد « آلف ريفز » مدير فرقة كارنو الامريكيـة الى انجلترا . وتناثرت الشائعات عن انه جاء يبحث عن ممثل رئيسى يعود به الى الولايات المتحدة ..

وكنت منذ فشلى الاعظم فی موزيكهولی أوكسـفورد أحلم بفكرة الذهاب الى أمريكا .. لا لما فيهـا من اثارة ومغامرات فقط ، ولكن لان ذلك كان يعنى املا جـديدا، وبداية جديدة فی عالم جديد

ومن حسن الحظ ان اسكتش «الانزلاق على الجليد» وهو اسكتش جديد كنت العب بطولته ، كان يجرى عرضه فی ذلك الوقت بنجاح كبير فی برمنجهام . فلما لحق مستر ريفز بالفرقة هناك اديت الدور كأجمل ما استطيع .. فكانت النتيجة ان ارسل الى كارنو برقية يقول فيها انه قد وجد الممثل الذى يريده للولايات المتحدة

ولكن كارنو كانت لديه خطط أخرى لى . فترتب على ذلك اننى قضيت عدة أسابيع نهبا للقلق والشك .. الى ان أعجب كارنو باسكتش عنوانه « الوو ــ دو » وكان من طراز البرسك ، يدور حول ادخال عضو جديد فی جمعية سرية . وكان رايى انا وريفز ان هذا الاسكتش سخيف،

وغير مضمون ، ولا خير فيه . ولكن كارنو كان واقعا تماما تحت تأثير فكرته واصر على انه ـ مادامت امريكا تزخر بالجمعيات السرية ـ فان أى اسكتش يتناولها سيحقق نجاحا كبيرا هناك

وهكذا ـ لفرط سرورى وانفعالى اختارنى كارنو لالعب الدور الرئيسى فى « الوو ـ دو » .. فى امريكا

وكانت هذه الفرصة للسفر الى امريكا هى كل ما احتاج اليه ففى انجلترا كنت اشعر اننى بلغت ما يمكننى الوصول اليه . بالاضافة الى ان فرصى فيها كانت محدودة : اذ لو فشلت كممثل فى الموزيكهول ، لما عاد لى ـ بثقافتى الضئيلة ـ امل الا فى الاعمال اليدوية . اما فى الولايات الامريكية ، فقد كان يبدو لى أن الافاق أكثر اشراقا ..

وفى الليلة التى تسبق موعد رحلتى مضيت اتجول فى حى « الوست اند » بلندن . وأتوقف عند ميدان لانكستر ، وشارع كوفنترى ، ومالى ، وبيكاديلى .. وفى داخلى احساس حزين بأنها ستكون اخر مرة ارى فيها لندن . اذ كنت قد عزمت على الاقامة الدائمة فى الولايات المتحدة . وظللت امشى حتى الثانية صباحا، هائما فى الجو الشاعرى للطرقات الخالية ، والاحساس بالاشفاق على نفسى

وكان أكثر ما أخشاه هو مظاهر التوديع . فكيفما كان احساس الانسان نحو فراق اقاربه واصدقائه فان مظاهر التوديع لا تؤدى الا الى تعميق هذا الاحساس . ولهذا فاننى حين استيقظت فى السادسة صباحا لم اقدم على ايقاظ سيدنى، وانما تركت له ورقة على المائدة أقول فيها:

« سافرت الى أمريكا ، سأراسلك بالبريد مع حبى »

الفصل الثامن

إلى أمريكا..

* خيبة أمل فى نيويورك
* ناطحات السحاب تدفعنى الى المغامرة
* عندما يضحك الفقر ويبكى فى الشوارع

أخيرا وصلنا ٠٠ فى الساعة العاشرة من صباح يوم الاحد الى نيويورك !

وعندما هبطنا من عربة الاجرة فى ميدان « التايمز »، أحسسنا ــ الى حد ما ــ بخيبة امل ٠٠ فالصحف تغطى الشوارع والارصفة ، وبرودواى تبدو مريضة كأنها امرأة منكوشة الشعر والثياب خارجة لتوها من الفراش

وكان كثير من الناس يبدون كالغرباء ، واقفين بغير هدف على الارصفة كانما هبطوا لتوهم من قطار ووقفوا يقتلون الوقت فى انتظار قطار آخر

ولكنها كانت نيويورك على أى حال ! نيويورك المحيرة ، والمخيفة ايضا الى حد ما . لقد كانت باريس ــ على العكس من ذلك ــ اكثر ودا ، وبرغم جهلى بلغتها كانت ترحب بى فى كل شارع بمحلاتها ومقاهيها المنبسطة على الارصفة ، أما نيويورك فهى فى جوهرها مدينة أعمال تجارية ٠٠ حيث تبدو ناطحات السحاب المغرورة غير مكترثة بحال الناس العاديين ، وحيث لا تجد حتى فى البارات مكانا لجلوس الزبائن ، بل مجرد قضيب نحاس يسند عليه الزبون قدمه ، وحيث تبدو المطاعم ــ برغم نظافتها وكسوتها بالرخام ــ باردة يسودها جو المستشفيات

واستأجرت غرفة خلفية فى أحد المنازل المبنية بالطوب الاحمر قرب الشارع الثالث والاربعين ٠٠ حيث يوجد

الآن مبنى جريدة التايمز . وكانت غرفة كالحة قذرة ، تجعلنى أحن الى لندن والى شـقتنا الصـغيرة فيها . وفى البدروم كان يوجد محل للتنظيف والـكى ، فكانت الرائحة الخبيثة للثيـاب حين تكوى أو تبخر تتصاعد طول الاسبوع وتزيد من عدم ارتياحى

ولكم احسست فى هذا اليوم الاول باننى خائب ! فقد كان مجرد ذهابى الى المطعم وطلب شيء أكله امتحـانا عسيرا بسبب لهجتى الانجليزية .. وسرعتى البطيئة فى الكلام .. اذ ما كان أكثر الذين يتكلمون خطفـا ، وباصطلاحات موجزة ، الى الحد الذى اشعرنى بالخوف من أن أتهته واضيع وقتهم ..

كنت غريبا تمام الغربة عن هذا الايقاع السريع .. أفقر دكان فى نيويورك يتصرف بعجلة . وماسح الاحذية يدعك القماشة التى يصقل بها الحذاء بعجلة ، والساقى فى البار يقدم كوب البيرة بعجلة ، والواقف أمام الخلاط يبدو - حين يجهز كـوبا من اللبن بالبيض المضروب - كالحاوى الحاذق : اذ يندفع بسرعة خاطفة يلتقط الكوب، ويختطف بيده كل ما يريد أن يضعه فيه .. الفانيليا ، وكرة الايس كريم ، وملعقتى المولت ، والبيضة النيئـة التى يكسرها بضربة واحدة ، ثم اللبن الذى يضعه مـع كل هذا فى أناء واحد ، ويرجه ، ويقدمه فى اقل من دقيقة ...

وفي ذلك اليوم الاول كان يبدو على كثير من الناس ما اشعر أنا به : الوحدة ، والعزلة . بينما كان يمشى آخرون فى خيلاء كأنهم يملكون المكان كله . وكان سلوك الكثيرين يتصف بالتعالى والجفاء ، كما لو كانت الدماثة والادب علامة على الضعف

على انني في المساء ، وانا امشي على طول شارع برودواي بين زحام الناس في ملابسهم الصيفية ، بدأت أشـــعر باطمئنان • كنا قد غادرنا انجلترا فى صقيع سبتمبر القارس ، ووصلنا الى نيويورك فى جو صيف هندى تبلغ حرارته ثمانين درجة فهرنهيت « ٣٢ درجة مئوية » • وما كدت ابدأ جولتي في برودواي حتى بدأ يغرقه طوفان من الاضواء الملونة التي تخطف البصر كالجواهر اللامعة. وفي دفء هذا الليل بدأ شعوري يتغير ويتضح في ذهني معنى امريكا • وحركت في نفسي ناطحات الســـحاب ، والاضواء الخاطفة المرحة والاعلانات المثيرة احساسا بالمغامرة والجرأة • وقلت لنفسي :

– هذا بالضبط ما اريد ! هذا هو المكان الذى انتمى اليه !

كان كارنو يتمتع بشهرة عريضة فى أمريكا • فكنا لهذا أبطال البرنامج الذى يضم عددا من ألمع الفنانين

***

ومع انني لم اكن احب الاسكتش الذى نقدمه ، فانني بالطبع حاولت أن أستغل أفضل ما فيـــه • وكنت آمل ان يكون كما وصفه كارنو « الشيء الملائم تماما لامريكا »

وكانت أول نكتة لي، تعتبر في انجلترا مضحكة جدا ، وتتخذ مقياسا لما ستكون عليه باقى المسرحية ، وكان المنظر منظر معسكر ، ادخله من باب احدى الخيم وفي يدي فنجان من الشاي :

– آركي « أنا » : صباح الخير يا هدسون • أتســـمح باعطائي قليلا من الماء ؟

هدسون : بكل تأكيد • ماذا ستفعل به ؟

آركي : أريد أن آخذ حماما

« ضحكة خافتة ، ثم صمت قاتل من جانب الجمهور »
هدسون : كيف نمت ليلة أمس يا اركى ؟
آركى : نوما فظيعا ! فقـــــد كنت أحلم بأن دودة تطاردنى !
صمت قاتل ايضا

كان الاسكتش سخيفا ، سمجا ، وقد نصحت كارنو بألا يقدمه فى الافتتاح . وكانت لدينا اسكتشات اخرى أكثر طرافة الى حد كبير ، مثل اسكتش « الانزلاق على الجليد » و « اللصوص المغروررون » و « مكتب البريد » و « مستر بركنز عضو البرلمان » .. وكلها جـديرة بأن تعجب الجمهور . ولكن كارنو كان عنيدا

***

وأخف ما يمكن أن يوصف بهالفشل فى بلد أجنبىهو انه مؤلم ! وفى اليوم التالى تجولت طول النهار على غير هدى فى الشوارع التى بدت لى بلا نهاية ، وزرت حدائق الحيوان ، والاسماك ، والمتنزهات ، والمتاحف ..

وأحسست الآن ـ بعـد فشلنا ـ بأن نيويورك مدينة مخيفة .. وبأن مبانيها الشاهقة ومتاجرها الفاخرة انما هى « كابوس » مستمر ، قاس ، يذكرنى بخيبتى ..

وقطعت مسافات طويلة عبر المدينة حتى بلغت أفقر احيائها .. مارا بالحديقة العامة فى ميدان ماديسون ، حيث يجلس المشردون بلا حراك على مقاعد الحـــديقة ، يتأملون اقدامهم فى ذهول يائس . ثم واصلت طريقى الى شـــارعى ٢ و ٣ .. حيث الفقر لا قلب له : مرير ، ساخر ، يستغيث ويصرخ ، ويضحك ويبكى ، ويتكدس أمام الابواب وعلى سلالم الحريق ، ويتقيأ فى الطرقات .

شيء خـــانق ! شيء دفعني الى أن أهـــرول عائدا الى برودواى ..

***

ان الامريكى رجل متفائل ، مشغول الخاطر باحـــلام صارخة متدافعة . رجل لا يمل المحاولة . كن ساحقا ! اضرب والحديد ساخن ! ارتفع من الحضيض ! حاول لعبة اخرى ! وقد جعلتنى هذه النظرة المتطرفة الى الحياة اشعر بالانتعاش . والعجيب اننى ـ نتيجة للفشل الذى منينا به ـ احسست بنفسى طليقا غير مقيد . ان امريكا تزخر بالفرص ، فلماذا اقيد نفسى بمهنة المسرح ؟ اننى لم أخلق للفن . فلأحاول اذن لعبة أخرى

وبدأت استرد الثقة والاطمئنان . وعزمت ـ مهمـــا حدث ـ على البقاء فى أمريكا ..

فى الاسبوع الثالث لعبنا فى مسرح « الشـــــارع الخامس » أمام جمهور يتألف معظمه من الوضعاء ورؤساء الخدم الانجليز ، ولدهشتى الشديدة حققنا نجاحا هائلا فى حفلة الافتتاح يوم الاثنين . اذ ضحك الجمهور لكل نكتة ، واثار ذلك دهشة كل عضو فى الفرقة ، بما فى ذلك أنا ..

***

وخلال هذا الاسبوع شاهدنا احد المتعهدين ، وتعاقد معنا على جولة فى الغرب تستغرق ٢٤ اسبوعـــا ، نمثـــل اثناءها على مجموعة مسارح « سوليفان وكونسيدين » . وكان البرنامج من طراز الفودفيل الرخيص ، وعلينا أن نمثل ثلاث حفلات فى اليوم . وعندما فرغنا من جـــولة « سوليفان وكونسيدين » عدنا الى نيويورك ، حيث منحنا المستر وليام موريس ستة اسابيع نقدم فيها برنامجنا



فى الطريق الى امريكا ، مع فرقة كارنو

كله على مسرحه القائم فى الشارع الثانى والاربعين بمدينة نيويورك . فقدمنا فى الافتتاح « ليلة فى الموزيكهول الانجليزى » .. التى حققت نجاحا ساحقا

وحدث أثناء هذا الاسبوع أن كان رجل وصديقه على موعد مع فتاتين فى ساعة متأخرة من الليل ، فقادتهما أقدامهما – لمجرد قتل الوقت – الى موزيكهول وليم موريس ، حيث تصادف أن شاهدا عرضنا . وعلق احدهما قائلا :

– لو صرت ذات يوم من كبار رجال الاعمال ، لكان هذا الفتى ممن أحب أن أتعاقد معهم

وكان يشير بذلك الى ادائى لدور المخمور فى « ليلة فى الموزيكهول الانجليزى » . وكان هو فى ذلك الوقت يعمل كومبارس عند د . و . جريفيث « المخرج الكبير » فى

شركة بيوجراف ، ويتقاضى خمسة دولارات فى اليوم

كان هذا الرجل هو « ماك سينيت » .. الذى انشأ فيما بعد شركة أفلام « كيستون »

الفصل التاسع

من المسرح إلى السينما

* أول عقد مع السينما ..
* شعرت بالملل من الفن ..
* مطلوب منى الظهور فى ثلاثة أفلام أسبوعيا

غادرت الولايات المتحدة دون أن أحمل هما ، فقد كنت عازما على ان اعود ، وان كنت لا اعرف متى ولا كيف

على انني كنت مشوقا الى العودة الى لندن ، والى شقتنا الصغيرة المريحة . فمنذ جولتي في الولايات المتحدة وهذه الشقة تبدو لى كأنها معبد مقدس

ولم يكن قد بلغني نبأ من سيدني منذ وقت طويل وكان اخر خطاب منه يقول ان جدى يقيم في الشقة . ولكنه عند وصولى الى لندن قابلني في المحطة ليقول لى انه أخلاها ، وانه قد تزوج وأقام في شقة مفروشة في شارع بركستون . فكانت هذه صدمة شديدة لى ـ صدمة الاحساس بأن ذلك العش المشرق ، الذى كان يجسد لى الحياة في صورة مادية يمكن ان أتذوقها وأعتز بها ، لم يعد له وجود . لقد أصبحت بلا مأوى ! واضطررت ان أستأجر غرفة خلفية في شارع بركستون وبلغ . من احساسي بالاسى انني قررت العودة الى الولايات المتحدة في أسرع وقت ممكن . وبدت لى لندن في تلك الليلة الاولى غير مكترثة بوجودى ، كحصالة الحظ . الخاوية (1) حين يضع فيها الانسان قطعة من النقود

ولما كان سيدني متزوجا ، ويعمل في المساء ، فانني قليلا

---

(1) آلة منتشرة في الولايات المتحدة، يضع فيها اللاعب قطعة نقود ثم يدير ذراعها .. فاما أن تضيع عليه.. واما ان تكسب له الحصالة مئات من القطع المختزنة فيها

ما كنت أراه ، ولكننا ذهبنا معا يوم الاحد لنرى أمى . فكان يوما كئيبا لان حالتها لم تكن طيبة . كانت قد مرت لتوها بمرحلة عصبية عنيفة ، ونقلت الى غرفة مبطنة . ونبهتنا الممرضة الى ذلك مقدما.. فذهب سيدنى ليراها، اما أنا فلم تطاوعنى شجاعتى ، وجلست أنتظره . وعندما عاد كان مضطربا ، وقال لى انهم يعالجونها بالصدمات عن طريق الدش « المثلج » وان وجهها شديد الزرقة . فجعلنا ذلك نقرر نقلها الى مصحة خاصة ، اذ كنا عندئذ قادرين على ذلك . وهكذا نقلناها الى نفس المصحة التى نقل اليها الممثل الانجليزى العظيم دان لينو

كان احساسى يتزايد يومابعد يوم بأننى شريد ،لاجذور له . واعتقد ان هذا الاحساس كان يمكن أن يختلف لو اننى عدت فوجدت شقتنا الصغيرة . على أن الكآبة لم تكن بالطبع مسيطرة تماما على نفسى . فاحساسى بالالفة والانتماء الى انجلترا كان يتحرك فى اعماقى شيئا فشيئا منذ عودتى من الولايات المتحدة . والصيف كان صيفا انجليزيا نموذجيا ، لم أر فى أى مكان اخر مايشبه سحره وعذوبته ..

ودعانى كارنو ، الرئيس ، الى جزيرة « تاج » لقضاء عطلة الاسبوع فى بيته العائم . وكان بناء ضخما معقدا من خشب الماهوجنى ، يحتوى على غرف واسعة للضيوف . فاذا أقبل الليل أضاءت من حوله مصابيح ملونة يسحرنى جمالها واشراقها ، وكانت الامسية دافئة ، وبعد العشاء جلسنا نشرب القهوة وندخن على ظهر اليخت تحت الاضواء الملونة . واحسست عندئذ بأن انجلترا هذه تستطيع ان تفطمنى عن حب أى بلد اخر

وفجأة .. تصاعد صوت حاد خشن يصرخ بطريقة هستيرية :

ـ انظروا الى زورقى الرائع ! انظروا جميعاً ! ..
انظروا الى زورقى ! والاضواء ايضا ! هاهاها

ومضى الصوت يتفجر فى نوبات هستيرية من الضحك . فنظرنا لنرى من أين يتصاعد . واذا به رجل جالس بثيابه الداخلية فى زورق ذى مجدافين ، ومعه سيدة مسترخية فى المقعد الخلفى .. وقد بدا منظرها كاحدى الصور الهزلية فى مجلة « بانش » . ومال كارنو على سور اليخت ينهر الرجل بصوت عال ، ولكن ضحكاته استمرت لا يوقفها شىء . فقلت لكارنو :

ـ ليس هناك غير شىء واحد نفعله . ان نكون على قدر ما يتصورنا من السوقية

واطلقت على الرجل سيلا عنيفا من الالفاظ الفاضحة التى أحرجت السيدة الى حد جعله يهرب على الفور مبتعدا عنا

كان هذا الانفجار العاصف من جانب ذلك الرجل الاحمق ، لا مجرد انتقاد لذوق البيت العائم وطرازه ، وانما سخرية متعصبة موجهة الى مايعتبره محاولة من الطبقات الدنيا للارتفاع الى مستوى لا تقدر عليه . فهو ما كان يفكر أبدا فى أن يهزأ بقصرباكنجهام ويهتف: انظروا الى البيت الكبير الذى أقيم فيه ! او أن يسخر من عربة الفتيونج . وقد كانت هذه المراتب الطبقية الماثلة دائما فى الاذهان شيئا أحسسته بعمق اثناء وجودى فى انجلترا . وكان يبدو لى ان هذا الطراز من الانجليز لا يسارع الى شىء قدر مايسارع الى ملاحظة مستوى انخفاض الاخرين على السلم الاجتماعى !

بدات فرقتنا الامريكية نشاطها ، وظللنا نقدم عروضنا اربعة عشر اسبوعا فى مسارح لندن . واستقبلت هذه

العروض استقبالا طيبا ، وكان الجمهور رائعـا ، ولكننى كنت طول الوقت اتساءل عما اذا كنا سنعود يوما الى الولايات المتحدة . كنت أحب انجلترا . ولكن الحيـاة فيها كانت مستحيلة بالنسبة لى . فبسبب تاريخى الماضى فيها ، كان يستبد بى شعور مزعج بأننى سـأنحدر مرة اخرى الى حياة سوقية يائسة . فلما جاءت الانباء بأنه قد تم التعاقد على جولة أخرى فى الولايات المتحدة ، احسست بالانتعاش

وذهبت مع سيدنى يوم الاحد لنرى أمى . فبدت لنا أحسن حالا . وفى المساء تناولت عشائى معه قبل رحيله الى الاقاليم . وعندما حانت ليلتى الاخيرة فى لنـدن ، تجولت فى حي « الوست اند » وقد اضطربت مشاعرى، وسيطر على الحزن والمرارة وانا اقول لنفسى : انها آخر مرة أرى فيها هذه الشوارع ..

***

سافرنا هذه المرة فى الدرجة الثانية على ظهر الباخرة « اوليمبك » . ووصلنا عن طريق نيويورك . وعندما تباطأ صوت الالات معلنا اننا اقتربنا من هدفنا لم يراودنى هذه المرة الاحساس بالغربة ــ فقد كنت غريبا بين غـربـاء : وواحدا من الاخرين

وبقدر ما أحببت نيويورك فاننى كنت مشـوقا الى الغرب الى أن أصافح من جديد معارفى الذين اتطلع الان اليهم كأصدقاء : خادم البار فى « بوت » بمونتانا ،والمليونير السخى ذى القلب الكبير فى مينيا بوليس، والفتاةالجميلة التى قضيت معها أسبوعا من الحب فى سـانت بول ، و « ماك بى » .. صاحب المنجم الاسكتلندى فى مدينة سولت ليك ، وطبيب الاسنان الصديق فى تاكوما ، وعائلة جرومان فى سان فرانسسكو

ولكننا قبل أن نصل الى شاطىء المحيط الهادى ، قدمنا عددا من العروض فى مختلف المسارح الصغـيرة حول ضواحى شيكاغو وفيلادلفيا والمدن الصناعية الاخرى مثل فول ريفر ودولوث .. الخ

كنت - كالعادة - اقيم وحدى . ولكن هذه الوحدة كانت لها مزاياها ، اذ كانت تتيح لى الفرصة كى أثقف عقلى .. وهو قرار تمسكت به شهورا كثيرة ، ولكننى لم أنجزه أبدا ..

ان فى العالم رابطة من عشاق المعرفة . وقد كنت انا واحدا من اعضائها . ولكن دوافعى لم تكن نقية تماما : فأنا أريد ان اعرف ، لا حبا فى المعرفة ، ولكن دفاعا عن نفسى ضد احتقار العالم للجاهلين . وهكذا اعتدت كلما وجدت وقتا أن أتسكع ما بين متاجر الكتب القـديمة .. وعثرت بالصدفة - فى فيلادلفيا - على نسخة من كتـاب روبرت انجرسول « مقالات ومحاضرات » . فكان ذلك اكتشـافا مثيرا . اذ كان الحاده يؤكد عقيدتى بأن ما فى « العهد القديم » من قسوة مفزعة انما يذل روح الانسان ويهبط بها . ثم اكتشفت امرسون . وشعرت بعـد قراءة بحثه عن « الاعتماد على النفس » بأننى منحت حقا ذهبيا من حقوق الميلاد . ثم جاء بعد ذلك شوبنهاور . الذى اشتريت له ثلاثة اجزاء من « العالم ارادة وفكر » ، وظللت أقرأ فيها من حين الى آخر - دون أن أقرأها أبـدا قراءة شاملة - طوال أربعين عاما . أما « أوراق العشب » لوالت ويتمان ، فانني ضقت بها ، وما ازال حتى يومنا هذا . فهو قلب عاشق متفجر اكثر مما يجب ، ومتصوف وطنى اكثر مما ينبغى . كذلك تمتعت - فى فترات الراحة فى غرفة الملابس - بمعرفة مارك توين ، وبو ، وهاوثورن، وايرفنج ، وهازليت

ولعلني ـ طوال تلك الجولة الثانية ـ لم أتشرب القدر الذى كنت اريد من الثقافة الكلاسيكية ، ولكنني تشربت بالفعل اكبر قــــدر من الملل والضيق بمهنة الفن فى مستوياتها الدنيا .. فمسارح الفودفيل الرخيص تلك كانت كئيبة ثقيلة الظل ، واحلام مســـتقبلى فى امريكا كانت تتبدد فى طاحونة العمل سبعة ايام فى الاسبوع وثلاث حفلات فى اليوم • لقد كان الفودفيل فى انجلترا جنة اذا ما قورن حاله بهذه الحال.. على الاقل لاننا هناك نعمل ستة ايام فى الاسبوع ، ونقدم كل يوم عرضين فقط • ولكن عزاءنا كان اننا فى أمريكا سنتمكن من ادخار مبلغ أكبر قليلا من النقود

كنا قد قدمنا « العصى » بصفة مستمرة لمدة خمســة أشهر ، وأصابنى الملل منها بانهيار معنوى • فلما منحنا اجازة اسبوع فى فيلادلفيا ، رحبت بذلك ، كنت فى حاجة الى تغيير ، الى جو مختلف ، الى التجرد من شـــخصيتى والتحول الى انسان اخر • فقـــد ضقت ذرعا بالروتين المذرى لحياة فنانى الدرجة العاشرة • واستقر عزمى على ان انخرط لمدة أسبوع فى سحر الحياة الراقية . وكنت قد ادخرت مبلغا ضخما من المال ، فقررت بدافع اليـأس المجرد أن أستسلم لنوبة من التبذير • ولم لا ؟ لقد قترت على نفسى لكى أدخر هذا المبـــلغ ، وسأقتر على نفسى اذا تعطلت عن العمل لكى اعيش به ، فلماذا لا أنفق الان قليلا منه ؟ ..

وهكذا انفقت خمسة وسبعين دولاراً على شراء حلـــة فاخرة وحقيبة ثياب انيقة • وكان صاحب المتجر فى غاية الادب وهو يسألنى :

ـ هل تسمح لنا بارسالها الى عنوانك يا سيدى ؟

كلمات قليلة رفعت من قدرى ، وميزتنى على غيرى •

وما بقى الان الا ان اذهب الى نيويورك ، واغير جلدى ، طارحا عن نفسى فن الدرجة العاشرة وحياته الكئيبة

وقررت أن آخذ غرفة فى فندق استور ، الذى كان فندقا فخما فى ذلك الوقت ٠ وكنت ارتدى حلتى الانيقة، وقبعة من طراز الدربى ، وفى يدى العصا ، ومعى بالطبع حقيبة الملابس ٠ وجعلتنى فخامة ردهة الفندق وكبرياء الناس المتناثرين فى انحائها ارتجف قليلا وانا اسجل اسمى فى مكتب الاستقبال

وكان ايجار الغرفة اربعة دولارات ونصف دولار ٠ وسألت بارتباك اذا كان يجب أن أدفع مقدما ٠ ولكن الموظف كان مهذبا ومجاملا الى اقصى حد :

ـ لا لا يا سيدى ٠٠ لا ضرورة لذلك

وكان لمرورى بالدهليز ، بكل ما يزينه من القطيفة والاشياء المذهبة ، أثر بالغ على مشاعرى ٠٠ الى حد اننى عندما بلغت غرفتى احسست بالرغبة فى البكاء !

ولبثت فى الغرفة اكثر من ساعة افحص الحمام بمنافعه المعقدة ، واختبر ثروته السخية من الماء الساخن والبارد ٠ ما أكثر ما تشعر الفخامة الانسان بالحيوية والكرامة ! لقد اخذت حماما ، وسرحت شعرى ،ولبست برنسى الجديد عازما على ان انتزع بدولاراتى الاربعة والنصف كل ذرة ممكنة من الفخفخة ٠٠ ولكن ، لو كان عندى فقط شيء اقرؤه ! صحيفة مثلا ٠ على اننى لم اجد فى نفسى الجرأة على طلبها بالتليفون ٠ فسحبت مقعدا وجلست فى وسط الحجرة افحص كل ما حولى تائها فى الفخامة ٠٠

وبعد قليل لبست ثيابى وهبطت الى الدور الاسفل وسألت عن قاعة الطعام الرئيسية ٠ كان الوقت مبكرا الى

حد ما ، والقاعة شبه خالية الا من واحد او اثنين يتناولان الطعام. قادني المتردوتيل الى مائدة بجوار النافذة سائلا:
ـ أتحب ان اجلس هنا ياسيدى ؟
فقلت بأرقى لهجة انجليزية اعرفها :
ـ لا بأس بأى مكان ..
واذا بفرقة كاملة من الخدم يداهمونني فجأة ويدورون حولى ، يقدمون الماء المثلج ، وقائمة الطعام ، والزبـــد والخبز فبلغ انفعالى حدا لا يسمح لى بأن أشعر بالجوع • غير انني على أية حال خلصت من هذه المجاملات الى طلب الطعام : حساء ، وفرخة محمرة ، وايس كريم بالفانيليا• وقدم لى الجرسون قائمة خمور ، فاخترت ـ بعد عناية وتدقيق ـ نصف زجاجة من الشمبانيا ..
ولكن انفعالى بأن أعيش دورى حرمنى من الاستمتاع بالشراب أو الطعام • وبعد انتهاء الوجبة نفحتالجرسون دولارا كاملا ، وهو مبلغ كان فى تلك الايام سخيا الى درجة شاذة • ولكنه لم يكن كثـــيرا على ما تلقيت من احترامات وانحناءات أثناء خروجى
ولسبب غير واضح عدت الى غرفتى ، وبقيت فيها عشر دقائق • ثم غسلت يدى وغادرت الفندق ••
كانت أمسية صيف دافئة ، تلائم حالتى النفسية وانا أمشى متراخيا فى اتجاه دار اوبرا متروبوليتـــــان .. حيث كانت تعرض اوبرا « تانهاوزر » ولم أكن فى حياتى قد شاهدت الاوبرات الكبرى . اما الان فقد كنت مهيأ لها . وكانت باللغة الالمانية فلم أفهم منها حرفا . ولكنهم عندما حملوا الملكة الميتة على ايقاع نشيد الحجاج بكيت بمرارة . وعندما غادرت المسرح كنت ممزق القـــلب ، وأعصابى محطمة ..
وفى الصباح التالى قررت ان اعود الى فيلادلفيا .

صحيح ان هذا اليوم الواحد كان « التغيير » الذى أصبو اليه ، ولكنه كان تغييرا يشد الاعصاب ويشعر بالغربة. والان صار مطلبى ان اجد الصحبة . ووجـــدت نفسى اتطلع بشغف الى يوم الاثنين حيث نبدأ عرضنا ، والتقى بأعضـــاء الفرقة . فقد أحسست انه يكفينى تماما ذلك اليوم الواحد من حياة الترف !

وما كدت أدخل الفندق حتى وجدت نفسى وجها لوجه أمام آرثر كيلى ، شقيق هيتى ، ومدير الفرقة التى تعمل بها . وكنت أتخذ منه صديقا لانه شقيقها ، ولكنى لم أكن قد رأيته منذ سنوات

وصاح آرثر : « شارلى ! الى أين أنت ذاهب ؟ »

فأومأت براسى فى اتجاه الداخل وقلت فى غير حماس :

ــ كنت على وشك أن أنام

فلم يغب عن آرثر ما أنا فيه . وكان معه صـــديقان ، فاقترح بعد أن قدم كلا منا الى الاخر ان نذهب الى مسكنه فى شارع ماريسون ، لنشرب القهوة ونثرثر قليلا

وكانت شقة مريحة ، جلسنا فيها نتناول الحـــديث بخفة . دون أن يشير آرثر اية اشارة الى ماضينا .ولكنه كان مشوقا الى استطلاع معـــلومات تفسر له اقامتى فى فندق استور . فلم اذكر له اكثر من اننى جئت الى نيويورك فى اجازة لمدة يومين او ثلاثة

وكانت أحوال آرثر قد تغيرت كثيرا منذ أيام كالبرويل. وأصبح الان رجل أعمال يعمل فى خدمة زوج اخته « فرانك ج.جولد » . واحسست وانا أنصت الى حديثـــه انه يضاعف شجونى . وكان مما قاله لى عن أحد صديقيه :

ــ انه شاب لطيف..منحدر من أسرة طيبة فيما أعلم

فابتسمت بينى وبين نفسى لهذا الاهتمام بالانساب . وأدركت انه لم يعد يجمع بيننا الا القليل

لم ابق فى نيويورك الا يوما واحدا . ففى الصباح التالى قررت أن أعود الى فيلادلفيا . ومع ان هذا اليوم الواحد كان فيه كل ما احتاج اليه من تغيير ، الا انه كان يوما موحشا .. أحسست بعده بالحاجة الى الصحبة . وبدأت أتطلع بشغف الى صباح الاثنين : الى البروفة ، واللقاء بأعضاء الفرقة .. فمهما كان عبء العودة الى الطاحونة المعتادة ، فان ذلك اليوم الواحد من الحياةاللينة كان يكفينى

مررت بالمسرح عندما عدت الى فيلادلفيا ، فوجدت برقية موجهة الى مستر ريفز . وتصادف وجودى عندما قرأها فقال لى : « اتراهم يقصدونك أنت ؟ »

كانت البرقية تقول :

« هل فى فرقتكم رجل يدعى شافن او شيئا كهذا ؟ اذا كان ذلك فهل يتفضل بالاتصال بـ «كيسيل وباومان» رقم ٢٤ ، مبنى « لونج اكر » ، برودواى ؟ »

كان مبنى لونج اكر فى قلب برودواى ، وكان مليئا بمكاتب المحامين . وتذكرت ان لى عمة ثرية فى مكان ما من الولايات المتحدة ، فبدأ خيالى يحلق فى السماء : الا يجوز انها ماتت وتركت لى ثروتها ؟

على ان املى خاب الى حد ما عندما وصلت الى هناك فان « كيسيل وبارمان » لم يكونا من المحامين ، وانما من منتجى الافلام ..

وقال لى مستر شارلز كيسيل ـ احد مالكى شركة افلام كيستون الكوميدية ـ ان مستر ماك سينيت قد سبق ان رآنى العب دور المخمور فى مسرح الموزيكهول الامريكى . فاذا كنت انا ذلك الرجل فانه يجب أن يتعاقد معى على الحلول محل « فورد سترلنج »

وكانت فكرة العمل فى السينما كثيرا ما تراودنى ، حتى

لقد عرضت على مديرنا « ريفز » ان نشترك معا فى شراء حقوق اسكتشات كارنو جميعا وتحويلها الى أفلام . ولكن ريفز لم يرحب بالفكرة ، وكان فى ذلك على حق ..

وسألنى مستر كيسيل : هل سبق أن شاهدت احدى كوميديات كيستون ؟ فقلت : طبعا ، شاهدت منها الكثير . ولكننى لم أقل له أنها فى رأيى خليط من الحركات التهريجية

ومع اننى لم أكن شديد الحماس لاسلوب كوميديات كيستون .. الا اننى كنت افهم قيمتها الدعائية . فعام واحد مع هذه العصبة كفيل بأن يجعلنى أعـــود الى الفودفيل نجما عالميا

وقال كيسيل ان العقد سيتطلب منى الظهور فى ثلاثة افلام اسبوعيا بمرتب قدره ١٥٠ دولارا . وكان هـذا ضعف ما اتقاضاه من فرقة كارنو . ومـع ذلك فاننى تمتمت وغمغمت وقلت اننى لا استطيع ان أقبل أقل من ٢٠٠ دولار فى الاسبوع . فقال مستر كيسيل ان ذلك أمر يقرره المستر سينيت ، وانه سيبلغه فى كاليفورنيا

وفى انتظار الرد من مستر كيسيل ، عشت لا أكاد أعى بوجودى . لعلنى طلبت أكثر ممـــا يجب ؟ على ان الخطاب وصل اخيرا ، وفيه انهم على استعداد للتعاقد معى لمدة عام فى مقابل ١٥٠ دولارا فى الاشهر الثـــلاثة الاولى و ١٧٥ فى الاشهر التسعة الباقية .. مبالغ اكبر من كل ما قدم لى فى حياتى

وكان المفروض اننى سأبدأ بمجرد انتهاء جولتنا على مســـارح سوليفان وكونسيدين .. فتعود فرقتنا الى انجلترا ، بينما اتجه أنا الى « لوس انجلس » ، وأقيم فيها

وفى آخر عرض لنا طلبت للجميع شرابا على حسابى وكانت فكرة الفراق تملؤنى باحساس حزين

الفصل العاشر

ميلاد شخصية الصعلوك

* مشاجرة مع أجمل مخرجة
* علمت السينما كما علمتنى ..!
* أردت أن أضحكهم فأبكيتهم

وصلت الى ارندال — وهى احدى ضــواحى لوس انجلس — فى الصباح

وكانت ضاحية غير متناسقة ، كأنما لم تقرر بعد هل تريد ان تكون منطقة سكنية ، أم منطقة شبه صناعية . ففيها « مغلق » خشب ، وأحواش للروبابيكيا ، ومزارع صغيرة شبه مهجورة بنيت فيها — فى مواجهة الطريق — مخازن خشبية آيلة للسقوط

وبعد عدة استفهامات وجـدت نفسى امام استديو كيستون . وكان مكانا خربا يحيط به سور مربع اخضر ، طول ضلعه خمسون مترا . أما المدخل فيقود اليــه ممر الحديقة من خلال كشك خشبى قديم

كان الوقت وقت الغذاء ، ورأيت رجالا ونســاء يتدفقون بأصباغهم من باب الكشك الخشبى ، ومعهــم حراس الاستديو .. ثم يعبرون الطريق الى محل صغير وينادون على بعضهم البعض بأصوات عالية فظة « هيه .. هانك .. تعال ! » .. قل لسليم ان يتعجل ! » ..

واذا بالخجل يسيطر على فجأة ، فانزوى بسرعة فى أحد اركان مقهى بعيد على مسافة كافيــة . ومضيت أتطلع علنى أرى مستر سينيت خارجا من الكشــك الخشبى . ولكنه لم يظهر . فبقيت نصف ساعة ، ثم قررت العودة الى الفندق

وظللت يومين أذهب الى الاستديو ثم لا أجد فى نفسى الشجاعة للدخول

***

وفى اليوم الثالث اتصل بى مستر سينيت تليفونيا ، يسألنى لماذا لم احضر . فادعيت له عذرا ما . فقال :

ــ تعال حالا . سنكون فى انتظارك

فذهبت واقتحمت الكشك الخشبى بجراة طالبامقابلة المستر سينيت

***

ابدى « سينيت » سروره لمقابلتى ، وأخذنى معه على الفور الى داخل الاستديو . فذهلت ! كان ثمة ضوء ناعم بلا ظلال يسود المسرح ، متدفقا من خلال خيوط عريضة من القماش الابيض الذى يرشح ضوء الشمس .. فيصبغه طابعا أثيريا حالما على كافة الاشياء . وكان هذا الترشيح الضوئى يستخدم للتصوير أثناء النهار

وبعد أن قدمنى « سينيت » الى بعض الممثلين ، بدأت انتبه الى ما يجرى حولى . كانت هناك ثلاثة مناظرمقامة جنبا الى جنب ، تعمل فيها ثلاث شركات مختلفة . فكانت مشاهدتها اقرب الى مشاهدة معرض دولى . وفى أحد هذه المناظر كانت « سابل نورماند » تقرع بابا وهى تصرخ « دعنى أدخل ! » . ثم توقفت الكاميرا وانتهت المسألة ! وما كانت لدى قبل ذلك أدنى فكرة من أن الافلام تصنع هكذا جزءا فجزءا

وفى منظر آخر كان فورد سترلنج العظيم الذى جئت كى أحل محله ، فقدمنى اليه مستر سينيت.وكان فورد سينفصل عن شركة كيستون لكى يؤسس شركته الخاصة مع يونيفرسال . وكان محبوبا الى حد كبير جدا من جانب الجماهير ، ومن جانب كل من فى

الاستديو . فكانوا يحيطون بالمنظر الذى يمثل فيـــه ، ويضحكون بشغف

وانتحى بى المستر سينيت جانبا ، وراح يشرح لى أسلوبهم فى العمل :

ــ اننا لا نكتب اى سيناريو . وانما نبدأ بفكرة . ثم نتبع التطور الطبيعى للاحداث الى أن تقـودنا الى مطاردة .. وهى جوهر كل كوميدياتنا

كانت هذه الطريقة تنمى الخيال ، ولكننى كنت شخصيا اكره المطاردة ، لان فيها تضيع ملامح الشخصية . وانا ــ على قلة معرفتى عنـدئذ بالافلام ــ كنت اومن بأنه لاشىء يفوق الشخصية

ومضيت فى ذلك اليوم اتنقل من منظر الى آخـــر ، اراقب الفرق اثناء عملها . فبدا لى انهم جميعا يقلدون فورد سترلنج . واقلقنى ذلك لان اســـــلوبه لم يكن يلائمنى ..

***

ومضت الايام بعد ذلك وانا لا افعل غير التجول فى الاستديو ، واتساءل فى قلق متى سأبدأ العمــل . وكان يتصادف احيانا ان التقى بسينيت فى البلاتو ، ولكنـــه كان يتخطانى بنظراته ، مشغول البال . وبدأ يداخلنى الاحساس بأنه ربما يرى أنه أخطأ بالتعاقد معى .. وهو احساس لم يكن من شأنه ان يخفف من توتر اعصابى

وصارت راحة بالى تتوقف على سينيت : فاذا رآنى بالصدفة وابتسم تصاعدت امالى . اما بقية الفـــرقة فكان موقفها منى « فلننتظر لنرى » . وان كنت قـــد احسست من البعض انهم يشكون فى قدرتى على الحلول محل فورد سترلنج

واخيرا جاءت اللحظة المرتقبة

كان سينيت غائبا في تصوير خارجى مع مابل فورماند وكذلك كانت مجموعة فورد سترلنج . فـلم يكن فى الاستديو احد تقريبا . وكان هنرى ليرمان - المخرج الاول فى شركة كيستون بعد سينيت - سيبدأ تصوير فيلم جديد ، ويريدنى ان امثل دور مخبر صحفى . وكان ليرمان رجلا مغرورا ، معتزا بأنه أخرج عدة أفلام ناجحة ذات طبيعة آلية . فكان من عادته ان يقول انه ليس فى حاجة الى « شخصيات » .. وانه ينتزع كل ضحكاته بالمؤثرات الحركية وتقطيع الفيلم

ولم تكن لدينا قصة . فالفيلم كان مفروضا أن يكون فيلما تسجيليا عن مطابع الصحف، محلى ببعض اللمسات الكوميدية . وارتديت بدلة غالية وشاربا رفيعا متدليا . وعندما بدأنا العمل لاحظت ان ليرمان يتلمس الافكار . ولما كنت جديدا فى كيستون ، فقد كنت بالطبع متلهفا الى تقديم الاقتراحات ، ومن هنا نشأ التصادم بينى وبين ليرمان . ففى منظر اقوم فيه باجراء حديث مع محرر احدى الصحف اضفت من عندى كافة «التصرفات» التى خطرت على بالى ، وتماديت الى حد اقتراح تصرفات لباقى الممثلين . ومع اننا فرغنا من الفيلم فى ثلاثة ايام ، فاننا - فى اعتقادى - نجحنا فى تزويده بعدد من التصرفات المضحكة جدا . ولكننى عندما رأيت الفيلم فى صورته النهائية أحسست بقلبى يتمزق .. اذ وجدت ان « المونتير » قد ذبحه وغير معالمه ، منتزعا منه كافة تصرفاتى المضحكة . وتملكتنى الحيرة واننا اتساءل لماذا فعلوا ذلك . وبعد سنوات من هذه الحادثة اعترف ليرمان بأنه فعل ذلك عمدا ، لانه على حد تعبيره - رأى أننى اعرف اكثر مما يجب

وعاد سينيت من التصوير الخارجي بعد ان انتهى عملي مع ليرمان بيوم واحد . وكان فورد سترلنج يعمل فى أحد المناظر ، وآربو كل فى منظر آخر ، والمكان مزدحم بثلاث فرق مشغولة . وكنت فى تلك اللحظة بثيابى العادية ، وليس لدى ما افعله ، فوقفت حيث يستطيع سينيت ان يرانى . وكان عندئذ واقفا مع مابل ، يتأمل منظرا يمثل ردهة فندق ، ويعض طرف السيجار الذى فى فمه وهو يقول :

ـ اننا نحتاج الى بعض التصرفات هنا

ثم تحول الى قائلا :

ـ ضع أى ماكياج مضحك ... أى شيء يخطر ببالك ..

ولم تكن لدى عندئذ ادنى فكرة عن صورة الماكياج الذى يحسن ان اضعه . ولم اكن مرتاحا الى الصورة التى ظهرت بها كمخبر صحفى . على اننى فى طريقى الى غرفة الملابس خطر ببالى ان ارتدى بنطلونا منتفخا ، وحذاء ضخما ، وعصا ، وقبعة « دربى » . وفكرت ان يكون كل من هذه الاشياء مناقضا للاخر : فالبنطلون منتفخ والجاكتة ضيقة ، والقبعة صغيرة والحذاء ضخم . وترددت فى البداية هل ابدو صغيرا أم كبيرا فى السن . ولكنى عندما تذكرت أن سينيت كان يتوقع ان أكون أكبر مما أنا ، أضفت الى وجهى شاربا صغيرا راعيت أن يزيد من سنى دون أن يخفى تعبيرات ملامحى .

ولم تكن لدى أيضا أدنى فكرة عن الشخصية التى سأظهر بها . ولكننى فى اللحظة التى فرغت فيها من اعداد نفسى ، أوحت الى الثياب والمكياج بطبيعة هذا الشخص الذى سأمثله . وبدأت أعرفه . وما كدت أصل الى البلاتوه حتى كان قد ولد . فلما واجهت سينيت تقمصت

الشخصية ، ومضيت أمشي متخايلا ، وعصاى تتأرجح فى يدى ، عارضا نفسى امامه .. بينما رأسى تتزاحم وتتدفق التصرفات والافكار المضحكة ..

وكان سر نجاح ماك سينيت هو حماسه . فقد كان هو نفسه متفرجا ممتازا ، يضحك من اعماقه لكل ما يراه طريفا . وهكذا وقف ـ وهو يتفرج على ـ حتى اهتـــز بدنه كله . وشجعنى ذلك فبدات أشرح له الشخصية :

ـ انه كما تعلم رجل ذو جوانب متعددة . فهو افاق ، ومهذب ، وشاعر ، وحالم ، وهو وحيد فى الحياة ، ولكنه يأمل فى ان يحب ، ويغامر . وهو يستطيع ان يوهمك بأنه عالم ، او موسيقى ، أو دوق ، او لاعب بولو . ومع ذلك فهو لا يتعفف عن التقاط اعقاب الســـجائر ، او خطف الحلوى من الاطفال . ومن الممكن بالطبع ـ اذا اقتضت الظروف ـ ان يضرب امرأة بالشلوت .. ولكنه لا يفعل ذلك الا فى أقصى حالات غضبه !

***

عشر دقائق وانا مسترسل فى الوصف بهذه الطريقة وسينيت لا يكف عن الضحك . واخيرا قال :

ـ عظيم ٠٠ ادخل المنظر ولنر ماذا يمكنك ان تفعل

وكما كان الحال فى فيلم ليرمان ، لم أكن اعــــرف عن القصة الا انها حول مشكلة تجمع ما بين مابل نورمان ، وزوجها ، وعشيق

وفى كافة الاعمال الكوميدية لا يوجد ما هو أهـــم من اختيار « السلوك » . ولكن ليس من السهل دائما انتقاد هذا السلوك . على اننى وانا اجتاز ردهة الفندق شعرت بأنى رجل مدع يتظاهر بأنه واحد من الضيوف ، ولكنــه فى حقيقته أفاق يبحث عن مأوى ٠ فلما دخلت تعثــرت

فى ساق احدى السيدات ، وتحولت اليها معتذرا برفع قبعتى . ثم تحولت وتعثرت مرة أخرى فى احدى قطع الاثاث ، فنظرت الى قطعة الاثاث ورفعت لها أيضا قبعتى

وبدأ الواقفون وراء الكاميرا يضحكون

وتجمع زحام كبير هناك ، لا من ممثلى الفرق الاخرى ـ الذين تركوا عملهم للفرجة علينا ـ وحدهم ، وانما ايضا من مساعدى البلاتوه ، والنجارين ، وقسم الملابس فكان هذا اطراء لاشك فيه

وعندما انتهت البروفة كان قد تجمع جمهور كبير يضحك . وسرعان ما لمحت فورد سترلنج يسترق النظر من فوق اكتاف الاخرين .. وعرفت عندئذ أنى أجدت ..

وعندما ذهبت الى غرفة الملابس فى نهاية ذلك اليوم وجدت هناك فورد سترلنج وروسكو ارباكل يزيلون الماكياج . ولم نتبادل الا حديثا عاديا ، ولكن الجو كان مشحونا بتيارات تحتية . ومع ان كلاهما ابدى الاعجاب بى ، الا اننى احسست بوضوح انهما يعانيان صراعا داخليا ..

كان المنظر الذى صورناه طويلا ، يبلغ خمسا وسبعين قدما .. فنشب الجدل فيما بعد بين سينيت وليرمان حول امكان عرضه كاملا ، اذ كان المعتاد ألا يزيد طول المشهد الكوميدى فى المتوسط على عشر أقدام

وقلت لهما :

ـ اذا كان طريفا ومضحكا .. فما اهمية الطول ؟

فقررا عرضه كاملا

ولما كانت ثيابى قد شحنتنى تماما بروح الشخصية التى مثلتها ، فقد قررت عندئذ ، وفى نفس اللحظة والمكان ، أن التزمها من الآن فصاعدا .. ومهما حدث



شخصية الصعلوك ٠٠ ولدت فى لحظة

وفى ذلك المساء عدت الى البيت فى عربة الترام بصحبة أحد ممثلى الادوار الصغيرة ·· فقال لى :

ــ اسمع .. لقد بدأت شيئا جديدا ! فما من احد قبل ذلك انتزع مثل هذه الضحكات أثناء التصوير . ولا حتى فورد سترلنج · وآه لو رأيت وجهه وهو يتفرج عليك . كان شيئا يستحق التأمل !

فقلت محاولا ان اكبت غبطتى الشديدة :

ــ فلنأمل ان يضحك الجمهور بنفس الطريقة فى السينما ..

***

كانت الشخصية التى ابتدعتها مختلفة تماما ، وغير مألوفة ، عند المتفرج الامريكى ــ بل وعندى انا شخصيا. ولكننى فى ملابس التمثيل كنت أشعر انها حقيقة ، وانها شخص حى موجود . والواقع ان هذا الشخص كان يستثير عندى كافة الوان الافكار الخرقاء التى ما كانت تخطر على بالى الا بعد ان ارتدى ملابس وماكياج « الافاق » ··

وانعقدت صداقة قوية بينى وبين احد ممثلى الادوار الصغيرة . فكان يزورنى كل ليلة ــ ونحن عائدان فى عربة الركاب ــ بنشرة اخبارية عن رد فعل الاستديو أثناء النهار ، وما دار من احاديث حول افكارى الكوميدية : « كان تصرفا رائعا غمس اصابعك فى اناء غسل الايدى ثم تنشيفهما فى لحية الرجل العجوز ، انهم هنا لم يروا مثل هذه الاشياء قبل ذلك أبدا ·· » وهكذا يظل يستطرد الى أن يجعلنى أمشى على السحاب ··

***

وكنت ارتاح كثيرا الى العمل تحت اشراف سينيت ،

لانه كان يدع كل شيء يولد تلقائيا فى البلاتوه . ولما لم يكن أحد يبدو واثقا من نفسه ـ ولا حتى المخرج ـ فقد كنت استخلص من ذلك اننى اعرف بقدر ما يعـــرف الاخرون وكان هذا يزودنى بالثقة فى نفسى ، ويدفعنى الى تقديم الاقتراحات التى كان سينيت يقبلها بارتيـــاح . وهكذا نما فى نفسى الاعتقاد بأننى املك موهبة الخلق ، واستطيع ان اكتب قصصى بنفسى ، ولا شك ان سينيت هو الذى اوحى الى بهذا الاعتقاد . ولكننى ـ برغم ارضاء سينيت ـ كان ما يزال باقيا على ارضاء الجمهور

ففى هذا الوقت ، كان يعرض فى المدينة الفيلم الذى أخرجه لى سينيت « نبوءة مابل العجيبة » . فذهبت خائفا مضطربا لأشهده مع الجمهور . وكانت العادة ان يستقبل ظهور فورد سترلنج بموجة من الحمـــاس والضحك ، اما انا فاستقبلت بصمت قاتل ، ومرت كافة الضحكات التى نفذتها فى منظر ردهة الفنـــدق دون ان تنتزع ابتسامة من احد . على انه مع استمرار العرض بدأ الجمهور يتضاحك ، ثم يضحك ، وقرب نهاية العرض رنت الصالة بضحكة او ضحكتين عاليتين . ومن هـــذه التجربة عرفت ان الجمهور بطبيعته لا يعطف على قـادم جديد ..

***

أصبح عدد الافلام التى مثلتها خمســة ، وتمكنت فى بعضها أن أحشو من عندى لمحة أو لمحتـين من التصرفات الكوميدية .. بالرغم من الجزارين المتربصين فى معمـــل التقطيع « المونتاج » . ولما كنت قد الفت اســـلوبهم فى القطع ، فقد اعتدت ان ابتكر تصرفات وحيلا كوميديــة تصاحب دخولى الى المنظر وخروجى منه . عالما من انهم

لن يتمكنوا من بترها ، كما انني انتهزت كل فرصة ممكنة لاتعلم أسرار المهنة ، وصرت دائم التردد على المعامل وغرف المونتاج ، لاراقب المونتير وهو يلصق الاجزاء بعضها ببعض ..

ثم بدأت اتلهف على كتابة واخراج افلامي بنفسي . وخاطبت في هذا الشأن ماك سينيت . ولكنه أبى أن ينصت الى .. وعهد بي بدلا من ذلك الى مابل فورماند التي كانت قد بدأت تخرج افلامها لاول مرة . واحرجني ذلك لانني - برغم فتنة مابل - كنت أشك في كفاءتها كمخرجة ، وكانت النتيجة انه منذ اليوم الاول ، وقع الانفجار الفني الذي كان لا مفر منه ..

كنا نقوم بتصوير خارجي في ضواحي لوس أنجلس ، وفي احد المناظر طلبت مابل ان امسك خرطوما أرش به الطريق بقصد ان تتعثر في هذا الخرطوم سيارة الشرير . فاقترحت عليها ان اقف بقدمي على الخرطوم بحيث ينقطع تدفق الماء منه ثم أطل بعيني في بوز الخرطوم واخطو دون وعي مبعدا قدمي عنه . فينبثق الماء في وجهي . غير انها اسكتتني على الفور قائلة :

- لا وقت لدينا ! لا وقت لدينا ! افعل ما يطلب منك ..

فكان هذا كافيا ، اذ لم استطع ان اتحمل ذلك ، ومن مثل هذه الفتاة الجميلة .. وقلت :

- آسف يا مس نورمان .. انني لن افعل ما يطلب مني .. ولست أظن انك من الكفاءة بحيث تقولين لي ماذا يجب ان أفعل ..

وكان المنظر في عرض الطريق فتركته وجلست على الرصيف ، مسكينة « مابل» الحلوة ! كانت في ذلك الوقت لم تتجاوز العشرين ، جميلة ، ساحرة ، معبودة الجميع ،

والجميع يحبونها ، وها هى الان تجلس بجوار الكاميرا مذهولة .. اذ لم يسبق على الاطلاق ان خاطبها احد بمثل هذه الطريقة المباشرة ، وقد كنت انا ايضا متأثرا بجمالها وفتنتها، وفى قلبى ضعف خفى تجاهها .. ولكن هــــذا كان عملى . والتف العاملون والممثلون على الفور حــــول مابل ، وراحوا يتبادلون الرأى . واراد اثنــــــان من الكومبارس ـ كما اخبرتنى مابل فيما بعد ـ ان يضربونى علقة ، ولكنها منعتهم . ثم ارسلت الى مساعد المخرج يسألنى ان كنت على استعداد لاستئناف العمل . فعبرت الطريق الى حيث تجلس . وقلت لها معتذرا :

ـ اننى آسف . كل ما فى الامر اننى لا ارى المنظــــر مضحكا او مسليا ، ولكن اذا سمحت لى بأن اقدم بعض الاقتراحات الكوميدية ..

فلم تجادل .. وقالت :

ـ حسن . ما دمت لا تريد ان تفعل ما يطلب منك ، فلنعد الى الاستديو

ومع ان الموقف كان بالغ الحرج . فاننى كنت مصمما على موقفى ، فهززت كتفى بغير اكتراث

وفى الاستديو ، دخل على سينيت مندفعا الى غــرفة الملابس وانا ازيل الماكياج عن وجهى ، وصاح :

ـ ما معنى ذلك بحق الجحيم ؟

فحاولت ان اشرح له الامر :

ـ ان القصة فى حاجة الى تصرفات .. ولــــكن مس نورماند ترفض الاستماع الى أى اقتراح ..

قال سينيت :

ـ اما ان تفعل ما يطلب منك واما ان تخرج من هــذا المكان .. عقد أو لا عقد

فأجبت بهدوء شديد :
ـ مستر سينيت .. لقد كنت اكسب خبزى وملحى قبل أن أجيء الى هنا .. فاذا تقرر فصلى ، فليكن . ولكن لى ضميرا ، وعندى لهفة لا تقل عن لهفتك الى عمل فيلم جيد ..
فصفق الباب وراءه دون كلمة اخرى ..

***

فى ذلك المساء ، وأنا فى طريقى الى البيت فى عربة الركاب ، رويت لصديقى ما حدث . قال لى :
ـ خسارة . لقد كنت تتقدم تقدما عظيما لديهم فى الفترة الماضية
قلت بلهجة متعالية ، لكى اخفى عنه قلقى :
ـ اتظن انهم سيفصلوننى ؟
ـ لن يدهشنى ذلك على الاطلاق ، فقد كان يبدو مجنونا بالغيظ عندما رأيته خارجا من غرفة ملابسك
ـ حسن ، لا بأس عندى . ان تحت حزامى الفا وخمسمائة دولار ، وهى اكثر مما احتاج اليه لدفع تذكرة عودتى الى انجلترا ، ولكنى على اية حال سأذهب غدا ، فاذا لم يكونوا فى حاجة الى ف .. هــه .. تلك هى الحياة !
وكان هناك تكليف بالعمل فى الثامنة من صباح اليوم التالى ، فلم ادر ماذا يجب ان افعل ، ولبثت فى غرفتى دون ما كياج ، واذا بوجه سينيت يطل على من الباب قبل الثامنة بعشر دقائق :
ـ شارلى ، اريد ان اتكلم معك تعال الى غرفة مابل .
وكانت لهجة ودودا الى حد يثير الدهشة ، فقلت :
ـ حاضر يا مستر سينيت

وتبعته .. ولكن مابل لم تكن هناك وانما كانت في صالة العرض تشاهد بعض اللقطات ..

وقال ماك :

ـ اسمع . ان مابل معجبة كثيرا بك .. وكلنا ايضا معجبون بك . وتؤمن بأنك فنان ممتاز

وأدهشني هذا التحول المفاجيء منه . وبدات الين على الفور .. وقلت :

ـ انني بالطبع أحمل تجاه مابل نورماند أكبر قدر من الاحترام والاعجاب ولكنني لا أظن انها كفء للاخراج .. ثم انها صغيرة السن جدا

فقال سينيت وهو يربت على كتفي :

ـ مهما كان رأيك .. فحاول أن تبتلع كبرياءك وتتعاون معها ..

ـ ولكن هذا بالضبط هو ماكنت احاول

ـ حسن ، سايرها بقدر ما تستطيع

قلت له :

ـ اسمع . لو تركتني أخرج أفلامي لما عادت لديك مشكلة

فصمت لحظة . ثم قال :

ـ ومن الذي يدفع تكاليف الفيلم اذا لم نتمكن من توزيعه ؟

فأجبته :

ـ سأدفع انا . سأودع ألفا وخمسمائة دولار في اي بنك . فاذا لم تستطع توزيع الفيلم تسترد نقودك

ولبث ماك لحظة يفكر . ثم قال :

ـ ألديك قصة ؟

ـ بالطبع . قصص بأي عدد تشاء ..

ـ حسن ، اكمل هذا الفيلم مع مابل . وسنرى بعد ذلك ..

وتصافحنا بروح بالغة الود

وذهبت فيما بعد الى مابل ، واعتـذرت لها ، ودعانا سينيت فى تلك الليلة للعشاء ، وفى الصباح التالى ما كان يمكن أن تكون مابل اعذب من ذاك . حتى انها جاءت تطلب منى أفكارا واقتراحات . وهكذا ـ لدهشة المصـــورين وباقى الممثلين ـ أكملنا الفيلم بروح طيبة

على أن تحول سينيت المفاجىء كان يحيرنى . ولم أعرف السبب الا بعد شهور ، فقد كان سينيت فيما يبدوعازما على فصلى فى نهاية الاسبوع ، ولكنه فى الصباح التالى ليوم مشاجرتى مع مابل تلقى برقية من مكتبه فى نيويورك ، تطلب منه على وجه الاستعجال مزيدا من افــلام شابلن بسبب زيادة الطلب المذهل عليها فى السوق.

وكان متوسط النسخ التى يوزعها اى فيلم من أفلام كيستون فى ذلك الوقت عشرين نسخـــة . وكان توزيع ثلاثين نسخة يعد نجاحا كبيرا . ولكن الفيلم الاخير ، وهو رابع فيلم لى ، بلغ عدد نسخه الموزعة خمسا وأربعـين نسخة .. وكان الطلب على نسخ أخرى مازال يتزايد . وكان هذا سر تودد ماك بعد تلقى البرقية

كانت قواعد الاخراج بسيطة فى تلك الايام . فما على الا أن اعرف يمينى من يسارى من أجل الدخول والخروج . فاذا خرج الانسان من اليمين فى أحد المناظر ، دخل من اليسار فى المنظر التالى . واذا خرج بوجهه الى الكاميرا دخل فى المنظر التالى بظهره اليها . وهى قواعد كانت ـ بالطبع ـ أولية جدا ..

ولكنى عندما شرعت اخرج اول افلامى .. لم اكن واثقا

من نفسى بالقدر الذى كنت أظن ، بل لقـــد داهمتنى فى الحقيقة نوبة من الذعر . ثم شعرت ببعض الاطمئنان بعد أن اطلع سينيت على عمل اليوم الاول . وكان اسم الفيلم (سجين المطر) . ولم يكن تحفة عالمية ، ولكنه كانمضحكا وناجحا الى حد كبير . وعندما فرغت منه كنت متلهفا الى معرفة رأى سينيت . وانتظرته وهـــو خارج من غرفة العرض فاذا به يقول لى :

ـ حسنا . هل أنت مستعد لبدء فيلم آخر ؟

ومنذ ذلك اليوم كتبت وأخرجت جميع أفلامى . وكان سينيت يمنحنى علاوة ـ من باب التشجيع ـ مقدارها خمسة وعشرون دولارا عن كل فيلم . والواقع انه تبنانى من الناحية العملية . فكان يصحبنى كل مساء الى العشاء ويناقش معى قصص افلام الفرق الاخـــرى فاقترح لها أفكارا مجنونة يخيل الى إنها أكثر (خصوصية) من ان يفهمها الجمهور . ولكن سينيت كان يضحك لها ، ويوافق عليها ..

واصبحت الان ـ حين أشـــهد أفلامى مع الجمهور ـ الاحظ رد فعل مختلفا وما كان اجملها من مكافأة تلك الموجة من السرور التى تشمل القاعة بمجرد ظهور عنوان (افلام كيستون) .. وتلك الصيحات المبتهجـــة التى تستقبل ظهورى حتى قبل أن أفعل أى شيء . فلقد صرت اثيرا لدى الجمهور . ولم اكن لاطمع فى شيء اكثر من ان أواصل حياتى هكذا .. اذ كنت بالعلاوة التى اقبضهـا احصل على مائتى دولار فى الاسبوع

تعلمت الكثير من (كيستون) . وعلمتها انا الكثير . ففى تلك الايام لم يكونوا يعرفون الا قليلا عن (التكنيك) او الحرفية ، او الحركة .. او غير ذلك مما نقلته اليهم من

المسرح . كذلك لم يكونوا يعرفون الا قليلا عن التمثيـــل الطبيعى الصامت . فعند تكوين اى منظر كان المخرج يضع ممثليه سواء كانوا ثلاثة او اربعة فى خط واحد ، ويوقفهم بصفاقة فى مواجهة الكاميرا . ثم يبدأ احدهم يمثل (اريد ان اتزوج ابنتك) بأن يشير الى نفسه ، ثم الى اصبع يده اليسرى (حيث توضع الدبلة) ، ثم الى الفتاة ! كل ذلك بأكثر الحركات فظاظة ومبالغة

ولم يكن مثل هذا التمثيل ينطوى على أى ذكاء ، أو فعالية ، فبرزت انا كشىء مختلف ـ ايام تلك الافلام الاولى ـ اننى أملك ميزات كثيرة ، واننى ارتاد كعالم الجيولوجيا منطقة غنية لم تستكشف بعد . اعتقد أن تلك كانت اكثر فترات حياتى اثارة ، لاننى فيها كنت على عتبة شىء جديد رائع ..

ولما كان النجاح يجعل الانسان محبوبا ، فقد أصبحت الصديق القريب الى كل من فى الاستديو . فالجميـــع ينادوننى باسم (شارلى) ، من الكومبارس ، الى مساعدى البلاتوه ، الى قسم الثياب ، الى رجال التصوير

والان صارت عندى ثقة بالغة فى أفكارى . واعتقد اننى مدين بذلك الى سينيت . فمع انه كان مثلى غير مثقف ، فانه كان يؤمن بذوقه الخاص . وزرع فى نفسى أنا أيضا مثل هذا الايمان . كما ان طريقته فى العمل زادتنى ثقة ؛ وبدت لى طريقة صائبة . وكان مما حرك خيالى ملاحظته التى أبداها لى فى أول يوم ذهبت فيه الى الاستديو : اننا لا نضع سيناريو . وانما نبدأ بفكرة ، ثم نتبع التطــــور الطبيعى للاحداث

خذ مثلا فيلم (ماقبل التاريخ) اذ لم يكن فى ذهنى عندما بدأت العمل فيه غير تصرف واحد . هو ان اظهر فى صورة

الانسان الاول مرتديا فرو الدب ، ثم استعرض بعيني المكان وانا انتزع الشعر من الفرو واحشد به غليوني . كانت مثل هذه الفكرة تكفي وحدها لالهامنا قصة عما قبل التاريخ ، يدخل فيها بعد ذلك الحب ، والمنافسة ، والصراع ، ثم المطاردة . وكانت هذه هي الطريقة التي نعمل بها جميعا في كيستون

مازلت أذكر أول مرة رغبت فيها أن أضيف مبدأ آخر الى افلامي بالاضافة الى الكوميديا ، كنت امثل فيلما اسمه (البواب الصغير) . وكان المدير في هذا المنظر يطردني من العمل،وأثناء مناشدتي إياه أن يشفق علي ويدعني محتفظا بوظيفتي ، شرعت أمثل في رجاء ان لي اسرة كبيرة من الاطفال الصغار . ومع انني كنت أصور هذا الرجاء تصويرا كاريكاتيريا ، فانني التفت اثناء البروفة فاذا بالممثلة العجوز دوروثي رافنبورت ــ وكانت تتفرج على من جانب البلاتوه ــ تنفجر باكية بالدموع ، وتقول لدهشتي الشديدة :

ــ اعرف ان المفروض ان يكون هذا مضحكا . . ولكنك تجعلني أبكي

فأكدت لي بهذا شيئا كنت أشعر به بالفعل : وهو ان عندي القدرة على انتزاع الدموع والضحكات سواء بسواء

كانت علاقتي بماك سينيت سببا في أن أرى مابل كثيرا . فقد كانت عادتنا نحن الثلاثة ان نتناول عشاءنا معا ، ثم يغط ماك في النوم وهو جالس في ردهة الفندق ، فنخرج نحن الاثنان معا لمشاهدة الافلام او الجلوس في المقهى ، ثم نعود ونوقظه . وقد يبدو أن مثل هذا التقارب المستمر لابد ان ينتهي الى غرام ، ولكن ذلك لم يحدث . وظللنا ــ للاسف ــ مجرد أصدقاء

مرة واحدة حدث اننا كدنا نستسلم لنوبة عاطفيه ..
وكان ذلك يوم ذهبت انا ومابل وروسكو ارباكل لحضور مناسبة خيرية فى أحد مسارح سان فرانسسكو . كانت سهرتها فاتنة ، كان ظهورنا فى المسرح نجاحا كبيرا لنا . ونسيت مابل معطفها فى غرفة الثياب فطلبت منى ان احضره لها ، بينما كان ارباكل والاخرون ينتظروننا فى العربة خارج المسرح . وهكذا وجدنا انفسنا وحدنا للحظة قصيرة . وكانت مابل تشع بالجمال فى تلك الليلة ، فلما وضعت المعطف حول كتفيها قبلتها .. واستجابت لقبلتى . وكان من الممكن أن نتمادى ، لولا انهم كانوا ينتظروننا فى الخارج

وحاولت فيما بعد أن أتابع ما بدأنا . ولكن ذلك لم يؤد الى شيء . فقد قالت لى بروح ودية :

ــ لا ياشارلى . اننى لست من طــرازك، ولا انت من طرازى ..

***

كنا فى عام ١٩١٤ .. وانا فى الخامسة والعشرين من عمرى ، متفجرا بالشباب والحيوية ، مغرما بعملى الى حد العشق : لا لمجرد النجاح ، ولكن لما فيه من سحر ، وبما يتيحه لى من معرفة جميع نجوم السينما الذين كنت من أشد المعجبين بهم . مارى بيكفورد ، بلانش سويت ،ميريام كوبر ، كلارا كمبال يونج ، اخوات جيسن .. وكن جميعــا جميلات ، ومقابلتهن وجها لوجه يشعر الانسان بأنه فى الجنة ..

على أن خفقة قلبى الاولى كانت من أجل (بيجى بيرس) .. وهى فتاة غير عادية الجمال ، لها ملامح نحتت بكل دقة ، وعنق جميل ابيض ، وقوام منــــير . ولم تكن قد

ظهرت فى كيستون الا بعد ثلاثة اسابيع من وجودى هناك ، اذ كانت مصابة بنوبة برد . ولكن الشرارة اشتعلت بمجرد ان تلاقينا . وغر قلبى عندما وجدتها تبادلنى نفس الاحساس . وما كان أجمل كل صباح ونحن نتجه الى الاستديو وكل منا يتوقع أن يرى الآخر

وفى ايام الاحاد كنت أزورها فى بيت والديها . وفى كل ليلة كان قسم جديد بالحفاظ على عهد الحب ، وفى كل ليلة كان صراع عنيف . نعم كانت بيجى تحبنى ، ولكن لم يكن لهذا الحب مستقبل . فأنا لا اريد ان أتزوج . والتحرر من القيود مغامرة . وما كانت هناك امرأة تستطيع أن تماشى الصورة الغامضة التى فى ذهنى عن الحب

***

كان كل استديو فى تلك الايام يعمل كأنه أسرة . والافلام يتم اعدادها فى نفس الوقت واعرف انها ستكون قصيرة العمر . . وكنت أعتقد اننى ــ بكثرة الانتاج هذه ــ سرعان ما أجف خلال اسبوع . وأطول الافلام الروائية لا يستغرق اكثر من اسبوعين او ثلاثة . وكنا نعمل فى ضوء النهار ، وهذا هو السبب في اختيار كاليفورنيا : اذ كان معروفا أنها تتمتع بتسعة أشهر مشمسة فى العام

وظهرت مصابيح كليج فى عام ١٩١٥ ولكن كيستون لم تستخدمها ابدا ، لان ضوءها كان يختلج ، ولم يكن ساطعا كضوء الشمس . . فضلا عن أن ترتيب المصابيح كان يستغرق وقتا طويلا . وافلام كيستون كان نادرا أن تستغرق اكثر من اسبوع . بل لقد أخرجت فيلما كاملا ذات مرة فى نصف يوم . . اسمه (عشرون دقيقة من الحب) . . وكان يثير ضحكا متواصلا طول الوقت . اما فيلم (الديناميت) فقد استغرق تسعة ايام ، وتكلف ألفا

وثمانمائة دولار . ولما كنت قد تجاوزت بذلك حدود الميزانية المقررة (وهى ألف دولار) فقد خصمت منى علاوة الخمسة والعشرين دولارا . وقال سينيت ان الطريقة الوحيدة لموازنة العجز هى توزيعه (كفيلم ذى لفتين) فلما فعلوا ذلك حققوا به ايرادا يزيد على مائة وثلاثين ألف دولار فى العام الواحد !

وكنت قد أصبحت الان أملك عددا كبيرا من الافلام الناجحة ، من بينها (عشرون دقيقة من الحب ، والديناميت ، و « فصولات مضحكة » و « مساعد المسرح »

وحوالى هذا الوقت بدأ سينيت يتحدث فى مسألة تجديد عقدى ، ويطلب ان يعرف شروطى . وكنت اعرف الى حدمامدى شهرتى ، ولكنى أعرف انها لن تدوم طويلا . فكان على اذن أن أحصد الثمار قبل ان تغيب الشمس . وقلت وانا اعنى ما أقول :

ـ أريد الفى دولار فى الاسبوع !

وذهل سينيت . وقال لى :

ـ ولكننى لا احصل انا نفسى على ألف دولار !

ـ أعلم ذلك . ولكن طوابير الناس لا تقف أمام شباك التذاكر عندما يظهر اسمك ، كما تقف عندما يظهر اسمى

ـ ربما . ولكنك بغير المساندة من جهازنا يمكن أن تنتهى . انظر ماذا حدث لفورد سترلنج

وكان هذا صحيحا ، لان فورد لم يحقق نجاحا كبيرا منذ انفصاله عن كيستون . ولكننى قلت لسينيت :

ـ اننى لا أحتاج لكى أصنع فيلما الى اكثر من حديقة عامة ، وعسكرى بوليس ، وفتاة جميلة

والواقع اننى كنت قد صنعت بالفعل واحدا من أنجح أفلامى بمجموعة كهذه

وابرق سينيت الى شريكيه فى ذلك الوقت ـ كيسيل

وبادمان ـ طالبا رأيهما بشأن العقـــد والشروط التى أطلبها . ثم جاء بعد ذلك باقتراح :

ـ اسمع . مازال باقيا على عقدك الخاص اربعة أشهر. فلنمزقه ، ونعطيك من الان خمسمائة دولار فى الاسبوع، ثم سبعمائة فى العام التالى ، ثم الفا وخمسمائة فى العام الذى يليه وبهذه الطريقة تكون قد حصلت على الالف دولار أسبوعيا . . كما تطلب ، فأجبته :

ـ ماك . اذا عكست الامر وأعطيتنى ألفا وخمسمائة فى العام الاول ، ثم سبعمائة فى العام الثانى ، ثم خمسمائة فى العام الثالث . . فاننى سأقبل

قال ماك : « ولكن هذا جنون »

وهكذا لم نعد نفتح الحديث فى امر العقد الجديد

بقى شهر واحد على انتهاء عقدى مع كيستون ، دون ان تتقدم شركة اخرى بأى عرض لى ، فبدأت أقلق . وفى اعتقادى انسينيتكان ينتظرلاستغلالالفرصة المناسبة. فقـد كانت عادته كلمـــا انتهيت من فيـلم أن يأتى الى ويستحثنى مازحا ان أبدأ غيره . اما الان ، فانه برغـم بقائى أسبوعين بغير عمل ، ظل يتجنبنى ، وكان ســلوكه نحوى مهذبا ، ولكن مترفعا فى نفس الوقت

على اننى بالرغم من ذلك لم أفقـد ثقتى بنفسى . فأنا أستطيع ـ اذا لم يتقدم احد بعرض مناسب ـ ان ادخـل ميدان العمل بنفسى ، ولحسابى . لم لا ؟ اننى واثق من نفسى ، ومعتمد عليها . ومازلت أذكر اللحظة التى انبثق فيها هذا الخاطر فى ذهنى : فقد كنت عندما فكرت فيــه مستندا الى حائط الاستديو ، اكتب استمارة لطلب بعض المشتريات

وكان سيدنى قد التحق ـ عن طريقى ـ بشركة كيستون،

وأخرج عدة افلام ناجحة . منها فيلم أسمه « فرسان الفواصات » ضرب الرقم القياسى ، واستخدم فيه سيدنى كافة خدع الكاميرا . وبناء على هذا النجاح خاطبته فى شان الاشتراك معى وتأسيس شركتنا الخاصة . وقلت له : « لسنا فى حاجة الى أكثر من كاميرا ، وفناء خلفى »

ولكنه راى فى الامر مغامرة أكبر مما يجب . وأضاف قائلا : «فضلا عن ذلك فاننى لا ارتاح الى التخلى عن مرتب ثابت اكبر من كل ماكسبته فى حياتى ..

وهكذا استمر سيدنى عاما اخر مع شركة كيستون

ثم تلقيت ذات يوم مكالمة تليفونية من «كارل لايمل» من شركة يونيفرسال ، يعرض فيها التعاقد معى على ستة قروش لكل ٣٠ سنتيمترا من افلامى ، على أن تمولها الشركة . ولكنه لم يقبل التعاقد على ألف دولار فى الاسبوع ، فلم تثمر المباحثات شيئا

ثم جاء شاب يدعى جيس روبنز — وكان يمثل شركة ايساى — وقال انه سمع بأننى أطلب عشرة آلاف دولار عربونا قبل توقيع أى عقد ، وألفا ومائتى دولار فى الاسبوع . فكان هذا بالنسبة لى نبأ لا اعرفه . ولم أكن قد فكرت قبل ذلك فى مسألة العربون هذه الى أن ذكرها هو .. فصارت منذ هذه اللحظة السعيدة فكرة ثابتة فى رأسى

ولكن ، يا للخسارة ! ففى اليوم التالى جاء روبنز يسلمنى شيكا بستمائة دولار فقط ..

وبالرغم من ان هذا اثار شكوكى ، الا اننى فضلت ان اغرقها فى التفاؤل . وكان قد بقى على عقدى مع كيستون أسبوعان . فكان اتمام فيلمى الاخير «ماضيه قبل التاريخ» عبئا على أعصابى .. لانه كان من الصعب أن أركز تفكيرى فى العمل وكل هذه العروض والمسائل التجارية تحيط بى . على ان الفيلم انتهى اخيرا على اية حال ..

الفصل الحادى عشر

وتدفق الذهب

* في الطريق الى المشنقة
* تعاقدت مع فتاة لمجرد الزينة
* مفاجأة في قطار نيويورك
* في كل محطة مظاهرة

كان صعبا على نفسى أن اترك كيستون ، اذ كنت احب كثيرا سينيت ، وكل من يعمل هناك

لهذا لم أستطع ان أودع اى انسان . بل حدث كل شيء بطريقة قاسية فى بساطتها : اذ أتممت مونتاج الفيلم مساء السبت ، وسافرت يوم الاثنين مع المستر اندرسون الى سان فرانسســـــكو .. حيث كانت فى انتظارنا عربته المرسيدس الفخمةالخضراء . ولمنتوقف الا لتناول الغداء فى فندق « سان فرانسيس » ، ثم ذهبنا الى « النايلز » .. حيث يملك اندرسون الاستديو الصغير الخاص الذى كان يخرج فيه لحساب شركة ايسو أفلام رعاة البقـر المعروفة بأفلام « برونكو بيلى » . ومن هنـــاك استأنفنا السفر معا الى سان فرانســكو مرة اخرى ، ثم ركبنا الى شيكاغو

ووجدت نفسى أميلالى اندرسون ، فقد كانتله جاذبية من نوع خاص . وفى القطار كان يرعانى كأنه أخى ، وفى كل محطة يشترى الصحف والحلوى . ولكنه كان خجولا ، بالرغم من انه بلغ الاربعين . فاذا تطرق الحــــديث الى مســائل العمل قال بثقة :

ــ لا تقلق بالا الى ذلك . سيكون كل شيء على مايرام

وكان قليل الكلام . يبدو دائما مشغول البال . وان كنت قد أحسست أن وراء ذلك خجلا طبيعيا فيه

كانت الرحلة ممتعة . وكان في القطار ثلاثة رجال لفتوا نظرنا اول مرة فى عربة الطعام : اذ كان اثنان منهم يبدوان على قدر كبير من الثراء ، بينما يبدو الثالث فى غيرموضعه .. رجلا من العامة ، خشن المظهر . فكان يبدو غريبا أن يتناولوا الطعام معا . وفسرنا نحن الامر بأن الرجلين من المهندسين ،والثالث عامل يقوملهما بالمهام الشاقة . فلما غادرنا عربة الطعام جاء أحدهم الى ديواننا وقدم نفسه الينا ، قائلا انه محافظ سانت لويس ، وانه تعرف على برونكو بيلى (اندرسون) . وقال انه يقوم مع زميله بترحيل أحد المجرمين من سجن سان كوينتين واعادتهالى سان لويس لكى يشنق . ولما لم يكن ممكنا أن يتركا السجين وحده ، فهل نسمح بالانتقال الى ديوانهما لمقابلة النائب العام للمنطقة ؟

وقال المحافظ :

ـ قد يروق لكما أن تعرفا ظروف هذا الرجل . ان له سجلا اجراميا حافلا . فعندما قبض عليه الضابط فى سان لويس طلب ان يسمح له بدخول حجرته لاحضار بعض الملابس ، وبينما هو ينقب فى حقيبته اذا به يستدير فجأة بمسدس فى يده ، ويطلق النار على الضابط فيقتله، ثم يهرب الى كاليفورنيا .. حيث قبض عليه يسرق احد المحلات وحكم عليه بثلاثة اعوام . وعندما قضى مدة العقوبة وجدنى انا والنائب العام فى انتظارهعلىباب السجن انها حالة مفروغ منها ، وسنشنقه

وانتقلنا انا واندرسون الى ديوانهم

وكان المحافظ رجلا بدينا، مرحا، على شفتيه ابتسامة ثابتة ، وعيناه لامعتان . أما نائب المنطقة العام فكان أكثر وقارا ..

وقال المحافظ بعد أن قدمنا الى زميله :
ـ تفضلا بالجلوس
ثم استدار نحو السجين قائلا :
ـ وهذا هو هانك . اننا عائدان به الى سان لويس ، حيث تنتظره بعض المتاعب
وضحك هانك ضحكة مريرة ، ولكنه لم يعلق بشيء ، كان طوله اكثر من مترين ، وعمره فى أواخر العقد الخامس وصافح اندرسون قائلا :
ـ لقد شاهدتك كثيرا يابرونكو بيلى .و..سبحان الله! ما رأيت فى حياتى مثل طريقتك فى تنــــاول « أولئك » المسدسات و « أولئك » المدافع !
اما انا ، فقد قال هانك انه لا يعرف عنى الكثير . فقد كان فى سجن سان كوينتين طوال ثلاثة أعوام وما أكثر ما يجرى فى الخارج من أشياء لا يدرى بها الانسان ..
ومع اننا كنا جميعا نتحدث بلا تكليف ، الا انه كان فى الجو شيء من التوتر تصعب معالجته . اما انا فقد حرت ماذا أقول ، ولم أستطع الا أن افتعل الابتسام لتعليقــات المحافظ ..
وقال برونكو بيلى :
ـ انها حياة شاقة
فقال المحافظ :
ـ حسنا . اننا نريد أن نجعلها أقل مشقة .وهانك يعلم ذلك ..
فقال هانك بلهجة قاطعة :
ـ بكل تأكيد ..
وشرع المحافظ يتحدث من الناحية الاخلاقية :
ـ هذا هو ما قلته لهانك عندما تخطى عتبة سجن سان

كوينتين . قلت له اذا عاملتنـا بشرف عاملناك بشرف . فنحن لانريد أن نقيد يديك بالحديد ، ولاان نثير ايةضجة. وهكذا لم يضع الا « حديدة القدم »

فسألته :

ــ حديدة القدم ! ماذا تقصد ؟

قال المحافظ :

ــ ألم تر واحدة منها ابدا ؟ ارفع ساق البنطلون ياهانك

فرفع هانك ساق البنطلون . واذا بها هناك : خلخال من الصلب المطلى بالنيكل طوله خمس بوصات ، وسمكه ثلاثة بوصات ، يحيط بأسفل ساقه ، ويزن أربعين رطلا!

وقادنا ذلك الى الحديث عن أحدث أنواع حديد القدم. واهتم المحافظ بأن يبين لنا ان هذه الحـديدة بالذات مكسوة من الداخل بالمطاط حتى لا تؤلم السجين !

وسألته :

ــ هل ينام بهذا الشيء ؟

فأجاب وهو ينظر الى هانك نظرة ذات معنى :

ــ حسنا . حسب الاحوال !

وابتسم هانك .. ولكن ابتسامته كانت صارمة، ومريرة

ولبثنا معهم الى انحان وقت العشاء . وعندما اقترب اليوم من نهايته تطرق الحديث الى الطريقة التى أعيد بها القبض على هانك . فمن خـلال تبادل المعلومات بين السجون ، حصل المحافظ على صور وبصمات عرف منها أن هانك هو الرجل الذى يبحثون عنه . وبناء على ذلك وقفوا خارج بوابة سجن سان كوينتين فى اليوم الذى كان مقررا للافراج عنه

وقال المحافظ وهو ينظر الى هانك ، وعيناه تلمعان :

ــ نعم . انتظرناه على الجانب الاخـر من الطريق .

وسرعان ما خرج من الباب الجانبى للسجن ..
ومر المحافظ بسبابته على جانب أنفه مشيرا فى اتجاه هانك ، ثم قال ببطء ، وبابتسامة عريضة :
ـ اعتقد . ان .. هذا .. هو . رجلنا !
واستطرد المحافظ بينما نحن نتـــابعه مذهولين ، انا واندرسون :
ـ وهكذا عقدنا معه اتفاقا على انه اذا عاملنــا بشرف عاملناه برفق . وصحبناه معنا لتناول الافطار ، حيث قدمنا له فطائر ساخنة ، ولحما ، وبيضا . وهاهو الان يسافر فى الدرجة الاولى ! ان هذا أفضل كثيرا من اللجوء للطرق العنيفة ، والقيود الحديدية والسلاسل
وابتسم هانك وغمغم :
ـ كان فى استطاعتى لو أردت ان اقاتلكم حتى الموت
فحدجه المحافظ بنظرة ثابتة ، وقال :
ـ ما كنت لتكسب من ذلك شيئا كثيرا ياهالك
ثم أضاف ببطء :
ـ لم تكن لتكسب الا بعض التأجيل .. اليس الافضل ان تسافر سفرا مريحا فى الدرجة الاولى ؟
فقال هانك بعصبية :
ـ اظن ذلك !
وعندما بدأنا نقترب من المكان الذى يتجه اليه هانك ، بدأ يتحدث عن سجن سان لويس حديثا أقـــــرب الى الحنين . بل لقد بدا مستمتعا بما يتوقع من محاكمـــة المسجونين الآخرين له منذ وصوله :
ـ اننى أفكر فيما سيفعل بى أولئك الملاعين عنــــدما اقف أمام محكمة الكانجارو (محكمة من المســــجونين

انفسهم) . انهم فى الغـــالب سينتزعون منى كل دخانى وسجائرى !!

كانت علاقة المحافظ والنائب العام بهانك اقــرب الى اعتزاز مصارع الثيران بالثور الذى يتهيأ لقتله . وعندما غادروا القطار ، تمنى لنا المحافظ وزميله عاما سعيدا .. اذ كنا فى آخر ديسمبر . وصافحنا هانك ايضـــــا وهو يقول بلهجة جادة : ان كل ما هو جميل لا بد له من نهاية ..

وكان من الصعب على أن أعرف كيف أودعه . فجريمته كانت وحشية ، وتدل على الجبن ، ومع ذلك وجـــدت نفسى أتمنى له ــ بصدق ــ حظا سعيدا وهو يحجل من القطار بالحديدة الثقيلة فى قدمه

وسمعنا فيما بعد أنه شنق

***

عندما وصلنا الى شيكاغو استقبلنا مدير الاســتديو بالتحيات ، ولكن لم يكن هناك وجود لمستر سوب.

وبدأت على الفور استشعر ان فى الامـــر سرا ، وان ادارة الاستديو تعرف اشياء لا تريد أن تقولها . ولكن ذلك لم يزعجنى ، اذ كنت واثقا من ان فيلما جيدا سوف يحل جميع الاشكالات

ولهذا سألت المدير عما اذا كان يعلم ان لى ان استعين بهيئة الاستديو جميعا ، واننى أملك مطلق الحـــرية فى استخدام امكانياته . فقال :

ــ طبعا اعلم . فالمستر اندرسون قد ترك لنا تعليمات بهذا الصدد

قلت :

ــ فى هذه الحالة أحب ان ابدأ العمل على الفـــور

فأجاب :

ـ حسنا . ستجد فى الطابق الاول مس لويلا بارسونز ، رئيسة قسم السيناريو . وتستطيع ان تحصل منها على سيناريو ..

فرددت عليه بلهجة لاذعة :

اننى لا استخدم سيناريوهات الاخرين . اننى اكتب لنفسى ..

وفى الصباح التالى ذهبت الى مكتب توزيع الادوار ، وقلت لهم بجفاء :

ـ أريد عددا من الممثلين . فهل تتكرمون بأن ترسلوا لى اعضاء فرقتكم غير المشغولين ؟

فقدموا الى الاشخاص الذين كانوا يرون انهم ملائمون. وكان منهم شاب احول العينين اسمه « بن تربين » ، بدا لى انه يفهم المهنة ، وانه ليس ناجحا بعـــد مع شركة « ايسانى » . فملت اليه واخترته على الفور .. ولكننى كنت فى حاجة ايضا الى بطلة . وبعد ان قابلت عددا من الفتيات ، لفتت نظرى فتاة بدا انها قد تنجـح . وكانت فتاة جميلة تعاقدت معها الشركة حديثا . ولكن ، يا الهى! لم أستطع ان انتزع منها اية استجابة . وكانت غيرمرضية الى حد اننى يئست وصرفتها . وبعد ذلك بأعوام قالت لى جلوريا سوانسون انها كانت هذه الفتاة ! وانها تعمـدت عدم التجاوب معى لانها كانت مشحونة بآمال التمثيـل الدرامى ، وتكره الكوميديات الهزلية

ثم تطورت الامور من سىء الى أسوأ . فعندما أردت أن أشاهد اللقطات التى صورتها ، وجدتهم يعرضـــون لى « النيجاتيف » بهـــدف اقتصاد تكاليف طبع النسخ الايجابية ! . وأصابنى ذلك بالذعر ، وعندما طالبتهم بأن

يطبعوا نسخا ايجابية هلعوا كأنما يتصورون أننى سأقودهم الى الافلاس . كانوا أغبياء وراضين عن انفسهم . ذلك انهم كانوا من أوائل من دخلوا صناعة السينما ، وتحميهم حقوق مسجلة تتيح لهم الاحتكار، فكان آخر مايكترثون به جودة أفلامهم . ومع أن شركات اخرى كانت تتحدى حقوقهم المسجلة ، وتنتج أفلاما أفضل ، فان « ايسانى » ظلت تمارس عملها بنفس الغباء ، وتوزع السيناريوهات على مخرجيها صباح كل اثنين بنفس الطريقة التى يوزع بهـا ورق اللعب !

ومضى أسبوعان أشرفت خلالهما على الانتهاء من فيلمى الاول « وظيفته الجديدة » - دون أن يظهر أثر للمستر سوبر . ولما كنت لم أتقاض شيئا ، لا علاوتى ولا مرتبى ، فقد استثارنى الغضب . وذهبت الى مكتب الاستعلامات أسأل :

- أين ذلك المدعى مستر سوبر ؟

فذهلوا ، وارتبكوا ، ولم يحيروا جوابا شافيا . ولم أكترث أنا باظهار ازدرائى وأنا أسأل عما اذا كان هـــذا الرجل يدير أعماله دائما بهذه الطريقة

ولم أعرف الا بعد ذلك بسنوات ، ومن سوبر نفسه ، حقيقة ماكان قد حدث .. فسوبر فيما يبدو لم يكن قد سمع بى على الاطلاق فى ذلك الوقت . وعندما علم أن اندرســـون قد تعاقد معى لمدة عام على ١٢٠٠ دولار فى الاسبوع ، وعشرة آلاف دولار علاوة ، أرســـــل برقية عصبية اليه يسأله فيها ما اذا كان قد أصـــــــابه الجنون . فلما سمع أيضا أن اندرسون قد وقع هـــذا العقد من قبيل المغامرة ، بناء على توصية من جيس روبنز، تضاعف انزعاجه . ذلك أن أفضل أفلامه كان لا يدر أكثر

من ٧٥ دولارا فى الاسبوع ، ولا يغطى مصـــاريفه الا بصعوبة • وكان هذا هو سر اختفائه من شيكاغو

ولكن حدث بعد ذلك ـ عند عودته ـ أنه تناول غذاءه فى أحد الفنادق الكبرى فى شيكاغو ، وكان معه عدد كبير من أصدقائه الذين أطروا ـ لدهشته الشديدة ـ اقدامه على ضمى الى شركته • وبالاضافة الى ذلك كانت كميات غير عادية من البريد بدأت ترد الى الاســـــتديو بشـــأن شارلى شابلن . ففكر الرجل فى ان يقوم بتجـربة . فأعطى احد الخدم ربع دولار وجعله يعلن عن وجودى فى الفندق . وما كاد الخادم يجتاز الردهة صائحا « تليفون للمستر شارلى شابلن » .. حتى بدأ النـــاس يتجمعون الى ان ضاقت الردهة بتزاحمهم وضجتهم . فكان هـــذا اول مظهر رآه لمدى شهرتى . اما الثانى ، فكان ما جرى بشأن توزيع الفيلم اثناء غيابه عن شيكاغو : اذ اكتشف انه حتى قبل أن أبدأ العمل فيه حجزت منه مقـدما خمس وستون نسخة ، وهو رقم لم يسبق له مثيل . وعندما فرغت من اعداده كان عدد النسخ المبيعة مقـــدما مائة وثلاثين ، بالاضافة الى طلبات اخرى كانت ماتزال تتدفق الامر الذى جعلهم يرفعون السعر على الفور من ١٣ الى ٢٥ سنتا للقدم الواحد

***

وعندئذ فقط ، ظهر سوبر ، وواجهته بشـــأن مرتبى وعلاوتى . فغمرنى بالاعتذارات ، مؤكدا انه كان قد كلف مكتبه بتولى كافة المسائل الخاصة بعملى ، وانه لم يكن قد اطلع على العقد ، ولكنه اعتقد أن المكتب بالطبع يعرف عنه كل شىء . فضقت كثيرا بطريقة « التعلب فات » هذه . وقلت بلهجة صارمة :

ـ ماالذى كان يزعجك ؟ أنه لايزال فى أستطـاعتك أن تفسخ العقد اذا اردت . بل الحقيقة انك فى رأيى قـــد فسخته بالفعل

وكان سوبر رجلا طويلا عريضا ، ناعم الصوت ، يكاد أن يكون وسيما لولا شحوب وجهه ، وتهدل شفته العليا التى تتدلى على شفته السفلى كأنها نائمة فوقها . وقال لى :

ـ يؤسفنى ان يكون هذا شعورك تجاهنا . ولكننا ، كما لعلك تعرف ياشارلى ، شركة ذات سمعة محترمة ، ونلتزم الوفاء دائما بعقودنا

فقاطعته :

ـ ولكن هذا العقد لم تلتزموا به

قال :

ـ سنتولى امره فى التو

فأجبت ساخرا :

ـ لست فى عجلة من امرى ؟

***

وفعل سوبر كل ما يستطيع أثناء اقامتى فى شيكاغو لكى يرضينى . ولكننى فى الحقيقة لم أستطع ابدا أن اميـــل اليه . وقلت له اننى لست مرتاحا الى العمل فى شيكاغو ، وان عليه اذا كان يريد عملا مثمرا أن يتخذ الترتيبات لى كى أعمل فى كاليفورنيا . فقال :

ـ سنفعل اى شىء يجعلك راضيا . ما رايك أن تعمل فى ستديو « نايلز » ؟

فلم أتحمس كثيرا . ولكننى كنت أحب أندرسون اكثر مما احب سوبر . وهكذا ما كدت انتهى من فيلم «وظيفته الجديدة » حتى ذهبت الى « نايلز »

وفى نايلز كان برونكو بيلى يصنع جميع أفلامه الخاصة برعاة البقر . وكانت كلها من لفة واحدة ، ولا يستغرق منه اعدادها أكثر من يوم واحد

***

ولم تكن لديه غير سبع قصص بذاتها ، يكررها ويعيد تكرارها . ومنها جمع عدة ملايين من الدولارات . وكان يعمل على فترات بلا نظام . فيخرج فى بعض الاحيان سبعة أفلام فى اسبوع واحد ، ثم يتغيب فى اجازة لمدة ستة أسابيع !

وبينما الاستديو يجهز المنظر الذى سأبدا فيه التصوير ، سافرت مع اندرسون الى سان فرانسسكو للبحث بين فتيات الكورس عن بطلة لاحدى كوميدياته الموسيقية . ومع أن هذا كان عملا شائقا فاننا لم نجد بينهن واحدة تصلح للتصوير (فوتوجنيك) . فقال لنا كارل ستراوس — وهو امريكى المانى من رعاة البقر العاملين مع اندرسون — انه يعرف فتاة تذهب بين وقت وآخر الى مقهى تاتى فى شارع هيل . وقال انه لا يعرفها شخصيا ، ولكنها جميلة جدا ، وقد يعرف صاحب المقهى عنوانها

وظهر بالفعل ان المستر تاتى يعرفها ، وانها تعيش مع شقيقتها المتزوجة ، وانها من « لافلوك » بمنطقة نيفادا ، وان اسمها « ادنا بورفيانس » . فاتصلنا بها على الفور ، وضربنا موعدا لملاقاتها فى فندق سان فرانسيس . واذا بها أكثر من جميلة . ولكنها بدت أثناء المقابلة جادة ، وحزينة . وعلمت فيما بعد انها كانت فى تلك الايام خارجة لتوها من محنة عاطفية

على اننا بالرغم من ذلك تعاقدنا معها . فهى على الاقل تصلح زينة لافلامى

اخرجت اربعة افلام فى أستديو نايلز . ولكن المعدات لم تكن مرضية.ولم اشعر هناك بالاستقرار ولا بالرضى فاقترحت على اندرسون أن أذهب الى لوس انجلس ..
حيث يمتلكون معدات أفضل • ونجح اندرسون فى أن يستأجر لى أستديو صغيرا فى « بويل هايتس » فى قلب لوس انجلس ..

وحدث ذات مساء ـ عند عودتى الى فندق « ستول » الذى أقيم فيه ـ اننى تلقيت مكالمة تليفونية عاجلة من لوس انجلس . وفى هذه المكالمة قرأوا لى برقية تلقوها من نيويورك :

« نعرض على شابلن ٢٥ ألف دولار للظهور ١٥ دقيقة كل ليلة لمدة أسبوعين فى مسرح نيويورك .. دون أى تعارض مع اعماله الاخرى »

فاتصلت على الفور ـ تليفونيا ـ بمستر اندرسون فى سان فرانسسكو • كانت ساعة متأخرة من الليل ولم استطع أن أعثر عليه قبل الثالثة صباحا • وأخبرته فى التليفون بأمر البرقية ، وسألته أن يسمح لى بأسبوعين كى أحصل على هذه الالاف المعروضة من الدولارات • واقترحت عليه أن أبدأ العمل فى فيلم جديد فى القطار ، ثم اتمه عندما أصل الى نيويورك • ولكن أندرســـــون لم يرض بأن أفعل ذلك ..

وكانت نافذة حجرة نومى تطل على منور الفندق ، فكان الذى يتحدث فيها تتردد أصداء صــــوته فى الحجرات الاخرى • ولما كان الخط التليفونى غير سليم ، فقد كان على أن أصيح بأعلى صــــــوتى عـــــدة مرات وأنا أخاطب أندرسون :

ـ لست أنوى أن أرفض ٢٥ ألف دولار من أجل عمل أسبوعين ..

واذا بنافذة تفتح فوقى ، وصوت يجيب على :

ـ اصرف ذلك الثور وعد الى فراشك يا لوح !

وقال اندرسون عبر الاسلاك ان « ايسانى » ستعطينى هذه الـ ٢٥ ألف دولار اذا أخرجت لهم فيلما جديدا من لفتين • ووافق على أن يأتى الى لوس انجلس فى اليوم التالى ويسلمنى الشيك ويوقع الاتفاق

وانتهت بذلك المكالمة ، فأطفأت الانوار وأوشكت على النوم • ولكننى تذكرت عندئذ ذلك الصوت ، فغادرت فراشى وفتحت النافذة ، ورفعت رأسى صائحا :

ـ روح فى ستين داهية !

وجاء أندرسون فى اليوم التالى ومعه شيك بخمسة وعشرين ألفا • أما شركة نيويورك صاحبة العرض الاصلى فأفلست بعد ذلك بأسبوعين . وهكذا كان حظى كبيرا..

الان صرت أكثر ابتهاجا وارتياحا الى العمل فى لوس انجلس . ومع أن الاستديو فى « بويل هايتس » كان فى منطقة خربة ، فان وجودى هناك كان يتيح لى ان أرى أخى كان عندئذ ما يزال يعمل مع « كيستون » ، وعقده ينتهى قبل انتهاء عقدى مع ايسانى بشهر واحد . وكانت شهرتى قد تضخمت الى حد أن سيدنى انتوى أن يخصص كل وقته لادارة أعمالى • والواقع أن شهرتى كانت ـ كما تقول التقارير ـ تتزايد مع كل فيلم جديد . ومع اننى كنت أعرف مدى هذه الشهرة فى لوس انجلس عن طريق طول الطوابير الواقفة أمام شباك التذاكر ، فاننى لم أكن أعرف مداها فى الجهات الاخرى • ففى نيويورك كانت تباع فى كافة الدكاكين والمحلات لعب وتماثيل تصور شخصية شارلى.

وكانت فتيات مسارح زيجفلد الاستعراضية يقمن بتقديم نمر مأخوذة عن شارلى ، يخفين فيها جمالهن وراء الشوارب وقبعات الدربى والاحذية الضخمة والسراويل المنتفخة ، وهن يغنين أغنية اسمها « أقدام شارلى هذه » !

وتحدث سيدنى مع اندرسون بشأن بيع أفلامى منفصلة عن باقى الانتاج العادى . اذ لم يكن من العدل أن يحصل اصحاب دور العرض على كل المكسب . وكانت «ايسانى» ـ برغم ما تبيع من مئات النسخ من أفلامى ـ تبيعها على نفس الاساليب القديمة التى اعتادت أن تتبعها فى التوزيع . فاقترح سيدنى رفع السعر فى كل دار للعرض بنسبة عدد مقاعدها .. رافعا بذلك دخل كل فيلم من أفلامى الى مائة ألف دولار أو أكثر

حوالى هذا الوقت أخرج د .و. جريفث فيلمه التاريخى « ميلاد أمة » . ذلك الفيلم الذى جعله أبرز مخرجى السينما . وقد كان جريفث بلا شك عبقرى السينما الصامتة . وبالرغم من أن فنه كان ميلودراميا ، وشاذا فى بعض الاحيان ، فان أفلامه كانت فيها لمسة الاصالة التى جعلت كلا منها جديرا بالمشاهدة

وبدأ « دى ميل » بداية مبشرة بفيلم « الكورس الهامس » وبفيلمه عن « كارمن » .. ولكن عمله بعد « الذكر والانثى » لم يتخط أبدا حدود التزويق ، ومع ذلك فاننى تأثرت بكارمن الى حد اننى أخرجت منها فيلما من طراز البرسك .. وكان آخر فيلم لى مع شركة ايسانى . وقد تناولوا هذا الفيلم بعد انفصالى عنهم ، وحشروا فيه كل المناظر التى قطعتها فى المونتاج ، ليطول الى أربع لفات .. الامر الذى أثارنى وألزمنى الفراش يومين . فقد كان عملا يخلو من الامانة ، وآن كان قد أدى

فى الواقع خدمة : اذ جعلنى من ذلك الوقت أنص فى كل عقد أوقعه على أنه لن يكون هناك أى تشويه ، أو مط ، او تدخل فى الصورة النهائية للفيلم

وجاء سوبر ـ عندما اقترب موعد نهاية عقدى ـ ومعه عرض قال انه لا يمكن أن ينافسه فيه أحد ٠٠ وهو أن يعطينى ٣٥٠ ألف دولار فى مقابل ١٢ فيلما من لفتين ، على أن يتعهد هو بمصاريف الانتاج ٠ فقلت له اننى أشترط قبل التوقيع على أى عقد أن أحصل على مبلغ خارج العقد مقداره ١٥٠ ألف دولار . فكان هـــذا نهاية المبـاحثات مع سوبر ..

يا للمستقبل ٠ يا للمستقبل ٠٠ ياللمستقبل الرائع ! الى أين كان يقودنى ؟ كانت الافاق التى أمامى تدير الرأس والمال والنجاح يتدفقان باندفاع هائل متزايد ٠ وكان هذا كله مذهلا ، ومخيفا ..

ولكنه ٠٠ كان رائعا !

بينما كان سيدنى فى نيويورك يدرس العروض المختلفة المقدمة لى ، كنت انا استكمل تصوير « كارمن » واقيم فى بيت يواجه البحر فى سانت مونيكا . وكنت اتنـــاول عشائى فى بعض الامسيات فى مقهى « نات جوروين » عند طرف لسان مونيكا الممتد فى البحر . ونات جوروين كان يعتبر فى وقت ما اعظم ممثل واعظم كوميدى على المسرح الامريكى ..

ونشأت بينى وبين « نات » صداقة وثيقة . فكنا فى ليالى الخريف الباردة نتمشى معا على شـــاطىء المحيط المهجور . وعندما علم أننى سأسافر الى نيويورك بعـــد الانتهاء من فيلمى ، قدم لى بعض النصائح الطيبة :

ـ لقد حققت نجاحا كبيرا . وهناك حياة رائعة تنتظرك

اذا عرفت كيف تباشر أمورك .. عنـــدما تذهب الى نيويورك عليك أن تتجنب برودواى ، وان تتجنب عيـون الجماهير . ان غلطة كثير من الممثلين الناجحين هى رغبتهم فى أن يراهم الناس ويعجبوا بهم . الامر الذى لا يؤدى الا الى تحطيم صورتهم الخرافية فى الآذهان

ثم استطرد بصوت عميق ، رنان :

ـ انك ستدعى الى كل مكان ، فلا تقبل . اختر لنفسك صديقا أو صديقين ، ثم اقنع بأن تتصور الباقى . فمـا اكثر الممثلين الكبار الذين ارتكبوا غلطة قبول كل دعـوة اجتماعية . وهذا هو « جون درو » مثلا : كان محبوبا فى المجتمعات ، يذهب الى كل بيت ، فلم يعد أحد يذهب الى مسرحه . ولماذا يذهبون ما داموا يجدونه فى حجرات استقبـــالهم ؟ انك رجل قد سيطـــر على العالم ، وفى استطاعتك ان تظل تسيطر عليه اذا ظللت تقف خارجه !

وكانت لهجته نادمة وهو يقول ذلك

وعندما أتممت مونتاج كارمن ، سارعت على الفـــور باعداد حقيبة صغيرة ثم اتجهت رأسا من غرفة ثيابى الى قطار الساعة السادسة الذاهب الى نيويورك . وأرسلت برقية الى سيدنى أخبره فيها متى ســـأقوم ومتى سأصل ..

وكان القطار بطيئا ، يستغرق خمسة ايام كى يصـــل الى هناك . وكنت اجلس وحدى فى ديوان مفتوح .. اذ لم يكن احد فى تلك الايام يعرفنى بغير الماكياج الكوميدى الذى استخدمه . وبينما نحن نخترق الطريق الجنـــوبى متجهين الى اماريللو « بولاية تكساس » ، لنصـــلها فى السابعة مساء .. قررت أن احلق ذقنى . ولكن غيرى من المسافرين كانوا قد سبقونى الى الحمام ، فكان على

لهذا ان انتظر . ونتيجة لذلك وصل القطار الى اماريللو وانا ما ازال فى ثيابى الداخلية

وبينما القطار يدخل المحطة ، احاطت بنا فجأة هالة من شباك الحمام فرأيت زحاما هائلا يتماوج فيها ، واعلاما ورايات مطوية ومفرودة ، تصل ما بين الاعمدة والابراج .. بينما على الرصيف عدد من الموائد الطويلة المثقلة بالمرطبات .. فقلت لنفسى لابد انه احتفال بتوديع او استقبال شخصية محلية ذات نفوذ ، ومضيت اصبن ذقنى . ولكن الهرج ازداد ، ثم بدأت اسمع بوضوح اصواتا تقول :

ـ اين هو ؟

ثم داهم القطار فيضان من الناس يركض ذاهبا عائدا فى الممرات وهو يصيح :

ـ أين هو ؟ اين شارلى شابلن ؟

فأجبت :

ـ نعم

ـ بالنيابة عن عمدة اماريللو وتكساس ، وكافة المعجبين بك ، تدعوك الى تناول الشراب والمرطبات معنا

فأصابنى الذعر . وصحت من وراء رغوة الصابون :

ـ بحالتى هذه ؟ لا استطيع !

ـ أوه .. لا تلق بالا الى شىء يا شارلى . ما عليك الا أن ترتدى الروب وتقابل الجماعة

فأسرعت اغسل وجهى على استعجال . ولبست قميصا وربطة عنق ، ثم خرجت وانا أزرر جاكتتى ، وذقنى نصف محلوق

واذا بالهتافات تستقبلنى . وحاول العمدة ان يتكلم :

ـ مستر شابلن ! بالنيابة عن معجبيك فى اماريللو . . .
ولكن صوته تبدد فى الهتافات المتواصلة . فعاد يبدأ من جديد :

ـ مستر شابلن ! بالنيابة عن معجبيك فى اماريللو . . .
وهجم الزحام عندئذ فدفع بالعمدة نحوى ، والتصقنا معا بالقطار ، وعصرنا حتى لم يعد بد من التخلى عن خطاب الترحيب فى سبيل السلامة الشخصية
وصرخ البوليس :

ـ ابتعدوا !
وراح يشق لنا طريقا بين الزحام
وفقد العمدة حماسه للمسألة كلها ، وقال لى وللبوليس بشىء من الضيق :

ـ حسنا . دعنا نفرغ من هذا الامر يا شارلى حتى تستطيع ان تعود الى القطار
وبعد معركة شاملة حول الموائد ، بدات الامور تهدأ ، وصار فى استطاعة العمدة اخيرا ان يلقى خطابه . فقرع المائدة بملعقته وقال :

ـ مستر شابلن . ان اصدقاءك فى اماريللو ، تكساس ، يريدون أن يعبروا عن تقديرهم لكل ما منحتهم من سعادة، بدعوتك الى تناول ساندوتش وزجاجة كوكاكولا معهم
وبعد ان فرغ من تقريظه لى ، سألنى ان القى كلمة قصيرة . والح على ان اقف فوق احدى الموائد ، حيث تعثر لسانى بكلمات معناها اننى سعيد بوجودى فى اماريللو ، واننى دهشت لهذا الترحيب الرائع المثير الى حد اننى سأذكره الى آخر أيام حياتى .. الخ
ثم جلست وحاولت ان اتحدث الى العمدة . وسألته كيف علم بقدومى .. فقال :

ـ عن طريق موظف التلغراف

واوضح لى كيف ان البرقية التى ارسلتها الى سيدنى قد حولت الى اماريللو ، ثم الى مدينة كانساس ، وشيكاغو ، ونيويورك . وكيف ان موظفى التلغراف ابلغوا النبأ الى الصحافة

وعندما عدت الى القطار جلست متواضعا فى مقعدى ، ولبثت لحظات وفى ذهنى فراغ مطلق • واذا بالعربة كلها تتحول الى مرجل من البشر يعبرون الممر ذاهبين عائدين ، يحملقون ويضحكون • ولكن ذهنى لم يستطع أن يهضم هذا الذى حدث فى أماريللو ، أو أن يستمتع به • فأعصابى كانت أكثر توترا من أن تسمح لى بذلك . ولبثت فى مكانى مشدودا ، وسعيدا ، ومكتئبا ، فى وقت واحد •• !

وقبل أن يغادر القطار المحطة تلقيت عديدا من البرقيات تقول احداها : مرحبا يا شارلى ، نحن فى انتظارك فى مدينة كانساس • وتقول أخرى : فى انتظارك عندما تصل الى شيكاغو عربة ليموزين لتحملك ما بين المحطتين• وتقول ثالثة : أتسمح بقضاء ليلة فى ضيافة فندق بلاكستون ؟

وعندما اقتربنا من مدينة كانساس ، كان الناس محتشدين على جانبى الخط الحديدى • يهتفون ويلوحون بقبعاتهم ••

أما محطة كانساس نفسها ، فكانت قد خنقتها كتلة صلبة من البشر ، والبوليس يحاول بصعوبة أن يسيطر على جماعات أخرى تتوافد فى الخارج • ووضع لى سلم خشبى كى أصعد عليه وأظهر للناس على سطح العربة

ووجدت نفسى مرة أخرى أكرر نفس الكلمات التقليدية

التى ألقيتها فى أماريللو . كما وجدت مزيدا من البرقيات فى انتظارى : هل سأتفضل بزيارة المدارس والمؤسسات؟ فحشرت هذه البرقيات جميعا فى حقيبتى كى أجيب عليها من نيويورك

ومن مدينة كانساس الى شيكاغو ، ظهر الناس مرة أخرى محتشدين عند المزلقانات ، وفى الحقول ، يلوحون للقطار وهو يمر بهم . وأردت أن أستمتع بهذا كله على سجيتى ، ولكننى شغلت طول الوقت بفكرة أن العالم لابد قد أصابه الجنون ! فاذا كان عدد من الكوميديات الهزلية يمكن أن يثير كل هذه الضجة ، أليس معنى ذلك أن هناك شيئا من الزيف فى كل ما هو شهرة ؟ لقد كنت دائما أتصور اننى سأستمتع بانتباه الجماهير ، ولكن ها هو ذلك الانتباه - على العكس - يعزلنى عنها ، ويفرض على احساسا بالاكتئاب والوحدة ..

وفى شيكاغو ، حيث كان يجب أن أغير القطار والمحطة ، وقفت الجموع متراصة على جانبى باب الخروج ، وحملتنى حملا الى عربة الليموزين التى نقلتنى الى فندق بلاكستون حيث خصصوا لى جناحا كاملا أستريح فيه قبل مواصلة السفر الى نيويورك

وفى هذا الفندق تلقيت برقية من قائد بوليس نيويورك يرجونى ان انزل من القطار مشكورا عند الشارع رقم ١٢٥ بدلا من النزول فى المحطة الرئيسية كما كان مقررا .. لان جموع الناس كانت محتشدة فى انتظارى

وفى الشارع رقم ١٢٥ وجدت سيدنى ينتظرنى فى عربة ليموزين . وكان مضطربا ، مشدود الاعصاب ، وهو يتحدث الى همسا :

- ماذا يك ؟ لقد كانت الجموع منذ الصباح الباكر

تتوافد على المحطة . وكانت الصحافة تصدرنشرة يومية منذ غادرت لوس انجلس !

واطلعنى على نسخة من احدى الصحف تعلن بالبنط العريض الاسود : « انه هنا ! » . كما اطلعنى على عنوان آخر « شـــارلى يتخفى ! » . وفى الطريق الى الفندق اخبرنى انه وصـــل الى اتفاق مع « اتحـــاد الافــلام المشتركة » على ٦٧٠ الف دولار تدفع بواقع عشرة الاف دولار اسبوعيا . و١٥٠ الف دولار اضافية تدفع عنـــد توقيع العقد بعد ان اجتاز الكشف الطبى لشركة التامين. وقال لى سيدنى ان لديه موعداً للغداء مع المحامى سيشغله بقية النهار ، وانه لهذا سيتركنى فى فندق بلازا ــ حيث حجز لى غرفة ــ ثم يعود ليرانى فى الصباح

ووجدت اننى « الآن صرت وحدى » كما قال هاملت، فمضيت ذلك المساء اتجول فى الشوارع واتفرج عـــلى واجهات المحال التجارية ، واقف عند النواصى بلا هدف. ما هذا الذى يحـــدث لى الان ؟ ها انا فى قمة نجاحى ، مرتديا ثيابى كاملة ، ولا اجد مكانا اذهب اليه !كيف يتأتى للانسان ان يعرف الناس ؟ ان يعرف اشخاصا يستمتع بمعرفتهم ، كان يبدو كأنما كافة البشر يعرفوننى ، بينما لا اعرف انا احداً . وانطويت على نفسى ، ارثى لحالى ، وقد سيطرت على نوبة من الاسى . وتذكرت ممثلا ناجحا فى شركة كيستون قال لى ذات مرة :

ــ والان قد وصلنا يا شارلى .. ما قيمة كل هذا ؟

فأجبته :

ــ وصلنا الى اين ؟

ثم تذكرت نصيحة نات جوردين :



منظر : « من فيلم .. الطفل »

ـ تجنب برودواى ..

وبرودواى كانت ـ فيما يتعلق بى ـ صحراء . ووجدت نفسى افكر فى الاصدقاء القدامى الذين اتمنى لو القاهم وانا متوج بهذا النجاح العظيم . ترى هل عاد لى أصدقاء قدامى فى نيويورك ، او فى لندن ، او فى اى مكان آخر ؟ كنت فى حاجة الى جمهور من نوع خاص .. هيتى كيلى مثلا . فانا لم اسمع شيئا من انبائها منذ دخلت حقل السينما . وكان يسرنى كثيرا ان ارى كيف يكون رد الفعل عليها

وكانت هيتى فى ذلك الوقت تقيم فى نيويورك مع شقيقتها مسز فرانك جولد . فقطعت الطريق على قدمى الى رقم ٨٣٤ بالشارع الخامس ، وكان هذا عنوان

اختها . ووقفت أمام البيت اتساءل عمـــا اذا كانت بالداخل ، ولكنني لم اجرؤ على طرق الباب . وقلت لنفسي انها على اية حال قد تخرج فالتقى بها «مصادفة». وانتظرت نصف ساعة فى الشارع وانا اتمشى ذاهبا عائدا، ولكن البيت لم يخرج منه ولم يدخله احد ..

الفصل الثانى عشر

صاحب الملايين

* المغامرة .. التى لم تتم
* عندما يهرب منى الوحى
* وصرت من أصحاب الملايين

اكتفيت من نيويورك بالقدر الذى سمح به حظى ، ورأيت ان الوقت قد حان لعودتى قبل ان يفقد المهرجان طعمه فضلا عن اننى كنت فى لهفة الى بدء العمل بمقتضى عقدى الجديد ..

فلما عدت الى لوس انجلس اقمت فى « فندق الاسكندرية » ، عند تقاطع شارع مين والشارع الخامس. وكان افخر فندق فى المدينة ، يرزح بناؤه تحت اثقال من الزخارف وتزين أعمدة الرخام ونجفات الكريستال ردهته التى يتوسطها « بساط المليون دولار » ذو الشهرة الخرافية .. كعبة الصفقات السينمائية الكبرى . وكان يطلق عليه هذا الاسم من باب المزاح أيضا بسبب الذين أعتادوا أن يقفوا عليه من اشباه السماسرة وماضغى التبغ وهم يتباحثون حول أرقام خرافية ..

على هذا البساط جمع « ابراهاسون » ثروته الكبرى من بيع الافلام الرخيصة التى كان ينتجها بأقل التكاليف ، عن طريق استئجار أى استديو واستخدام العاطلين من الممثلين . وكان هذا الطراز من الافلام يدعى انتاج « طابور الفقر » . وقد بدأ المرحوم هارى كوهن ــ مدير شركة كولومبيا ــ حياته العملية من هذا الطابور أيضا ..

وكان ابراهاسون رجلا واقعيا : يعترف بأن ما يعنيه ليس الفن ، وانما النقود وحدها . وكان يتكلم بلكنة

روسية ثقيلة . ويصيح أثناء الاخراج موجها خطابه الى البطلة :

ـ حسنا ادخلى من الجانب الورائى (أى من الخلف) اتجهى الآن الى المرآة وانظرى الى نفسك فيها .. أوه كم انت جميلة ! تحركى الان هنا وهنـاك لمدة عشرين قدما (يقصد المدة التى توازى دوران عشرين قدما من الفيلم)

وتكون البطلة عادة من النوع الناهد الصدر ، يكشف « الديكولتيه » الواسع الذى ترتديه عن قدر كبير ممـا بين النهدين . فيأمرها بأن تواجه الـــكاميرا ثم تنحنى وتربط حذاءها ، أو تهز سرير طفل ، أو تربت على ظهر كلب . وبهذه الطريقة جمع « ابراهاسون » مليونين من الدولارات ، ثم اعتزل بكل حكمة !

وكان « بساط المليون دولار » هو الذى جاء ب « سيد جراومان » من سان فرانسسكو ليتباحث بشأن بنـاء مجموعته من دور العرض التى تكلفت مليون دولار .. ومع ازدهار المدينة ازدهر « سيد » أيضا . وكان مولعا بالدعايات الصارخة حتى أنه ذات مرة أثار الذعر فى انحاء لوس انجلس بعربتى تاكسى تطارد احـــداهما الاخرى ، ويتبادل ركابهما اطلاق الرصاص ، وفى مؤخرة كل منهما لوحة كتب عليها « دنيا الجريمة .. بسينما جراومان.. سينما المليون دولار » !

كما كان مولعا أيضا بالتقـاليع . وكان من ابتكاراته المذهلة أن يدعو نجوم هوليوود لطبع أيديهم وارجلهم على الاسمنت الطرى خارج دار العرض الصينية التى أقامها. والعجيب انهم ـ لسبب ما ـ وافقوه . وصار ذلك شرفا للنجمة لا يقل اهمية عن شرف الحصول على الاوسكار !

في أول يوم وصلت فيه الى فندق الاسكندرية سلمنى موظف الاستقبال خطابا من الممثلة الشهيرة مس « مودفيلى » التى كانت بطلة السير هنرى ايرفنج ووليم جيلت . وفى هذا الخطاب كانت تدعونى الى حفلة عشاء ستقيمها لبافلوفا يوم الاربعاء فى فندق هوليوود . فسررت كثيرا بالطبع . اذ بالرغم من اننى لم التق بالمس فيلى قبل ذلك ، فاننى كنت قد رأيت صورها ملصقة على الجدران فى كافة أنحاء لندن ، وكنت من المعجبين بجمالها ..

وفى اليوم السابق لموعد الحفلة طلبت من سكرتيرى ان يستعلم تليفونيا عما اذا كان العشاء غير رسمى ، أم اننى يجب أن ارتدى ربطة العنق السوداء ..

وسألت مس فيلى :

ــ من الذى يتكلم ؟

ــ سكرتير المستر شابلن . فيما يتعلق بعشائه معك مساء الاربعاء ..

فبدا كأنها اصيبت بالذعر .. وقالت :

ــ أوه ! على الرحب والسعة .. عشاء غير رسمى

وعلى عتبة فندق هوليوود وجدتها تنتظر لترحب بى . فاتنة كما كانت دائما . وجلسنا نصف ساعة على الاقل نتحدث حديثا سطحيا ، حتى بدأت اتساءل متى سيصل باقى الضيوف ..

وأخيرا قالت :

ــ الا نتناول عشاءنا الان ؟

ولدهشتى الشديدة ، وجدت اننا نتناوله وحدنا ! وكانت مس فيلى ، فضلا عن فتنتها ، سيدة محافظة،

فمضيت انظر اليها عبر المائدة وانا اتساءل ماذا يمكن ان يكون الدافع الى هذه السهرة المنفردة ، وتجاذبت راسى مختلف الخواطر الخبيثة ومع أن مس فيلى بدت لي ارهف احساسا من ان تنطبق عليها تخميناتى غير المهذبة فأنني رغم ذلك اطلقت قرون استشعارى محاولا ان استكشف ما الذى تتوقعه منى .. وقلت بحرارة شديدة:

ـ انها متعة ولاشك .. ان نتناول الطعام هكذا .. وحدنا ..

فابتسمت ببساطة ..

قلت :

ـ ما رايك في ان نسلى انفسنا بعد العشاء .. فنذهب الى ناد ليلى أو شيء من هذا القبيل ..

فعبرت سحابة من القلق على وجهها .. وقالت بعد تـــردد :

ـ اخشى أن يكون على ان أنام الليلة فى موعد مبكر . إذ اننى سأبدأ صباح غد بروفات ماكبث

فتخبطت قرون استشعارى . ووجدت نفسى عاجزا عن الفهم تماما . ولحسن الحظ وصل الطبق الاول عندئذ، فلبثنا لحظة نأكل فى صمت . كان كلانا يشعر أن هنــاك شيئا ما على غير مايرام .. وقالت مس فيلى فى تردد :

ـ اخشى ان تكون السهرة أقرب الى الكآبة بالنسبة اليك ..

فأجبت :

ـ أنها ممتعة الى أقصى حد

ـ من المؤسف انك لم تكن هنا منذ ثلاثة أشهر، فى حفلة العشاء التى اقمتها لبافلوفا ، وهى فيما أعلم صـــديقة لك . ولكنك عندئذ كنت فى نيويورك كما بلغنى

قلت وأنا انتزع بسرعة خطاب مس فيلى من جيبى :
ـ معذرة ..

ولاول مرة نظرت الى تاريخ الخطاب .. ثم قدمته اليها وانا اضحك قائلا :

ـ لقد وصلت كما ترين متأخرا ثلاثة اشهر !

كان نادى لوس انجلس الرياضى ملتقى الصفوة من شخصيات المجتمع المحلى ورجال الاعمال . يجتمعون فيه فى ساعات الكوكتيل . وكان أشبه بأرض اجنبية

وفى هذا النادى كان شاب من ممثلى الادوار الثانوية يظهر عادة فى الصالون .. شاب منعزل .. جاء يجرب حظه فى هوليوود ، ولكنه لم يوفق . كان أسمه فالنتينو. وقد قدمه الى ممثل ثانوى آخر ، هو جاك جلبرت ثم لم أره بعد ذلك لمدة عام تقريبا ، قفز خلاله الى مستوى النجوم ، فلما قابلته بعد ذلك بدأ متحرجا الى أن قلت له :

ـ ها أنت قد انضممت منذ اخر مرة الى جماعة الخالدين ..

فضحك وتخلى عن تحفظه ، وفتح قلبه تماما

وقد كان فالنتينو رجلا يغلب عليه طابع حزين . فهو يدخل فى نجاحه برفق ويبدو كأنه مثقل به . وكان ذكيا هادئا ، مجردا عن الغرور ، وله سلطان هائل على النساء ، ولكن ليس له حظ معهن ، حتى اللواتى تزوجهن كانت معاملتهن له أقرب الى ان تكون مهينة

فعلى اثر احدى زيجاته سرعان ما انشأت زوجته علاقة مع احد موظفى معمل التحميض ، حيث كانت تختبىء معه فى الحجرة المظلمة . والواقع انه لم يكن هناك من هو أكثر اغراء للنساء من فالنتينو ، ولم يكن هناك من خدعته النساء أكثر منه

شرعت الآن أتخذ العدة لتنفيذ عقدى ذى الستمائة والسبعين الف دولار ، وقام مستر كولفين ـ الذى كان يمثل «الافلام المشتركة» ويتولى ادارة كافة الاعمال ـ باستئجار استديو فى قلب هوليوود . وبعد أن شكلت فرقة ملائمة تضم اونا بورفيانس ، واريك كامبل ، وهنرى برجمان ، واليوت اوستن ، ولويد باكون وجون راند ، وفرانك جوكولمان ، وليو هوايت .. شعرت بالاطمئنان الى بدء العمل ..

وحقق فيلمى الاول « ماسح الارض » نجاحا عظيما لحسن الحظ . وكانت أحداثه تدور فى متجر أخرجت فيه مطاردة تجرى بواسطة سلم متحرك ، وقد علق سينيت عندما رأى الفيلم قائلا :

ـ لماذا بحق الجحيم لم نفكر ابدا فى سلم متحرك ؟

وسرعان ما بلغ نشاطى مداه ، فصرت أخرج فيلما من لفتين كل شهر

واتبعت « ماسح الارض » ب « رجل المطافىء » و « الشريد » و « الواحدة صباحا » و « الكونت » و « حانوت الرهونات » و « وراء الستار » و « الانزلاق على الجليد » و « الشارع السهل » و « الدواء » و « المهاجر » و « المغامر » واستغرقت هذه الافلام الاثنا عشر فى مجموعها ١٦ شهرا بما فى ذلك فترات التعطل بسبب الاصابة بالبرد وغيرها من المعوقات اليسيرة

وكان يحدث احيانا ان تتعثر القصة عند عقدة معينة أجد صعوبة فى حلها .. فأضطر عندئذ الى ارجاء العمل واحاول ان افكر وانا اتمشى ذاهبا عائدا فى حجرتى يخنقنى الغيظ ، او اجلس بالساعات وراء احد المناظر محاولا ان أقهر المشكلة ، ولكن منظر الممثلين او رجال الادارة وهم

يحملقون فى كان كفيلا وحده بارباكي خاصة وان الشركة هى التى تدفع تكاليف الانتاج ، والمستر كولفيد كان على الدوام حاضراً ليراقب سير العمل . فاذا ما مضى اليوم دون ثمرة ، تعمد أن «يصادفنى» أثنـــاء الخروج من الاستديو ، وحيانى بمرح مصطنع وهو يسأل :

ـ هل وجدتها ؟

ـ عليها اللعنة ! يبدو اننى انتهيت .. لم يعـــد فى استطاعتى ان افكر على الاطلاق

فيصدر صوتا اجوف ، يقصد به ان يكون ضـحكة ، ويقول :

ـ لاتقلق ، ستجدها

وكثيرا ما كان الحل يجىء فى نهاية اليوم بعد ان يستبد بى اليأس ، واكون قد فكرت فى كل شىء وعدلت عنه . عندئذ يكشف الحل فجاة عن نفسه ، كما تزال طبقة من التراب عن ارض مكسوة بالرخام .. فأراها امامى ، تلك القطعة من الصوف التى كنت ابحث عنها .. ويزول كل توتر ، وتدب الحياة فى الاسـتديو . وآه لو ترى كيف يضحك عندئذ مستر كولفيد !

ولم يحدث فى اى فيلم اخرجته ان اصيب اى ممثـل اثناء العمل . فمشاهد العنف كان يسبقها دائما تدريب دقيق ، وترسم بدقة كخطوات الرقص . وكل صـــفعة على الوجه يستخدم فيها الخداع السينمائى ، ومهمـــا كان مدى الفوضى المطلوبة فى المنظر ، فكل فرد يعرف جيدا ماعليه أن يفعل ، وكل حركة لهـــا توقيت . ذلك أنه لا عذر يبرر أن يصـــاب أحـــد ، لان العنف والـــزلازل والسفن الغـــارقة والكوارث وكافة انواع المؤثرات فى السينما يمكن ان تحقق عن طريق خداع الكاميرا

وفى اعتقادى ان تنفيذ عقد «الافلام المشتركة» كان أسعد فترة فى حياتى العملية . فقد كنت خفيفا لا يثقلنى شيء ، فى السابعة والعشرين من عمرى ، وأمامى تنبسط آفاق خرافية ، وعالم فسيح ودور باهر، ولن يمضي وقت طويل حتى اصبح مليونيرا .. شيء يبدو أقرب الى الجنون . فالمال يتدفق فى خزائنى بلا توقف . والدولارات التى اقبضها عشرة الاف كل اسبوع تتراكم وتتحول الى مئات من الالاف . فأنا الان اساوى اربعمائة الف . والان اساوى خمسمائة الف ! وما كان فى استطاعتى ابدا ان اقتنع بأن هذا كله حقيقة

ومما لاشك فيه ان الناجحين من الناس يعيشون فى عالم مختلف . فالوجوه تضيء عندما اظهر . وبالرغم من حداثتى كانت ارائى تحمل على محمل الجد وكان معارفى على استعداد لعقد احر الصداقات معى ، ومشاركتى الاعباء والمشاكل كأنما هم اقربائى . وكان هذا كله يرضى غرورى ، ولكن طبيعتى لاتستجيب الى مثل هذا التلاحم بالاخرين . فأنا احب الاصدقاء كما أحب الموسيقى .. فى حين ان أكون مهيأ من الناحية النفسية ومثل هذا التخفف كان يؤدى بى طبعا الى فترات أجد نفسى وحيدا فيها ..

وذات يوم ـ بعد ان اترف عقدى على نهايته ـ جاء اخى الى غرفة نومى بالنادى الرياضى ، ليعلن لى فى ابتهاج شديد :

ـ مبروك يا شارلى . لقد دخلت الان طبقة اصحاب الملايين . فقد عقدت لتوى صفقة بثمانية أفلام لحساب « فرست ناشنال » فى مقابل مليون ومائتى الف دولار

كنت عندئذ خارجا لتوى من الحمام ، وواقفا بالفوطة حول خصرى اعزف « حكايات هوفمان » على الكمان وغمغمت قائلا :

ـ هيه .. شيء جميل

فانفجر سيدنى ضاحكا فجأة :

ـ سيصبح هذا جزءا من ذكرياتى : انت بهذه الفوطة حول ردفيك والكمان الذى تعزف عليه ، وتعليقك على نبأ تعاقدى على مليون دولار وربع !

على أن كل هذا الثراء الموعود لم يغير شيئا من اسلوب حياتى . صحيح اننى الفت الثروة ، ولكننى لم اكن قد الفت الانفاق . فالمال الذى اكسبه كان اسطورة .. كان رمزا مجسدا فى ارقامه ، ولم يحدث ابدا أن رأيته بعينى . فكان لابد لهذا من أن افعل شيئا يثبت لى اننى املكه ، وهكذا عينت لنفسى سكرتيرا ، ووصيفا ، وسيارة ، وسائقا . وذات يوم مررت امام نافذة محل لبيع السيارات ، فوقع بصرى على سيارة لوكوموبيل ، وكانت تعد عندئذ أفضل سيارة فى أمريكا .. وبدت لى اعظم وارفع من ان تكون معروضة للبيع . ومع ذلك دخلت الى المحل سائلا :

ـ كم ثمنها ؟

ـ اربعة الاف وتسعمائة دولار

قلت :

« لفها » لى ! ..

فذهل الرجل . وحاول ان يقاوم ولو قليلا مثل هذه الصفقة الفورية . وقال :

ـ الا تحب أن ترى الموتور ؟

فاجبت :

ـ يستوى عندى اى موتور .. فانا لا افهم فيها جميعا على انني ضغطت بابهامى على اطار العجلة لابدى شيئا من الخبرة

وكان دفع الثمن شيئا بالغ البساطة ، لم يكلفنى غير كتابة اسمى على قطعة من الورق . صارت العربة بعدها ملكى !

اما استثمار المال فكان معضلة لا افهم عنها شيئا . ولكن سيدنى كان خبيرا بجميع اصطلاحاتها : فهو يعرف ما هى القيمة ، وأرباح راس المال ، والسندات العادية والممتازة ، وجداول « أ » و « ب » ، والارصدة المحولة والكوبونات ، والضمانات المصرفية لبنوك الادخار . وكانت فرص الاستثمار مزدهرة فى تلك الايام . وقد الح علي أحد مضاربى لوس انجلس ذات يوم ان ادخل معه شريكا فى عملية شراء مساحة ضخمة من الارض فى وادى لوس انجلس على ان يدفع كل منا مائتين وخمسين ألف دولار . ولو كنت قد قبلت وساهمت فى مشروعه لقفز نصيبى الى خمسين مليون دولار . اذ سرعان ما اكتشف البترول فى المنطقة ، وصارت من اغنى مناطق كاليفورنيا ..



مع انيشتاين : نظرية النسبية ولدت على أصابع البيانو !

الفصل الثالث عشر

مع المشـــاهير

* أردت أن يضحكوا فازدادوا حزنا
* خطاب بالصينية .. وأنا لا أعرف الصينية !
* قبلات لبافلوفا

في تلك الايام كان يجيء الى الاســــتديو كثير من المشاهير ..

كان يجيء « نيجنسكي » مع اعضـــاء فرقة الباليه الروسى .. وكان رجلا جادا ، جميل الطلعة ، له خدان بارزان ، وعينان حزينتان توحيان بأنه قسيس فى ثياب مدنية ..

وكنا عندئذ نصـــور فيلم « الدواء » . فجلس وراء الكاميرا يراقبني وانا اخرج منظرا كنت اعتقد انه مضحك، ولكنه لم يبتسم أبدا . وكان المتفرجون الاخرون يتفرجون وهويزداد حزنا .وقبل انصرافه جاء يصافحني ويقول لى فى صوته الاجش كم تمتع بعملى ، ويسألنى انكان ممكنا ان ياتى مرة أخرى . فقلت له :

ـ بالطبع ..

وطوال يومين بعد ذلك ، ظل نيجنسكي يأتى ويجلس حزينا كما هو . وفى اليوم الاخير طلبت من المصـــور الا يضع فيلما فى الكاميرا ، لان وجود نيجنسكي الحزين سيدمر كل محاولاتى لكى اكون مضحكا . ومع ذلك فانه فى نهاية اليوم جاء يطريني :

ـ ان فيلمك هذا اقرب الى الباليه .. وانك لراقص ..

ولم اكن قد شاهدت بعد الباليه الروسى ، أو أى باليه

آخر لكي أفهم ما يقول .. غير أنني في نهاية الاسبوع دعيت الى حضور الماتينيه ..

وكانت الرقصة الاولى هي « شهر زاد » .. فكانت استجابتي معها سلبية الى حد ما .. اذ كان فيها من التمثيل اكثر مما يجب . كما ان موسيقى « رمسكي - كورساكوف » كانت - في رايي - مسرفة في التكرار . اما الرقصة الثانية فكانت « خطوة الاثنين » بمصاحبة نيجنسكي . واذا بمس من الكهرباء يصيبني منذ اللحظة التي ظهر فيها ، ذلك انني رأيت في حياتي قليلامن العباقرة ونيجنسكي كان واحدا منهم . كان رجلا مغناطيسيا ، يشبه الآلهة ، ويوحي أساه بأحاسيس من عالم آخر فكل حركة منه شعر ، وكل قفزة تحلق في آفاق خيال غريب ..

فلما طلب اثناء الاستراحة ان اجيء الى غرفته ، وجدت نفسي عاجزا عن الكلام . فما يستطيع الانسان ان يعصر يديه ويعبر بالكلمات عن تقديره لفن عظيم . ولبثت في غرفته صامتا ، أراقب وجهه الغريب في المرآة وهو يضع ماكياج « امسيةالحيوان » ، راسما دوائر خضراء حول خديه . اما هو فكان فظا في محاولته ادارة الحديث معي ، يسأل اسئلة لا قيمة لها عن افلامي ، وأجيب أنا عن كل سؤال بنصف كلمة

ودق جرس المسرح في نهاية الاستراحة ، فاستأذنت أن أعود الى مقعدي . ولكنه قال :

- انتظر ريثما ترى : « بافلوفا » ..

وكانت بافلوفا تؤثر في دائما تأثيرا عميقا . وكان فنها ، رغم التماعه ، ذا طبيعة شاحبة ، وضاءة .. في رقة أوراق الوردة البيضاء . فاذا رقصت كانت كل حركة تقوم بها

مركز المسرح . وسواء كانت مبتهجة او حزينة ، فانها منذ اللحظة التى تدخل فيها كانت تجعلنى اشعر بالرغبة فى البكاء . فقد كانت تمثل لى مأساة الكمال !

وكنت قد عرفت « بافى » ــ كما يدعوها الاصدقاء ــ أثناء وجودها فى هوليوود لانتاج فيلم فى ستوديوهات يونيفرسال ، وانعقدت بيننا صداقة قوية . وانها لمأساة أن سرعة الافلام القديمة لم تسمح باظهار شاعرية رقصها. فبسبب هذه السرعة حرم العالم من تسجيل فنها العظيم ..

***

وقد حدث ذات مرة أن أقامت لها القنصلية الروسية عشاء رسميا كنت أحد المدعوين اليه. وكانت المناسبة «دولية» ووقورة جدا . وعلى مائدة الطعام شربت انخاب والقيت خطب بعضها بالفرنسية وبعضها بالروسية . واعتقد اننى كنت الانجليزى الوحيد الذى وجهت اليه الدعوة . على أنه قبل أن يجىء دورى فى الكلام ألقى أحد الاساتذة الجامعيين خطابا رائعا باللغة الروسية . وبينما هو يلقيه انفجر فجأة يبكى ، وانسابت دموعه ، واتجه الى بافلوفا وقبلها بحرارة شديدة ، وادركت عندئذ أن أية محاولة للكلام من جانبى ستبدو بعد ذلك هزيلة . فنهضت وقلت أنه لما كانت لغتى الانجليزية قاصرة تماما عن التعبير عن عظمة فن بافلوفا ، فاننى سأتكلم بالصينية ! ومضيت اقلد الرطانة الصينية بانفعال متزايد كما فعل الاستاذ ، مختتما حديثى بتقبيل بافلوفا بحرارة اشد مما فعل هو، ومستعينا بفوطة أخفيت بها رأسينا وانا مستمر فى تقبيلها . فضج المدعوون بضحكات صارخة ، وذاب جليد الوقار فى الحفلة ..

اما سارة برنار ، فكانت تمثل فى مسرح « أورفيم » .

وكانت بالطبع قد شاخت كثيرا ، وفى نهاية مجدها . ولهذا فليس فى استطاعتى ان اقدم تقييما صادقا لتمثيلها . على أنه عندماجاءت«ديوز» الى لوس انجلس ، التى لم يستطع حتى سنها المتقدمة ولا اقتراب نهايتها ان يخفيا عبقريتها المتوهجة . كان يشترك معها عدد من الممثلين الايطاليين الممتازين . وقبل ظهورها كان احدهم ــ وهو ممثل وسيم شاب ــ قد سيطر على المسرح بأدائه الممتاز . فوجـدت نفسى اتساءل : كيف ستتمكن « ديوز » يا ترى من التفوق عليه ؟ وبعد قليل ظهرت « ديوز » من بوابـة فى اقصى اليسار دون ادنى جلبة . وتوقفت عند سلة من زهـور الكريزانتيم كانت موضوعة فوق بيانو كبير ، وبدأت بهـدوء تعيد تنسيقها . وسرت همهمات فى القاعة ، وتحول انتباهى على الفور عن الممثل الشاب وتركز على « ديوز » ، ولم تنظر هى لا الى الممثل الشاب ، ولا الى اية شخصية اخرى على المسرح ، بل واصلت بهدوء تنسيق الزهور ، واضافة زهور اخرى حملتها معها . فلما فرغت من ذلك مشـت ببطء عبر المسرح حتى بلغت المقدمة ، وجلست فى مقعد ذى مسندين بجوار المدفأة ، ومضت تتأمل اللهب . ولم تنظر الى الرجل الشاب الا مرة واحدة . ولكن كل حكمـة الانسانية وآلامها كانت فى هذه النظرة . ثم عادت تنصت صامتة ، وتدفىء يديها الجميلتين الحساستين ..

وبعد ان فرغ هو من القاء خطابه الحماسى ، بدأت تتكلم بهدوء وهى تنظر الى النار . فلم تكن فى القائها تلك النبرة التمثيلية المشرقة ، وانما كان صوتها ينساب من وراء جمر من الاسى العنيف . ولم افهم مما تقول كلمة واحـدة ، ولكننى تحققت من انى فى حضرة أعظم ممثلة شهدتها فى حياتى ..

لم يكن عبثا ان دوجلاس فيربانكس قد تمتع دائما بحب

الجمهور ، واستثار خيـاله .. فروح أفلامه ، وتفاؤلها وتفاؤها ، كانت تتفق كثيرا مع الذوق الامريكى .. أو فى الحقيقة مع ذوق العالم كله . وكان هو يتمتـع بجاذبية مغناطيسية ، وسحر خاص ، وحيوية أصيلة كالاطفـال يعدى بها الجمهور

ومع أن «روج» كان محبوبا الى حد فائق ، فانه كان يطرى بكرم مواهب غيره من الناس ، ويتواضع فيما يتعلق بمواهبه هو . وكثيرا ما كان يقول ان مارى بيكفورد وانا نتمتع بالعبقرية ، اما هو فلا يتمتع الا بموهبة محدودة . ولكن الامر لم يكن بالطبع كذلك . فدوجلاس كان رجـلا خلاقا ، وكانت أعماله دائما على مستوى عظيم

وقد بنى مناظره من أجل فيلم « روبن هود » على عشرة أفدنة . وكانت تشمل قلعة ضخمة ذات ابراج ، وكوبرى متحركا ، اكبر من اية قلعة اخرى فى العالم . وعندما دعانى باعتزاز كبير الى مشاهدة الكوبرى المتحرك الضخم قلت :

ــ عظيم . انه يصلح افتتاحا رائعا لاحدى كوميدياتى : يهبط الكوبرى الضـخم حتى يلامس الارض ، ثم اعبره لأسرح القطة وآخذ اللبن وأعود الى الداخل !

وكان دوجلاس أول نجم أقام فى «بيفرلى هيلز» ، مسكن معظم النجوم الان ، وكثيرا ماكنا ننخرط ــ فى تلك الايام ــ فى المناقشات الفلسفية . اذ كان هو يعتقد أن حياتنا مقدسة وأن مصيرنا هام . وما زلت أذكر أمسية صيف حارة صعدنا فيها فوق خزان مياه ضخم وجلسنا هناك نتحدث وامامنا خلاء بيفرلى الشاسع . وكانت النجوم تتـألق بأضواء غامضة ، والقمر مشرقا ، وانا اقول ان الحيـاة لا معنى لها . فأجابنى بحرارة وهو يشير بيده اشـارة تشمل السماء كلها :



مع برنارد شو وليدى استود ، وآمى جونسون ... فى انجلترا

ـ انظر ! انظر الى القمر ! انظر الى هذه الاسراب من النجوم ! لابد أن هناك مبررا ومعنى لكل هذا الجمال . لابد أنه يحقق هدفا ما ! لابد انه يرمى الى الخير ، واننى انا وانت جزء من هذا الخير !

ثم التفت نحوى بالهام مفاجىء :

ـ لماذا تظن انك منحت هذه الموهبة ، ووسيلة التعبير الرائعة ـ السينما ـ التى تصل الى ملايين الناس فى كافة أنحاء العالم

قلت :

ـ لماذا منحت أيضا لاخوان وارنر ولويس ب . ماير ؟

فضحك دوجلاس

والحق ان رومانتيكيته كانت مرضا عنده لا شفاء منه. وكان أحيانا ـ عندما أقضي معه عطلة نهاية الاسبوع ـ يوقظني في الثالثة صباحا من نوم عميق ، لكي اشاهد من خلال الضباب فرقة من هاواي تعزف في الوادي «سيرنارا ماري » ! ..

وكان دوجلاس ايضا من الطراز الرياضي من الناس ، يقود سيارته الكاديلاك المفتوحة وفي مقعدها الخلفي كلاب من طراز الوولف وكلاب بوليسية . وكان يحب أمثال هذه الاشياء حبا أصيلا ..

كانت هوليوود تتحول بسرعة الى كعبة للكتاب والممثلين والمفكرين . وكان المؤلفون المشهورون يتوافدون عليها من كافة أنحاء العالم : سير جلبرت باركر ، وليم لوك ، ركس بيتش ، جوزيف هرجسهيمر ، سومرست موم ، جوفرينر موريس ، ايبانيز ، اريث وارتون ، كاتلين فوريس ، وكثيرون غيرهم

على ان سومرست موم لم يعمل مطلقا في هوليوود ، بالرغم من ان الطلب على قصصه كان شديدا .. الا انه ذات مرة اقام فيها عدة اسابيع قبل رحلة الى الجزر الجنوبية .. حيث اعتاد ان يكتب روائع قصصه القصيرة . وقد روى لي ولدوجلاس على مائدة الطعام احدى هذه القصص ـ ساري تومسون ـ التي كان يقول انها مبنيةعلى أحداث واقعية ، والتي حولها فيما بعد الى مسرحية بعنوان «الامطار» . وقد كنت دائما اعتبر «الامطار» مسرحية نموذجية ..

قابلت الينور جلين اثناء عشاء اقامته لعشرة اشخاص فى فندق هوليوود . وكان مقررا ان نلتقى فى جناحها الخاص لتناول الكوكتيل قبل ان نقصد الى قاعة الطعام . ووصلت انا قبل الاخرين ، فمدت يديها تحتوى بينهما وجهى ، ونظرت بعمق فى عينى وهى تقول :

ـ آه ! دعنى اتأملك جيدا . يا للغرابة كنت اظن ان عينيك بنيتان . ولكن لونهما بالغ الزرقة !

ومع ان تصرفها كان مربكا لى فى البداية ، فاننى اعجبت بها كثيرا بعد ذلك

وكان مشهورا عن الينور انها عاطفية ، ولكن الحقيقة انه لم يكن هناك من هو أكثر اتزانا منها . وكانت مفهوماتها الغرامية فى الافلام ساذجة كمفهومات البنات الصغيرات نساء يتحسسن بأهدابهن وجوه عشاقهن ، ويتهالكن على أبسطة من جلد النمر

وكانت الثلاثية التى كتبتها لهوليوود ثلاثية متناقضة الزمن : فالجزء الاول اسمه « ثلاثة أسابيع » ، والثانى « ساعته » ، والثالث «لحظتها» . اما عقدة القصة فتدور حول سيدة مشهورة ـ تؤديها جلوريا سوانسون ـ مضطرة الى الزواج من رجل لا تحبه . وبينما هى فى الغابات الاستوائية تخرج ذات يوم وحدها على ظهر جوادها للبحث عن زهرة نادرة . وفى اللحظة التى تميل فيها على الزهرة يلدغها ثعبان قاتل فى نهدها مباشرة . وتطبق جلوريا بيديها على صدرها وتصرخ ، فيسمعها الرجل الذى تحبه اثناء مروره ـ مصادفة ـ على مقربة من المكان . وكان يؤدى هذا الدور تومى ميجان . فيظهر من خلال احدى الاشجار سائلا :

ـ ماذا حدث ؟



مع غاندى فى لندن

فتشير الى الثعبان السام قائلة :

ـ لقد لدغت !

ـ اين ؟

فتشير الى صدرها

عندئذ يقول تومى :

ـ تلك هى أخطر الحيات جميعا ـ يقصد بذلك الثعبان لا المرأة ـ هيا أسرعى .. يجب أن نفعل شيئا لا يجوز أن تضيع لحظة واحدة

ولكنها على مسافة اميال من اقرب طبيب ، والعلاج المعتاد عن طريق ربط الذراع لوقف الدورة الدموية لايخطر

بال أحد .. واذا به فجأة يرفعها بين ذراعيه ، ويمزق قميصها عند الخصر ، ويقرب اليه كتفيها العاجيتين ، ثم يستدير مخفيا اياها عن الكاميرا المفتوحة الوقحة ، ويميل عليها ليمتص السم بفمه ، ويبصقه بين لحظة واخرى والنتيجة لهذه العملية الجراحية تتزوجه !

الفصل الرابع عشر

المتاعب على القمة

* ثم جاءت المفاجأة ..
* الطريقة اليائسة فى اخراج الأفلام
* كيف تكون الجنازة مضحكة ؟

كنت فى لهفة بعد انتهاء عقدى مع شركة ليوتوالى إلى بدء العمل مع شركة فرست ناشونال . ولكن لم يكن لدينا استديو . فقررت أن اشترى أرضا فى هوليوود وأبنى لنفسي واحدا وكان موقعه عند تقاطع « صن ست » و « لابريا » .. وكان مزودا ببيت جميل من عشر غرف، وخمسة افدنة من اشجار الليمون والبرتقال والخوخ . وبنينا فيه وحدة نموذجية كاملة ، بما يتبعها من معامل للتحميض والانتاج ، ومكاتب للادارة ..

وبينما العمل يجرى فى بناء الاستديو ، قمت برحلة إلى هونولولو مع « أونا بورفيانس » بهدف الاستجمام لمدة شهر . وكانت هاواى بلادا جميلة فى ذلك الوقت . ولكن احساسى بأنني على مسافة آلاف الاميال من وطنى كان يثير فى نفسي الكآبة . وبالرغم من جمال المكان كنت سعيدا بالعودة منه ، اذ كنت اشعر كأننى سجين داخل زنبقة !

ولم يكن هناك مفر بالطبع ــ فى وجود فتاة جميلة كأونا بورفيانس ــ من نشوء علاقة تشغل قلبى . وكنا نحمل هذه العلاقة على محمل الجد ، وفى ثنايا ذهنى فكرة بأننا ــ ذات يوم ــ قد نتزوج . على انه كانت لي تحفظات بشأن اونا ، اذ لم اكن واثقا من شعورها الحقيقى ، ولم اكن ــ نتيجة لذلك ــ واثقا من شعورى انا

وفى عام ١٩١٦ كنا لانكاد نفترق . وصرنا نظهر معا فى

كافة السهرات وحفلات الصليب الاحمر .. حيث كانت اونا عادة تصاب بالغيرة ، وتعبر عنها بطريقة ذكيـــــة غير مباشرة . فما تكاد احداهن تبدى اهتماما زائدا بى حتى تختفى اونا ، ويأتى من يخبرنى بأنها اصيبت باغماءة ، وانها تطلبنى ، فأذهب على الفور ، وأظل معها بالطبع بقيـــــة السهرة

***

ثم جاءت المفاجأة ذات ليلة أثناء سهرة «فانى وارد » .. حيث كان المكان محتشدا بأسراب من الحســـناوات والشباب . اذ اغمى كالعادة على اونا ولكنها عندما افاقت سألت عن «توماس ميجان» نجم بارامونت الوسيم ! ولم أعرف ذلك الا فى اليوم التالى من فانى وارد . اذ انهـــا كانت تعلم بمشاعرى تجاه أونا . ولم يرضها ان تدعهـــا تعبث بى ..

ولم استطع ان اصدق . واصيبت كرامتى بجرح عميق وثرت ثورة عنيفة . وقلت لنفسى لو صح هذا فستكون النهاية لعلاقتها . مع ذلك احسست اننى لن اســـتطيع الاستغناء عنها هكذا فجأة . اذ سيكون الفراغ الذى تخلفه كبيرا . وبدأت استعيد فى ذهنى ماذا كان يعنى كل منـــا بالنسبة للآخر ..

وفى اليوم التالى وجدت نفسى عاجزا عن العمـــــل . واتصلت بأونا بعد الظهر لاطلب تفسيرا منها وفى نيتى ان أشخط وأنطر .. فاذا بكبريائى يجعلنى بدلا من ذلك أتخذ موقفا ساخرا ، واجعل من المسألة نكتة :

ــ سمعت انك سألت عن الاسم الخطأ فى حفلة فانى وارد . لابد ان ذاكرتك اصابها الضعف !

فضحكت فى شىء من الارتباك :

ــ ما هذا الذى تتحدث عنه ؟

كنت أطمع أن تنكر بحرارة . ولكنهـا بدلا من ذلك تصرفت بذكاء . وسألت من الذى قال هذا الكـــلام الفـارغ ..

فأجبتها :

ـ لا أهمية لذلك . ولكننى اظن انى اهم لديك من ان تجعلى منى اضحوكة أمام الناس

فظلت هادئة جدا . واصرت على ان ما ســمعته كاذب ..

واردت ان أحرجهــا بالتظاهر بعدم الاكتراث فقلت :

ـ لست فى حاجة الى ان تخفى عنى شيئا . فأنت حرة تفعلين ما تشائين . اننا لسنا زوجين . وما دمت تقومين بعملك على ما يرام فهذا كل ما يهمنى

فوافقت تماما ، وبارتياح ، على كل ماقلت . فهى لاتريد ان نقحم أى شيء على علاقتنا فى العمل . وقالت انناسنظل دائما صديقين .. الامر الذى جعلنى ازداد شــعورا بالتعاسة ..

وظللت أتحدث أكثر من ساعة بطريقة عصبية ، مرتبكة، على أمل أن أجد عذرا للصلح . وكما هى العادة فى مثـل هذه الاحوال أحسست باهتمامى بها يتجـدد ، وانتهت المحـادثة الى دعوتى اياها للعشــاء بحجة مناقشـة الموضوع ..

وترددت هى . فألححت عليها . بل فى الواقع رجوتها وناشدتها ، وقد سقطت كافة حصون كبريائى . الى ان وافقت اخيرا ، وتناولنا فى تلك الليلة عشــاء من البيض واللحم أعدته فى شقتها

***

وتم نوع من الصلح جعلنى أهدأ حالا . ومكننى على الاقل مناستئناف العمل فى اليوم التالى . على انه ظـل

يراودني احساس بالاسى والندم . وبدات الوم نفسي على انني كثيرا ما اهملتها . ومزقتني الحيرة وانا افكر : هل اقطع معها علاقتي نهائيا ؟ اليس محتملا ان تكون حكاية ميجان هذه غير صحيحة ؟

وبعد ذلك بثلاثة أسابيع جاءت أونا الى الاستديو لتتسلم مرتبها ، فالتقيت بها مصادفة أثناء خروجها . وكان معها صديق قدمته الى ببساطة :

ـ هل تعرف تومي ميجان ؟

فصدمت . اذ بدت اونا فى تلك اللحظة القصيرة غريبة تماما عني ، كما لو كانت تراني لاول مرة ! وقلت :

ـ بالطبع . كيف حالك يا تومي . فارتبك قليلا . ولكننا تصافحنا وتبادلنا كلمات المجاملة المعتادة ، وانصرفا معـا بعد ذلك

***

ولكن الحياة على أية حال مليئة بألــوان الصراع التي لا ترحم الانسان . فاذا لم تكن مشكلة الحب فهي مشكلة اخرى .. النجاح برغم روعته يقتل أعصاب الانسان بما يتطلبه من جهد للاحتفاظ بتلك العذراء المتقلبة التي يدعونها « الشهرة » . ومع ذلك فقد كان العمل عندئذ عزائي الوحيد ..

الا ان التاليف والتمثيل والاخراج لمدة اثنين وخمسين اسبوعا فى العام كان شيئا مجهدا ، يحتاج الى انفاق طاقة عصبية هائلة . حتى لقد كنت بعد الانتهاء من أى فيـــلم اشعر بالارهاق والانهيار ، واضطر الى التزام فراشي يوما كامــــلا ..

على انني كنت سريعا ما استعيد نشاطي . ففي الصباح التالى وأنا أقود سيارتي فى اتجاه الاستوديو أفاجأ بذهني

يتحفز من جديد ، وبفكرة غامضة فى راسى اصدر الامر باقامة مناظر معينة . وبينما العمل يجرى فيها يجيء المدير الفنى يستعلم عن بعض التفاصيل ، فأكذب عليه وأدعى أننى اريد بابا هنا وبابا هناك . وما كان أكثر الافلام التى بدأتها بهذه الطريقة اليائسة

وكان ذهنى احيانا يلتوى كالحبل المعقود ، واصبح فى حاجة الى شيء من الاسترخاء . وعندئذ كانت تكفينى فى العادة سهرة خارج البيت . اما الخمر فلم أكن ألجأ اليها لكسب النشاط . بل الحقيقة اننى أثناء العمل كنت اومن بأن اى تنشيط صناعى من اى نوع سيؤثر على صفاء ذهنى . وليس هناك ما يحتاج الى يقظة عقلية تامة كما تحتاج صياغة وأخراج الكوميديا

اما طاقتى الجنسية ، فقد كان معظمها ينفق فى عملى . ذلك اننى كنت رجلا منظما ، واحمل عملى على محمل الجد وكنت كبلزاك ، الذى كان يؤمن بأن ليلة من الاستمتاع الجنسى معناها ضياع صفحة من روايته . كذلك كنت أعتقد أنا أنها ستعنى ضياع يوم من العمل الجيد

***

انتهت قصة غرامى نهاية فاشلة .. اذ انصرفت أونا بورفيانس عنى ، وتعلقت بغيرى ووجدت ان عزائى الوحيد لن يكون الا فى العمل . فانصرفت اليه . افرغ فيه كل طاقتى ..

كان اول افلامى فى الاستديو الجديد « حياة كلب » . وكان فى القصة عنصر من السخرية ، يتمثل فى المقابلة مابين حياة الكلب وحياة الصعلوك الآدمى . اذ كنت قد بدأت أفكر فى الكوميديا بمنطق تركيبى ، وأعى بنياتها «المعمارى» فكل حدث يقود الى الحدث التالى ، وجميعها ترتبط بخط عام واحد ..

كان المنظر الاول منظـــر انقاذ كلب من احـــدى صالات الرقص . وبعـــد ذلك تتوالى الاحـــداث ، وكلها فى تتابع وترابط منطقى . فالكوميـــديات الهزلية على بساطتها ووضوحها تستنفذ الكثير من التـــفكير والابتكار . وكل فكرة مهما كانت طريفة لابد أن يضحى بها اذا تعارضت مع منطق الحوادث

وفى أيام « كيستون » كان الصعلوك أكثر من هذا تحررا، واقل التزاما بحدود القصة . كان عقله عندئذ لا ينشط الا قليلا . وانما تنشط غرائزه فقط ، تلك الغـــرائز المرتبطة بحاجات الانسان الاساسية : الطعـــام والدفء والمأوى .. ولكن هذه الشخصية كانت تزداد تعقيدا مع كل فيلم جديد . اذ بدأت العواطف تتسبـــلل اليها . وصارت هذه مشكلة ، مادام يجب عليه ان يلتزم حدود الكوميديا الهزلية . وقد يبدو هذا الكلام مبالغة ، ولكـــن الحقيقة ان الهزل يحتاج الى أدق تحـــــديد نفسى للشخصيات ..

وهكذا ، مع نمو مهارتى فى بناء القصة ، كانت تتقيـــد حريتى فى الاضحاك . او كما كتب لى احد المعجبين مفضلا افلامى الاولى ايام كيستون على افلامى الحديثة : لقـــد كان الجمهور عندئذ اسيرك . واليوم صرت انت اســـير الجمهور

وقد كانت عندى منذ عام ١٩١٦ أفكار كثيرة لافـــلام طويلة . ومن هذه الافكار مثلا : رحلة الى القمر ،تتضمن عرضا لالعاب اوليمبية هناك ، وتستغل الامـــكانيات المضحكة للعبث بقوانين الجاذبية .. على ان يكون طـــابع الفيلم السخرية من التقدم . كما فكرت ايضا فى « ماكينة للاطعام » ، وفى قبعة كهربائية تسجل أفكار الذى يرتديها، وما يمكن ان يحدث لى من متاعب اذا ما ارتديتها وبدأت

أتعرف على الحياة الغرامية والجنسية لانسان القمر . وقد استخدمت فى النهاية « ماكينة الطعام » بالفعل فى فيلم العصر الحديث

وقد سألنى عدد كبير من الذين قابلونى كيف احصل على أفكار أفلامى ولكننى حتى هذه اللحظة لم استطع أن اجد جوابا شافيا . فعلى مدى الاعوام لم اكتشف الا ان الافكار تأتى من خلال الرغبة الشديدة فى ايجـــادها . فبالرغبة المتصلة يتحول العقل الى « برج مراقبة » يفتش عن الحوادث والملابسات التى تستثير الخيال ــ وقـــد تكون الموسيقى احيانا ، او مشهد غروب الشـــمس ، مصدر الهام بفكرة جديدة

وكل ما استطيع ان أقوله هو : التقط أى موضوع يثير انتباهك ، ثم طوره وعالج تفاصيله .. فاذا وصلت به الى مرحلة تعجز عن التقدم بعدها ، اطرحه جانبا والتقط موضوعا آخر . فغربلة الاشياء المتراكمة ، والتخلص من بعضها ، هو العملية التى تقودك الى العثور على ماتريد

ولكن كيف يحصل الانسان على الافكار اصلا ؟ بمجرد الاصرار الى حد الجنون ! اذ لابد ان يكون الانسان قادرا على احتمال الالم والجهد والاحتفاظ بحماسه وقتا طويلا. ولعل بعض الناس يجدون المهمة اسهل مما يجدها البعض الآخر ، وان كنت أنا أشك فى ذلك

وطبيعى أن كل كوميدى ناشىء ينحـــرف عادة فى تصميمات فلسفية عن الكوميديا .. ففى أيام كيستون مثلا لم يكن يمضى يوم دون ان تتردد عبارة « عنصر المفاجأة والتشويق » أما أنا فلن احاول الغـوص الى اعماق التحليل النفسى من اجل ان أفسر السلوك الانسانى الذى هو فى رأيى ــ كالحياة نفسها ــ لغز لا تفسير له . اننى لم اكن فى حاجة الى قراءة الكتب كى أعرف ان قانون

الحياة هو الصداع والالم . وكل حركاتى البهلوانية كانت ــ بالاحساس الغريزى ــ مبنية على هذا الاســــاس . ووسائلى فى نسج العقد المضحكة كانت بســـيطة جدا : ايقاع الناس فى المآزق ثم اخراجهم منها

أما الكوميديا الفكاهية فامرها بالطبع مختلف ، ومستواها أعمق . فنحن من خلالها نرى ماهو غير معقول فى الاشياء التى تبدو معتدلة ، ونرى ماهو تافه فى الاشياء التى تبدو هامة . وهى بهذا ترهف احساسنا ، وتحمى عقولنا . اذ بفضلها تختنقنا تناقضات الحياة وسخافاتها . وبفضلهــا نتعلم الاتزان فى تقييم الاشياء ، ونفهم أنه فى المبــالغة فى الجد يكمن السخف

خذ مثلا : جنازة يجتمع فيها الأصدقاء والاقارب فى صمت ووقار ، ثم يصل احدهم متأخرا فى اللحظة التى توشك فيها الصلاة أن تبدأ ، فيمشى على اطراف اصابعه حتى يبلغ مقعده .. حيث كان احد المعزين قد وضع قبعته ثم بنظرة اعتذار صامتــة . . يردها مهشمة تماما الى صاحبها الذى يتناولها بنظرة غيظ صامتة ايضا، ويواصل الاستماع الى الصلوات . ان شيئا كهذا يكفى لكى يجعل وقار المناسبة يبدو بالغ السخف !

فهرس

صفحة

في الجزء الثاني من هذه المذكرات

* أول صدام مع تجار السينما
* تزوجت .. بسبب ملاحظة قالها خادمي !
* غزو انجلترا ...
* صديقي ، مندوب الحكومة البلشفية !
* بداية المتاعب في أمريكا
* هتلر ، وهيرست ، ونابليون
* محاكمتي ..
* لماذا تركت أمريكا ؟
* وأخيرا .. هل أنا شيوعي ؟

يصدر في ٥ سبتمبر القادم

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن على نحاس - ص٠ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد - ص٠ب ٢١

البرازيل :
Sr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao. Paulo, BRAZIL

سنغافورة :
Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Almaktab Attijari Assharat,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

انجلترا :
ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishoposthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND

هذا الكتاب

لم يسبق أن دار اسم حول العالم كما دار اسم شارلى شابلن . ولم يسبق أن اقتحم فنان قلوب عدد من البشر كما فعل ...
فى سبيله حواجز اللغة ، أو السن . أو الثقافة .
طوال نصف قرن بالصورة وحدها . والصورة لا
وهو قد اختار الضحك وسيلة الى نقل أفكاره .
الى الاسماع . لانه ينفذ مباشرة الى القلب ..

من أجل هذا لم يكن غريبا حين أصدر شارلى شابلن
تترجم على الفور الى عدة لغات . بل لقد نشرت
فصول فى احدى الصحف ، فنقلت بالتلغراف ، وتر
صحف أخرى !

وهى الان تنشر على قراء العربية فى ترجمة كاملة
لها بروح الاصل .. روح العمل الفنى الذى يعكس قـ
صاحبه ..

